

رواية

علي بدر

لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي

الطبعة الثانية



ألكا

تعدنا روايات علي بدر بكل جديد ونادر، من الحياة والمجتمع ومن الثقافة، نسيج آسر لا يمل من السرد الجميل.

إيف كونزاليس

أعماله محكمة الصياغة وسرده رفيع المستوى، أتابع رواياته واحدة بعد أخرى.

صحيفة الإندبندت البريطانية

أحد أهم الروائيين العرب المعاصرين، تميز بنبوغه في كتابة رواية مختلفة عن الرواية العربية.

فاطمة المحسن

لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي

لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي
Do not chase the wolves, my dear

علي بدر

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2017
First Edition: Beirut - Lebanon, 2017



لبنان ـ بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 541980 1 961+
daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
DAR ALRAFIDAIN@maassourati



دار ألكـــا
بلجيكا/ بروكسل
Chaussée de Haecht 57, 1210, Bruxelles/Belgium
العراق/ بغداد / محلة جديد حسن باشا
www.daralca.com / info@daralca.com

ISBN: 978 - 1 -77322 - 169 - 4

رواية

لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي

علي بدر





هنا شعبي الذي ينام، منذ أمد بعيد،

وناسي لم يكونوا مجرد أحلام سيارات عتيقة .بلا محركات،

مركونة في واجهة البيت

Syrin Stimp

يا أمريكتي! يا أرضي المكتشفة الجديدة

يا مملكتي الأكثر أمانا عندما تكونين محصنة برجل واحد

John Donne

أصل المسألة؟

كانت وكالة الصحافة الأجنبية، التي يطلق عليها المثقفون والصحفيون ومقدمو البرامج والسياسيون هنا مختصر «أم آي سي media in cooperation» هي التي أوفدتني بمهمة سريعة إلى أديس أبابا. وهذه هي المرة الأولى التي أقوم فيها بعمل خارج الوكالة. فبعد عشرين عاماً من العمل في ال ـ «أم آي سي» ـ المثقفون هنا مولعون بالاختصارات ـ لم أبارح مكاني مطلقاً، حتى كدت أتعفن في أحد مبانيها.

أخيراً، وقبل شهرين من الآن، هكذا وببساطة شديدة، قالوا لي نريد منك أن تكتب لنا تقريراً صحفياً مفصلاً، مزوداً بالصور والوثائق، عن مجموعة من الثوار العراقيين، وهم من الماركسيين، أو من التروتسكيين تحديداً ـ المثقفون هنا مولعون بالتصنيفات ـ كانوا قد غادروا بغداد، صيف أحد أعوام السبعينيات، والتحقوا بالثورة العالمية ضد المصالح الغربية والشركات الكبرى التي اجتاحت ذلك الوقت آسيا وأفريقيا، وهذا من توجهات الوكالة الأخير: إعادة النظر بمشاكل الشرق الأوسط القديمة، ولا سيما بعد الإطاحة بنظام صدام.

كما أن هذا التقرير هو الذي سيديم عملي في الوكالة، فهنالك حملة داخل الوكالة لإقالة الصحفيين الذين لم يعد لهم نفع ـ هذا من وجهة نظر الوكالة، بطبيعة الأمر ـ إلا في حالة واحدة، هو أن يقدم الصحفي عملاً جديداً، عملاً إبداعياً لم يسبق لأحد أن قام به.

حسن سيتحدد مستقبلي على هذا التقرير. مع ذلك لم يكن الأمر سيئاً بالنسبة لي، أو أنّ هذا الأمر أشعرني بأنه عمل ثقيل عليّ أن أقوم به مرغماً من أجل إدامة واستمرار عملي في الوكالة ـ على الرغم من صغر الميزانية المحددة لهذا التقرير ـ لا أبداً كان هنالك ما هو ممتع جداً في هذه المهمة. فهنالك الثوار العراقيون، الماركسيون تحديداً، الذين حلمت بحياتهم منذ كنت مراهقاً في بغداد، وكنت من عائلة شيوعية معروفة، وهنالك أفريقيا أيضاً:

كان الأمر مثل حلم بعيد، لم تكن أفريقيا، القارة السوداء، هي مجموعة الحيوانات التي لم نرها على نحو كامل تقريباً، هناك في بغداد حيث ولدت ونشأت على الأقل، مثل: الكوبرا، والفيل، والتمساح، والقرد، والخرتيت، والنمر، ولا هي الكومبو، وبيوت القش، والنساء العاريات، كما عرفتها هنا عبر شاشات التلفزيون الغربية والتي تقدم بين حين وآخر أفلاماً وثائقية عنها، حسب، إنما هي أعوام طويلة من القتال والثورة ضد المصالح الغربية. هكذا نسمي الاستعمار في الوكالة، على نحو غير مسبوق تقريباً، وهي عالم من الأخبار والتقارير الصحفية والأفلام الصغيرة التي تصور الثوار السود وهم يحملون البنادق الروسية الصنع، ويقاتلون القوات الحكومية المدعومة على الدوام من قبل الغربيين والأثرياء المحليين الفاسدين.

* * *

وهكذا وقفت أمام قرار سفري منذهلاً، ذهولي أمام أول خيال يمكنه أن يأتي من ذاكرتي عن أفريقيا: قمم أشجار لا مضيئة ولا معتمة، ونور شمس غير واقعية تماماً، وخيال يتجدد بصوت غير مسموع، وله القدرة على إيقاف الزمن عن الاستمرار.

* * *

ـ سعار.. كانت سعاراً هذه الثورة التي اشتعلت ضد المصالح الغربية في أفريقيا وآسيا!

قال مدير الوكالة وهو يخطط لما يمكنني أن أفعله، ثم أكمل:

ـ أولاً عليك أن تجمع من داخل العراق ما يمكنك أن تجمعه عن هؤلاء الثوار من معلومات.

ـ سأفعل ذلك.. قلت له.

ثم أخذت رئيسة القسم تشرح لي الأمر بابتسامة ملهمة:

«كان هؤلاء الثوار قد نزحوا من بغداد نحو الأهوار ليشعلوا الثورة ضد الدكتاتوريين العسكريين، وبعد أن دعمنا الدكتاتورية نحن ـ الأميركيين تحديداً ـ لندحرهم، هاجروا إلى أفريقيا ليشعلوا الثورة هناك ضد الشركات الاحتكارية الكبرى والأمراء الفاسدين، وقد ساعدنا، نحن، الأخيرين لندحر هؤلاء المتمردين، وها نحن اليوم قد تغيرنا.

أصبحنا نبحث عن أولئك الأشخاص الذين دحرناهم وعذبناهم وأنهينا ثورتهم، أين هم؟ ما هي أسماؤهم؟ عناوينهم؟ حياتهم في العراق، أفكارهم السياسية، ما هي قصة سفرهم إلى أفريقيا واشتراكهم في الحرب ضدنا؟»

اغتراب

لم أزر العراق، بلدي الذي ولدت فيه، منذ أن غادرته قبل أكثر من خمسة وعشرين عاماً. عمري الآن هو الخامسة والأربعون، وقد أمضيت أكثر من نصف عمري خارجه. لم أكن منفياً سياسياً أو لاجئاً أبداً، ولا محكوماً بالإعدام مثل كثيرين ممن أعرفهم هنا. ويندر أن تجد شخصاً مثلي يعترف بذلك. فكثيرون هنا يدعون أشياء لم يصنعوها في حياتهم، ولكنها تضفي عليهم هالة كبيرة كسياسيين ومنفيين ومناضلين وسجناء سابقين، حتى وإن لم يكونوا كذلك.

أنا لم أعمل بالسياسة يوماً قط، وإن كنت أخفي مواقف سياسية متعاطفة مع الشرق الأوسط، ومواقف سياسية متعاطفة مع قضايا العالم الثالث ضد الاستعمار، وهو ما يصنف تحته اليساريون أو الماركسيون عادة. ببساطة أنا ماركسي، أؤمن بالمادية الديالكتيكية ودكتاتورية البروليتاريا، إلا أنّ عملي في الـ «أم آي سي Media in cooperation» كان محايداً تماماً، فأنا أعمل فيها محللاً للأخبار السياسية والاقتصادية الخاصة بالعراق، وهي وكالة محايدة أيضاً، تزود الصحافة وأصحاب القرار بالتحليلات والمعلومات عن الشرق الأوسط، وبعض المناطق الساخنة من العالم.

ومن جهتي أنا فقد درست هنا، وتعلمت أن أكون محايداً ونزيهاً في مهنتي. ومن البداية ألزمت نفسي بمهنتي وعملي وحياديتي، وكنت مثل

الجراح لا يهمني الآلام التي أسببها للضحية طالما أن الأمر يتعلق بشرف المهنة ونزاهة العمل.

أما وجودي في أميركا فقد كان طبيعياً. قلت «طبيعياً» لأني مع أول فرصة للدراسة في الجامعة، قررت البقاء هنا. وبعد تخرجي، منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً شغلت هذا العمل، محللاً سياسياً لشؤون الشرق الأوسط في الوكالة الأجنبية للصحافة «الأم آي سي».

عملت بشكل محدد خبيراً بالشؤون السياسية للعراق الحديث. ومنذ عملي هنا، كنت تخفيت تماماً عن كل ما يخصّ البلاد التي جئت منها خوفاً من وضعها السياسي الآسن في ذلك الوقت، وكخبير في شؤونها السياسية والثقافية قدمت تقاريري وتحليلاتي للوكالة باسم مستعار.

فقد كان الاسم المستعار هو الصيانة الحقيقية لوجودي ولكياني، ومن خلاله أوجدت نفسي وقدمت عملي، ومارست جميع أوجه حياتي. ولا أحد يعرف اسمي الحقيقي حتى زوجتي التي قلته لها آلاف المرات، وكانت كل مرة تنساه، وتطلب مني أن أذكره لها. ومن ثم عشت هنا في نيويورك. وتزوجت من امرأة أميركية منذ أول عام دخلت فيه البلاد، ولدي أولاد يعيشون مثل أي أميركي آخر، يأكلون الهمبرغر ويتابعون أفلام هوليوود، ولا يعرفون عن البلاد التي جاء أبوهم منها غير القصص الخيالية الشهيرة مثل مصباح علاء الدين، والسندباد البحري، وهي القصص التي يعرفها كل طفل في أوربا وأميركا تقريباً.

* * *

عشنا أنا وزوجتي ماري ـ أطلق عليها ميمي للاختصار ـ في أماكن متعددة من أميركا. لم تكن حالنا أول زواجنا مثلما هو عليه الآن، أبداً، فقد

تغيرت حياتنا عشرات المرات. لقد تغيرت مواقعنا مرة إثر مرة. وكنا نترقى ونتحول من موقع إلى آخر. في بداية حياتنا كان الأمر صعباً تقريباً، ولكنه مختلف جداً عما هو عليه الآن. فقد اشترينا شقتنا هذه، الواقعة جنوب شارع هيوستن، والتي نسكن بها أنا وميمي والأولاد مؤخراً. وهي شقة راقية جداً، وبصراحة: أنا أحببت هذا الشارع ـ شارع هيوستن ـ إلى حد الشغف. وأنا أطلق عليه «وطني»، ربما لأن أغلب الناس الذين تراهم هناك هم من المتبضعين لا من الساكنين، من المتنزهين لا من المتجذرين. وما أضاف عليه هذه القيمة الكبيرة هو تاريخ ساكنيه طبعاً، فقد جاءه في الستينات والسبعينات والثمانينات الفنانون بسبب الفراغات والأماكن الشاغرة، ثم ملأوا الحيّ بشكل تدريجي.

وأنا أتذكّر إلى الآن كيف كانت بنايات هذا الشارع ذلك الوقت فارغة، فقيرة جداً. ثم تطور حتى أخذ يقطنه ممثلون مشهورون، رسامون، موسيقيون: مثل ساره جيسيكا باركر، ماثيو برودريك، وليني كريفتس والعشرات الآخرون..

* * *

في الواقع، كانت ميمي تخطط بشكل جيد. نعم أنا أعترف بذلك. إنها أميركية حقيقية، أميركية أصلية، وليست مزيفة من تلك النساء اللواتي بعد عامين أو ثلاثة من حصولهن على الجنسية الأميركية، يرتدّنّ إلى هويتهن الأصلية، ويغبن في عالمهن الذي جئن منه.

ميمي امرأة مختلفة. حين أقول مختلفة، تمر بذهني كل أفعالها الرصينة بدءاً من شرائنا لشقة متواضعة في عمارة موصده أمام حائط أسود ومبقع. شقة في الطابق الأرضي في البداية، كانت مطلة على فناء يقابله

مطبخ حانة، ومطعم متخصص في البطاطس المقلية حيث كان الغارسون الأسود يعدها على الأرض. ومن ثم انتقالنا إلى الدرب السادس، في الطابق الثاني من عمارة تقابل متاجر ضخمة، وفي شارع واسع وراق، حيث اشترينا شقة كبيرة، بل كبيرة جداً، قامت ماري بتزيينها وتأثيثها أثاثاً كلاسيكياً: بيانو كبير، لا أحد يعزف عليه! فوتيلات كبيرة وواسعة، طاولات من الخشب الفاخر، وبعد ذلك طلت الجدران بلون تفاحي باهت تتراقص عليها الشمس أول الصباح.

طبعاً هذه المسيرة التي أختصرها الآن بأسطر قليلة، كانت حياة مليئة بالتعب والمفاجآت. ولكن حينما يرقد المرء بعد طول تعبه على أريكة مريحة، ويصمت أمام شرفة واسعة، ويرى مكاناً مضيئاً، وشوارع فارهة، وعمارات راقية، ومتاجر كبيرة، ينسى دون شك ضيق الشقة القديمة، ونافذتها الصغيرة الوسخة التي تطل على حائط أسود، وشمسها التي لا تظهر إلا على حائط مبقع، ومن أسفله فوهة المياه الثقيلة التي تتجشأ زيت قلي البطاطس.

تفكير وثورة

ربما وبسبب هذه النظرة المتعامدة، وبسبب هذين المكانين المتعاكسين اللذين عشنا فيهما، كنت أفكر دائماً بما يفكر به منظرو الثورات عادة: هل كان الثوريون يفكرون مثلاً بهذين المكانين المتناقضين؟ شقتنا الأولى وشقتنا الثانية، مثلاً ـ لكي يفكروا بإشعال الثورة؟ هل كانوا يقولون:

ـ لماذا نحن نعيش في هذا المكان؟ مثلاً شقتنا القديمة! بينما يعيش الآخرون في ذلك المكان، مثلاً شقتنا الجديدة!

أي أنه يعيش في شقة فقيرة ويطمح من خلال الثورة أن يحصل على شقة ثرية. فالحاجات المادية هي التي تدفع الناس إلى الثورات، ولا أستطيع أن أتخيل أن كل الناس في الثورة الفرنسية كانت قد قرأت العقد الاجتماعي لجان جاك روسو وخرجت للثورة. لا بد أن بطونها أو طموحاتها هي التي أخرجتها.

وهكذا كنت أتساءل دائماً لماذا لا يفكر أحد بالثورة في أميركا هذه الأيام، بينما نفكر نحن في العالم الثالث الكثير بها؟

بل أهدرت أجيال منّا عمرها بالثورات والانقلابات. ربما، ربما وبسبب هذا السؤال الغامض كانت الثورة تعني، من بين ما تعني، أن يحلّ ساكنو المكان الأول في المكان الثاني، وهكذا وإلى هذا الحد تنتهي

المشكلة! أو في أحيان كثيرة، هي أن يتحول ساكنو المكان الثاني إلى جانب ساكني المكان الأول، ويتساوى الجميع، وتنتهي المشكلة؟

* * *

كنت أختصر الحياة كلها بفهمي للمواقع ذلك الوقت. كنت أفكر بهذه المواقع على الدوام. وهذا ما جعلني أفرح بهذا المشروع الذي طرحته عليّ الوكالة، وهو أن أذهب إلى أفريقيا، بل إلى أبعد نقطة في القارة السوداء، كي أعرف تاريخ الثوار وتاريخ الثورة.

كنت أقول في نفسي ربما لأن الثورة بعد تفكير حقيقي بها نجدها هي أيضاً لعبة مواقع..

وعليّ أن أذكر شيئا مهما في ها الأمر:

كانت البنيوية قد وصلت أميركا ذلك الوقت. وأصبحت هي الموضة في الجامعات وفي المجلات والوكالات. وربما كان مفهومي للمواقع هو مفهومي ذاته للبنية، ولكن عن طريق استخدام الكناية لا عن طريق استخدام المصطلح ذاته، والذي أصبح مبتذلاً جداً هذه الأيام.

لعبة مواقع

نعم إنها لعبة مواقع، ومن جهات متعددة بطبيعة الأمر.

أنا لا أسوق هذا المثال من تفكيري بهذا الأمر، لأنني أعمل خبيراً بشؤون الشرق الأوسط في الوكالة، فقط، إنما من حياتي أيضاً، من تجاربي، من نشأتي، من هجرتي، من زواجي بماري، من علاقتي مع الأولاد، من موقعي في الوكالة، من جلستي أمام التلفزيون، من حبي للكعكة والشاي في المساء، من كرهي الشديد لمشهد زيت البطاطس المقلية...وأشياء، وأشياء كثيرة أخرى.

أشياء ربما لا يصحّ التكلم عنها الآن، ولكنها تفرض نفسها علي حتى في اللحظة التي أحاول أن أخفيها عنكم.

وهكذا، أنتم ترون أن حياتي فُرَضتْ عليّ بطريقة ما، التفكير هكذا.

وياما قلت لزوجتي إن حياتي هي التي فَرضتْ عليّ التفكير بالمواقع، لا موقعي أنا مثلاً داخل الوكالة، بالنسبة للناس الذين أعمل معهم، فقط، إنما أحيانا التفكير بموقعي الأصلي! فقد جئت من موقع مختلف. والحرب هنا وهناك هي أيضاً لعبة مواقع لا أكثر، حتى لو لم يكن الموقع حقيقياً، وهو بعد ذلك شيء مفترض مثلاً، وخيالي، ولكنه يمتلك قوة الحقيقة والواقعية، بالتأكيد. والناس لا تفكر به من نشأته، إنما من نتيجته.

* * *

وهكذا كانت حياتي في هذا المكان الجديد، المكان الواسع والمريح والكثير الإضاءة، هو لعبة مواقع لا أكثر.

ـ ما الذي تغير فيّ؟ كنت أسأل نفسي..

ـ لا شيء. ولكن الموقع هو الذي تغير.

وهكذا كان عليّ أن أقفز نحو الموقع التالي. ومع ذلك لا أصرخ بوجه ميمي قائلاً لها:

ـ ميمي لقد تغير الموقع وصار أفضل. ميمي إنها ثورة.

نعم ثورة أليست هذه ثورة أيضاً، تصفية الموقع القديم. أليست تغيراً جوهرياً أيضاً؟ ولكني في الوقت ذاته كنت أحاول أن أطرح سؤالاً آخر:

ـ هل بقي الثوار في موقعهم، أم تزحزح هذا الموقع؟

قال لي أحد الأصدقاء المتخصصين بشؤون القوى المعادية لنا (لاحظ لنا):

ـ لم يبقوا في موقعهم من دون شك، لقد تزحزحوا، لقد تحولوا من موقع الثورة إلى موقع آخر.

ـ أي موقع؟ سألته.

ـ موقع المقهىّ!... نعم لقد تحول الثوار إلى رواد مقاهي...ألا تراهم هذه الأيام يتجادلون في المقاهي فقط؟

ـ آه صحيح.. قلت له.

ـ لكن لماذا، أما كان للثورة أن تكون ثورة دائمة؟ أقول في نفسي، أما كان للموقع أن يبقى ذاته؟ أي أن تكون الثورة في موقع اللاموقع حيث تتحرك دائما من دون أن تفقد نفسها؟

هذا هو السؤال الذي كنت أطرحه على نفسي. السؤال الجوهري الذي كان الجميع يتهرب منه ولا يريد حتى التفكير فيه فكيف الاجابة عليه؟

أحياناً أحاول أن أصيغ السؤال بصيغة فجّة على طريقة جواب صديقي، مع أنه يثير اشمئزاز الكثيرين، ولكن لا يهم، ذاك لأنّ مراحل الاشمئزاز، أحياناً، هي أول مراحل التفكير، هي موقف ما، هي عمل نقدي بعض الأحيان، أليس كذلك؟ وهكذا تكون الصياغة الفجّة للسؤال:

ـ كيف تحول الثوار من موقع الثورة إلى موقع المقهى؟ كيف تقاعدوا؟

ـ ههه تقاعدوا! من قال أنهم تقاعدوا...؟ (صوت متهكم أسمعه كلما أفكر بهذا الأمر، كما لو أنه صوت لينين أو تروتسكي يخترق أذني عبر الخيال).

ـ لقد تقاعدوا مبكراً...قال رئيس الوكالة مرة وهو يضحك.

ـ هذا يميني من يأخذ كلامه على محمل الجد. قال لي صديق مرة واصفاً رئيس الوكالة.

ـ لكنها حقيقة أيضاً، أليس كذلك؟ هؤلاء الثوار قد تقاعدوا مبكراً، تقاعدوا وهم ما زالوا شباباً!

هكذا كانت نقاشاتي مع نفسي، تصفية الحساب مع الضمير، الكلام مع الذات، الاعترافات التي كنت كل يوم أتلوها على نفسي كما لو إني أنا الذي أطحت بالثورات. ألا أعمل في وكالة يمينية؟ إذاً أنا مسئول إلى حد معين أيضاً.

التفكير بمصير الثورات

من زمن وأنا أجلس كل يوم، تقريباً، بعدما أعود من الوكالة، متعباً من عملي، وأفكر بمصير الثورات.

أدخل شقتي التي أحبها، أخلع جاكتتي وأعلقها على المدخل، أخطو خطوات قليلة ثم أهبط ثلاث درجات إلى الصالة. أجلس على الأريكة السوداء المصنوعة من الجلد الفاخر التي اشترتها ميمي من أفخر محلات الأثاث. أنظر إلى الحائط المطلي باللون التفاحي الفاتح والمواجه لي. أنظر إلى التيبل لامب بالشيد الأخضر على الطاولة. أنظر إلى الكتب المجلدة في المكتبة إلى جواره. أنظر إلى المزهرية التي تحمل زهوراً نضرة من الجهة الأخرى. أنظر إلى البيانو الذي لا يعزف عليه أحد.

أنظر إلى كل الأشياء التي أحبها في الصالة. ومن ثم أفكر بشيء جديد، أقول في نفسي:

ـ شيء عظيم إني انتقلت من ذلك الموقع، الشقة المقابلة لحائط أسود مبقع بالزيت إلى هذا الموقع في الجادة السادسة في هيدسون!

ولكن هل سيستمر هذا الأمر هكذا لفترة طويلة؟ أم إني سأضجر من هذا المكان أيضاً، وسأطمح إلى تغييره بموقع جديد؟

حينما جاءت الرحلة إلى أفريقيا فرحت جداً، لا لأني كنت أفكر

بالثورة على أنها لعبة مواقع، أو لأني عرفت بأني من خلال هذه الرحلة سأتعرّف قليلاً على أصل المشكلة، ومعرفة ما الذي كان يفكر فيه الثوار ذلك الوقت.

إنما لأني ضجرت من موقعي في الوكالة أيضاً. وضجرت من عيشي في هذا المكان، وضجرت من النساء البيض، وضجرت من أكلة الماكدونالد والهمبرغر، وضجرت من الناس الذين أعمل معهم، وصار لدي حنين شديد إلى أفريقيا، وإلى أناس جدد، ونساء غير اللواتي أعرفهن، والكتابة في موضوع جديد. أخذت أحنّ إلى موقع جديد لم أكن أعرفه من قبل.

العائلة والأولاد

هذا الأمر يتعلق بأولادي أيضاً، وهو شأن لا يمكن أن أهمله أبداً وحتى لو شئت! ذلك لأنه يقع في قلب المشكلة، بل هو صلب الموضوع أحياناً. وعليّ أن أخبركم أيضاً أين يقعون هم بالضبط؟ طالما أني أتكلم عن المواقع، وسيخطر في بالكم على الدوام ما هو موقعهم؟ لأني جئت من الشرق الأوسط، ومن العراق تحديداً، وهذا ما يجعلني أتحدث عنهم بطريقة مختلفة بطبيعة الأمر، لأنهم عاشوا هنا في أميركا، فهذا الأمر دون شك مهم جداً.

فهل أولادي يشعرون بأنهم أيضاً مثلي جاءوا من الموقع الذي جئت أنا منه بالذات؟

هل يشعرون بأنهم ينتمون إلى بلاد والدهم، أو ينتمون إلى ثقافته؟

أقول لكم بكل صراحة، حتى وإن كانت هذه الصراحة مزعجة قليلاً: إن أولادي لا علاقة لهم بالشرق الأوسط أبداً. لا بحياته ولا بمشاكله.

ومن جهتي لم أنعش معلوماتهم بأي شيء إيجابي آخر عن بلاد أبيهم، ولم أقدم لهم أية معلومة عنها سوى أشياء بسيطة.

ومن جانب آخر جعلتهم يرتعبون من كل شيء قادم منها، وفسرت لهم كل أحداثها من منظور واحد مخيف ومظلم.

أما زوجتي ميمي فلم يكن يهمّها ما تكونها تلك البلاد البعيدة. وكلّ ما تعرفه عنها، أنها بسببها نحن نكسب المال. فلولا معرفتي بهذه البلاد التي يجهلها الأميركيون تقريباً، فما وجدت عملاً جيداً، ولا كسبت مالاً كثيراً.

وهذا الأمر يستحق التكلّم عنه قليلاً:

في الواقع يمكنني أن أقول:

كنت أكسب امتيازاتي بسبب أصلي الشرق أوسطي لا بسبب أمريكيتي. فقد انتعش عملي كثيراً، وازداد الاهتمام بي بعدما بدأت المشاكل تعمّ الشرق الأوسط، وأصبحت حياته السياسية خطيرة. فوضعي المالي مرتبط بتذبذبات السياسة هناك، فكلما تفاقمت الأحداث في تلك البلاد، كلما وجدت هنا من يطلب مني تحليلاً سياسياً للتلفزيون، أو تقريراً عن الأحداث للوكالة، أو مقالة لإحدى الصحف الشهيرة.

وهكذا أجد نفسي أكسب بشكل أفضل بكثير كلّما كانت هنالك حروب خطيرة، واقتتال أهلي، وتهديدات جديّة للمصالح الغربية. ربما تظنّون أنّ هذا الأمر يخصّني وحدي. أبداً. هذا الأمر لا يخصّني وحدي. فوكالات الصحافة والتلفزيون ومعاهد الدراسات التي يسمّونها ـ الثنك تانكس ـ تتذكّر فجأة هذه النخبة الشرق أوسطية المهملة، والمركونة في زاوية ما من المجتمع، مثل قطعة أثاث قديمة، فتصبح مهمة، تمدها الأولى بالمعلومات وتقابلها الثانية بالمال. وكلما كانت الأحداث والانقلابات أخطر كلما كانت كمية المال أكثر. كما أنّ هذه النخبة المهملة والمتلفة وغير النافعة تجد في تلك الأوقات العصيبة من يهتم بها، ويحسن أوضاعها، ويغير من شروطها الاجتماعية والثقافية.

لنقل ببساطة تجد في تلك الأيام من يغيّر لها من مواقعها، حيث تجد نفسها وقد أصبحت فجأة مهمة!

لاحظوا الموقع هنا هو المهم ـ وبدلاً من قضاء الوقت في المقاهي والكازينوهات أو البحث عن لقمة الخبز في أعمال لا علاقة لها باختصاصاتهم، ستجد نفسها فجأة في الاستوديوهات، ومرتبطة بمواعيد مع الصحف والمجلات وغير ذلك.

وكما تعرفون أن الميديا مهمة هنا جداً هذه الأيام، وهؤلاء المثقفون يصوغون الرأي العام لتكون الاجراءات السياسية مطابقة تماماً لهذه النخب التي تتحكم بكل شيء. ولا بأس أن تدفع هذه الشركات كمية من المال أكبر طالما أنها ستربح أكثر.

هكذا هم ينظرون للأمور، ولا بد أنهم أيضاً سيفرحون بتفاقم الأحداث هناك، أقصد رؤساء الوكالات والصحف والتلفزيونات والمشرفون عليها، مثلهم مثل زوجات المثقفين الشرق أوسطيين، فلا بد أن زوجات المثقفين الشرق أوسطيين أيضاً سيفرحن لتفاقم الأحداث في بلدان أزواجهن كثيراً.

ـ لماذا؟

في الواقع، وهذا أمر جوهري هنا، ربما، لأنهن سيشعرن حينما يصبح الأزواج مهمين فإنهم سيكسبون كثيراً! وهذا الكسب دون شك ليس شيئاً بذاته، إنما عن طريقه سوف يغير هؤلاء الناس من شروط سكنهم، وحالات معيشتهم، ويستطيعون السفر، ويستمتعون بالمال بتغيير مواقعهم القديمة بمواقع جديدة، ومن هنا أيضاً سنرى لعبة تبديل المواقع.

لاحظوا: إنّ الأمر لا يخص تغيير السياسات فقط، إنما يشمل حتى الناس، فهذا الأمر ربما ترونه شاملاً ويحدث على نحو غير محدود، فما أن يحدث حدث خطير في العالم، ستجدون أنّ التغييرات لا تطال المواقع الكبيرة، إنما المواقع الصغيرة وفي كل مكان.

وهكذا ستشهدون فجأة:

يهبط بعضهم جداً إلى مواقع متدنية، ويتراجع آخرون إلى أماكن لم يظنوا أنهم سيعودون إليها، وآخرون سيذهبون وسيحل محلهم آخرون. بعضهم يتزاحم مع بعض على مواقع متلاصقة. آخرون يتزاحمون على مواقع متباعدة. غيرهم سوف يتقدمون ويحلّون آخرين. آخرون ينتظرون.

بعضهم بطبيعة الأمر تضرب معه ضربة الحظ، وفجأة تجدونه في موقع لم يكن يحلم به من قبل أبداً. وبعضهم يسقط ويتهاوى إلى الحضيض.

ـ هذه هي الرأسمالية، وعليك أن تتأقلم معها.

ـ أتأقلم معها.. ماذا تقولين.. لا يمكن أن أفعل ذلك، إلاّ الرأسمالية.

ـ لكنك تعيش هنا...! قالت مستغربة.

ـ نعم يعني أعيش ولكن لست موافقاً على الحياة هنا.

ـ لم أفهم.

ـ يعني أقاوم الإغراءات هنا.

ـ لكنك تستسلم في النهاية.

ـ في الواقع، أحياناً أجد نفسي مستسلماً منذ البداية.

ـ والمقاومة؟

ـ لا بد منها...ولكنها كلام في النهاية.... هههههه.

* * *

أمّا السعادة بتفاقم الأحداث وتفجر الحروب والكوارث والانقلابات فهذا أمر غير مستبعد أبداً، نظراً لما رأيته من تجربتي وحياتي، ولا سيما

في هذه الحالات، وفي هذه الأماكن بالذات، وأنا عن نفسي يمكن أن أقول ببساطة هذا حال زوجتي.

في الواقع أنا لا أحشر أمر الزوجات هنا حشراً. ولكني أعترف أن زوجتي تفرح بشكل خفي بتفاقم الأمور. لا أقصد من كلامي هذا هنا الفضيحة أبداً، أو التشهير بزوجتي أو بزوجات الآخرين، إنما أتحدث عن شعور إنساني طبيعي، حتى وإن كنا نتفادى التفكير فيه، ولا نتحدث عنه لأنه مخجل ومحرج ولا أخلاقي.

أنا أعتقد أنه شعور طبيعي، لا يمكننا أن نقبل به علناً ولكننا نتواطأ معه سراً. وما يخفف الشعور بالذنب الأخلاقي أن زوجتي من جهتها لا تعرض هذا الأمر بشكل علني أمامي أو أمام الآخرين، لأنها تعرف جيداً، وربما أكثر من أي شخص آخر، أنه شيء لا أخلاقي، وغير مقبول بالمرة.

وأنا أقول هذا الشيء بصراحة تامة، وأقول أيضاً إني اكتشفته اكتشافاً ولم نتصارح به حتى الآن.

أقول اكتشفته، لأني لم أحدثّها به أبداً، ولم تحدثني به أو تعترف لي وكأني قبضت عليها وهي ترتكبه، مطلقاً. ولكني اكتشفته اكتشافاً ومن خلال مراقبتي لها أثناء حدوث أزمات أو كوارث في الشرق الأوسط، فما أن تسمع بواحدة من هذه المشاكل ـ وما أكثرها بطبيعة الأمر ـ حتى تراها تبدأ بالتفكير في تجديد المنزل، وتغيير الأثاث، وتحسين أوضاع الأولاد في الدراسة، والسفر، وما إلى ذلك.

كلما تتفاقم الأحداث في الشرق الأوسط كثيراً، أو كلما تتدهور الأوضاع السياسية هناك، حتى تبدأ زوجتي وعلى نحو مباشر بالتفكير في تغيير حياتنا، وبرنامجنا، وشروط معيشتنا، وتفكر مثلاً بتغيير أثاثنا، أو شراء سيارة أخرى لنا، أو تفكر بانتقالنا إلى منزل آخر.

فهي تعرف، وهذا أمر طبيعي، أن ثراءنا يعتمد على تفاقم الأمور في هذه المنطقة! كلما كانت الأمور أسوأ هناك كلما احتاجوني هنا أكثر، كلما صعد الغليان الشعبي والسياسي وانغمست البلاد بالمشاكل والاضطرابات هناك كلما ربحت مالاً أكثر.

هكذا أقول اكتشفت الأمر اكتشافاً.

فقد كنت أشعر بأنها ترمقني بحبّ وهي تراني أغرق في الكتب والتقارير، كنت أراها فجأة وقد تغيرت لا في سلوكها فقط إنما في نبرة كلامها، ربما تشعر أن هذا الأمر الذي يحدث هناك، وهو دون شك سوف يحدث هزة في المواقع السياسية لا «هناك» فقط، إنما «هنا» أيضاً. وربما ينعكس الهناك بشكل إيجابي على الهنا، أو على نحو أوضح، ينعكس بشكل إيجابي على المنزل، بل من شأنه أيضاً أن يغير مواقعنا هنا أيضاً، وبمقدار ما كانت هي ترمقني وتراقبني، كنت أنا أيضاً أرمقها وأراقبها، بمقدار ما كانت تتابع خطواتي وترى انغماسي في العمل، وكتابة التقارير والتحليلات والذهاب إلى المحطات، أجد نفسي دون وعي مني أراقبها، وأراقب تصرفاتها التي تتغير فجأة، فهي تنشط وتتحمس، هكذا وبصورة مدهشة، أراها تتحرك في المنزل بسرعة، تستيقظ من الصباح لتفتش المنزل من جميع جوانبه، وهي ما تسميه عادة البحث عن «النواقص».

في الأيام التي يتفجر فيها الوضع السياسي في الشرق الأوسط تستحم زوجتي مرة أو مرتين في اليوم وهي عادة ما تفعله عندما تشعر فيه بالفرح. وتقوم بانتزاع الموكيت لاستبداله. أو تحاول تغيير ظليات المصابيح. أو تفكر باستبدال الطباخ. أو شراء مايكرويف آخر.

ومن الصباح، كانت تفتح عينيها على الحديث معي حول تجديد بعض الأثاث أو شراء بعض الحاجيات، وعندما تخرج من فراشها أو من

حمّامها تأتي حالاً إلى مكتبي لتقول لي شيئاً مهماً عن هذه الأشياء: النواقص، وتمضي.

أنا من جهتي لا أبخل عليها بهذا المال الذي أكسبه من الوكالة، أو من الصحافة، أو من التلفزيون، أبداً. وياما قلت لزوجتي هذا الأمر! دائماً أقول لها إني لا أعمل من أجل نفسي، إنما أعمل من أجلك ومن أجل الأولاد. ويحدث مثلاً:

في الصباح الباكر، أدخل الحمام، مرتدياً بيجامتي وقد وضعت المنشفة على كتفي. أقف أمام المغسلة لأغسل وجهي أو أغسل بالفرشاة أسناني. فتقف هي على مقربة مني، لتحدثني عما تريده من المال لتجدد به الأثاث أو لتلبي بعض احتياجات الأولاد، أو لتشتري بعض النواقص. أو تسألني فيما إذا كان هنالك من الوقت الفائض، بعد انتهاء الأزمة بطبيعة الأمر، لنسافر إلى مكان آخر.

وأنا أوافقها بطبيعة الأمر، لم أبخل عليها أبداً. البخل ليس من عادتي إطلاقاً. كنت أقول لها على الدوام: أنا... ما نفع حياتي من دونكم؟ فقد أتلفت شبابي في مشاكل الشرق الأوسط، أتلفت نصف حياتي خائفاً ومرتعباً هناك، والنصف الآخر أتلفته متخفياً هنا.

فأنا لا نفع فيما قمت به لحد الآن من أجل نفسي، هل يمكنني الافتخار بأشياء حققها اسمي المستعار. أذهب مباشرة إلى الطاولة في المطبخ، أصبّ القهوة في الكوب، وأستمرّ محدثاً إياها:

ـ هل تعرفين ميمي؟ ليتك تعرفين إن كل ما أفعله هنا، أجده ملكاً للشخص الآخر الذي يحمل اسماً مستعاراً وحياة متخفية! ومع ذلك رضيت، ذلك لأني أجده يحسّن من وضعك ومن وضع الأولاد، ويغير من ظروف

حياتهم. فأنا كل ما أفعله اليوم هنا في أميركا هو من أجلك ومن أجل الأولاد... من أجل أن يعيشوا بشكل جيد.... وأن يتخلّصوا من ذلك التنّين المرعب الذي ابتلعنا بنيرانه (أقصد الشرق الأوسط بالتأكيد).

الأولاد!

أما الأولاد فهم من جهتهم يفرحون أيضاً بهذا الأمر، فعندما تتفاقم الأحداث هناك يشعرون بأهمية والدهم هنا. عندما يكون هنالك قصف، وحروب، وقتال في تلك المناطق البعيدة، فجأة يرون والدهم وقد أصبح نجماً تلفزيونياً معروفاً، فما أن يلتفت مقدم الأخبار، ركزوا على اسم القناة، في محطة الفوكس نيوز إلى الشاشة المقابلة له حتى تظهر صورتي، متعمداً أناقة خاصة.

لكي يعرف الأميركيون كم هم مهملون في هندامهم. وفي هذه اللحظة بالذات سيصرخ الأولاد بصوت عال:

ـ هذا دادي... هذا دادي.

أنا متأكد بأنهم لا يفهمون مما أقوله عن وضع تلك البلدان ومشاكلها شيئاً، وهم لا يهتمون مطلقاً بما يحدث فيها، ولكنهم يجهدون أنفسهم بالاتصال بأصدقائهم ليقولوا لهم إن دادي على شاشة التلفزيون. ابنتي الكبيرة كاتي بالأخص، تتصل بصديقها بوب وتقول له:

افتح الفوكس نيوز بسرعة... بسرعة، سترى دادي على الشاشة.

* * *

أعود أحياناً إلى المنزل في الجادة السادسة جنوب هيوستن متعباً

من العمل في الوكالة، أو من مقابلة في التلفزيون، فأجد كاتي منفعلة وغاضبة، لأن صديقها بوب رفض أن يرى «يور فكنك دادي» وهو يحلل «فكنك إيراك»، وفضل أن يتابع فيلم ماتركس على قناة الأفلام.

* * *

أنا لا أقول إن أولادي هم بلا مشاعر، أبداً. ولكن فرحة ظهوري على شاشة التلفزيون تطغى على كل انفعال.

بلا شك هم مهتمون بدرجة ما بما يحدث من مآس وكوارث في العالم، والعالم كلّه لا في هذه المنطقة حسب. ولكنهم لا يعيرون هذه الأمور كثيراً من اهتماماتهم، فهم مشغولون كثيراً بحياتهم هنا. وأنا في واقع الأمر لا ألومهم على هذا اللا اكتراث أبداً، لا أشجّعه، ولكني لا أريدهم أن ينخرطوا بمشاكل سوداوية لا حل لها وفي بلاد لن يروها مستقبلاً أبداً.

أقول لهم:

ـ حياتكم هنا، عيشوها كما هي... هنا في هذا المكان، ولا تنشغلوا بأشياء أخرى، وتضيع حياتكم، كما ضاعت حياتنا.

أقول لهم:

ـ هذا العالم الثالث ـ هذا اسمه أثناء الحرب الباردة ـ مثل التنين بلع حيوات شباب كثيرين، فلا حل

لكوارثه ولا لمشاكله، عيشوا حياتكم هنا في هذه البلاد. ولا تلتفتوا إلى أي شيء آخر. عيشوا في هذه البلاد التي تعرف كيف تستثمر مواردها وموارد العالم الثالث أيضاً. فهي تأخذ موارده وطاقته البشرية وتتركه للخراب والنسيان. فما نفع ذهابكم إليه، والاهتمام به؟

ولكني أطلعهم بطبيعة الأمر على ما أقوم به من أعمال، لا من

باب المعرفة والاهتمام أبداً، ولكن من باب اطلاعهم على أمورنا المالية، فالأمور المالية مهمة جداً وسط هذه التقلبات الاقتصادية العالمية وحالات الكساد، وطالما يخضع ما نكسبه للضرائب الباهظة وازدياد سلم الحاجات، فإن الأمور المالية تصبح في أعلى الأولويات، لأنها بواسطتها فقط يتم تغيير المواقع.

* * *

حينما انتدُبت لهذه المهمة قلت لعائلتي كلّفتني الوكالة للذهاب إلى أفريقيا لكتابة تقرير عن شيوعيين عراقيين، ثوار وأبطال.

لا أدري لماذا أضفت هذه الجملة الأخيرة، ربما من باب التباهي أمام أمريكيتهم بعراقيتي ـ وقد تركوا من جانبهم السؤال عن الثورة والبطولة، وصرخوا بصوت واحد: هيييييييي...

لقد فرحوا كثيراً. وسألوني عن المال الذي سأكسبه من هذه المهمة، وبدت زوجتي ودودة جداً معي. هي ودودة دائماً ولكن ذلك اليوم كانت ودودة بشكل أكبر، لذلك قبلتني مرتين. وهذا الأمر كثيراً ما تفعله حينما تكون سعيدة، وقالت أخيراً وجدنا الوسيلة لتلبية طلبات سام (ابني الذي يصغر كاتي بعامين)، كما أننا سنصنع زواجاً رائعاً لكاتي وبوب (مختصر روبرت ـ خطيب كاتي).

وهكذا فرحت أنا أيضاً... وبدأت أعدّ أوراقي وكتبي لهذه المهمة الجديدة، المهمة التي وجدتها من نوع مختلف تماماً عن كل ما قمت به لحدّ الآن. فأنا وللمرة الأولى لا أحلل المعلومات فقط، كما كنت أعمل في الوكالة، إنما أنا من يجلبها، بمعنى أنا من يصوغ كل شيء. على عكس ما كنت أقوم به في الماضي، ولا سيما وسط المتغيرات الكثيرة لعمل الوكالة

ومواقفها وأهدافها، فأنا من جهتي لا أسمح بأي اتهام أبداً، ولا أسمح بأيّ شك من قبل الذين أعمل معهم، فقد كنت محايداً حقاً، وكنت أقوم بما ينبغي عليّ القيام به.

* * *

وبسبب معرفتي للغتين العربية والإنكليزية معاً، كان عملي يتوسع ويزداد أيضاً، بين أن أجمع الأخبار، وأقدم المعلومات وأحللها، وبين كتابة التقارير، وترجمة بعض الخطابات والمقالات من الشرق الأوسط، فهنا قد ازداد اهتمامهم كثيراً بما يرتئيه ويفكر به الناس هناك. ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وبعد احتلال العراق.

وهكذا يبرز من بين أوراقي التي عليّ أن أعدّها للوكالة متطلبات زوجتي الكثيرة، ومشاكل الأولاد التي عليّ حلّها. بين هذه الفوضى التي لا حدّ لها أجد نفسي وقد ضجرت حقاً، فالأشياء تتسارع في العالم، ومعها تتسارع حركة المنزل، وهنا في الوكالة تضطهدني رئيسة القسم ـ أعلم أن كلمة تضطهدني كلمة كبيرة ولكني مرغم على استخدامها ـ

إنها تتهمني أحياناً بالانحياز للعالم الذي ولدت فيه وجئت منه.

قلت لها ألف مرة:

إني لا أنحاز لأحد، ولكني لا أعرف بالضبط توجّهات الوكالة، فالوكالة مستقلة، ولكن لها أيضاً أهداف وسياسات وهذا أمر طبيعي جداً، وأنا أقبل به، ولا أعترض عليه، ولكن المشكلة أن السياسات تتغير، وتتغير بشكل كبير جداً يصعب بعض الأحيان اللحاق بها أو التكهن بها.

وهذا ما سأوضحه فيما بعد.

الميديا والمواقع

أنتم تعرفون أنّ الميديا مهمة جداً هذه الأيام، لأنها هي التي تصوغ الرأي العام، لا هنا في أميركا فقط، إنما في العالم كله. وهي التي تقرر السياسات العامة وأحياناً تصنعها، وفي أحيان كثيرة تخضع لها. إنه نوع من السيطرة على العالم بأيد ناعمة. بلد صغير في الشرق الأوسط، في الخليج تحديداً، لا جيش ولا صناعة ولا زراعة، لكنه يمتلك محطة فضائية قوية، يرهب بها ويخيف مثل أية دولة عظمى. خبر واحد أحياناً، خبر. يأتيك من مكان بعيد، وبعيد جداً، يمكن لهذا الخبر أن يقلب كل الأفكار والسياسات في العالم. وأنت تسأل بسذاجة أحياناً من أعطاه هذه القوة أو الصلابة لكي يكون هكذا؟

أما المواقف فأمرها أكثر تعقيداً، هنالك تغيير مواقف، وهنالك تقلبات تحدث بسرعة فائقة.

يا إلهي.. أقول أحياناً، المواقف تتغير بسرعة لا يتخيّلها العقل، ولا سيما لدى الأمريكان، كل الأشياء تتحرك بسرعة هائلة بحيث يصعب عليك اللحاق بها! مواقف اليوم لا تشبه مواقف الأمس، وغداً لا تدري ما ستكون عليه، لأنها واقعة وسط هذه الزحمة الكبيرة من مواقع الناس. وأنت وناسك أيضاً تقعون في مواقع أخرى في الخارج، والكل يتزاحم.

المواقع هنا هي شديدة التعقيد، سواء أكانت في الداخل أم في الخارج، وهي تؤثر دون شك على حياتك، كنت أقول في نفسي:

يا إلاهي لا أستطيع أن أضبط عيني على الحروف والأرقام التي تتسارع، موقعك هنا ـ قالت لي ميمي مرة ـ مرتبط بالبورصة، انظر إلى هذه الأرقام التي تتغير بسرعة، كانت اللوحة أمامي سوداء والأرقام البيضاء تتحول من شكل إلى شكل آخر. يصعب أحياناً ضبطها أو السيطرة عليها. وأنا أفكر أن حياتي مثلاً وحياة الملايين من الناس تتحول على ضوء هذا التغيير، على ضوء اختلاف هذه الأرقام، هذا يعني بلغتي التي أفكر بها أن عدداً غير محدود من المواقع يتغير يومياً:

فقراء يصبحون أغنياء. أغنياء موسرون يصبحون في عداد العاطلين والمشردين. شركات تظهر وشركات تختفي. منازل تتجدد ومنازل تنهار. حياة. حب. أحقاد. أشياء كثيرة تتغير.

ـ عليك أنتَ أيضاً أن تتغير بسرعة حبيبي! قالت ميمي دون أن تنظر نحوي.

الشيء ذاته قالته لي مديرة القسم:

ـ العالم يتغير... المصالح تتغير... الحياة تسير بسرعة فائقة.

هكذا وجدت نفسي هنا. هكذا وجدت نفسي راكضاً وراء هذا ووراء ذاك. وكان عليّ أن أتغير بسرعة وألا أبدو جامداً أو منحازاً... أمر ثقيل جداً ومتعب أليس كذلك؟

الحياة هنا سريعة جداً، الأشياء تتغير بسرعة. فجأة تجد نفسك وسط مجموعة من المحللين السياسيين وهم يصرخون بوجهك عليك أن تأخذ المتغيرات بنظر الاعتبار! ولكن المتغيرات سريعة! وحتى هناك أقصد في الشرق الأوسط، فهم بحاجة إلى وقت طويل لفهم المتغيرات والتعامل معها.

ووسط كل هذه المتغيرات التي كان عليّ أن آخذها بنظر الاعتبار

هنالك زوجتي، ومشاكل العائلة، وحياة الأولاد العاصفة، ومتطلباتهم الكثيرة، ولا سيما هذه الأيام.

أقول لكم وسط كل هذه الفوضى السياسية التي تعم الشرق الأوسط، ومن بين صور القتال الأهلي، أو الاجتياحات المتكررة، أو صور المعارك والحروب، أو الغزو والاحتلالات، وتهديم البنى التحتية والحصارات، يبرز وجه زوجتي ليقول:

ـ أين سنقضي الويك أند؟ أو مثلاً:

ـ أين نتعشى الليلة؟

تحدث أشياء غريبة حقاً في حياتي، تحدث في الغالب بين انشغالي بعملي وبين حياتي الزوجية التي لا أريدها أن تنهار: أكون، مثلاً، جالساً على الصوفا، وأمامي كأس عصير برتقال. هذا ما أفعله دائماً عندما أجلس أمام شاشة التلفزيون لأستمع للأخبار. ويحدث أن تبثّ إحدى وكالات الأخبار صوراً لقتلى في بلادي، ويحدث أن ابني الصغير سام يريدني أن أشتري له عدة كاملة لرياضة الركبي، فقد سجل بفريق في المدينة ولا يمكنه التراجع عن ذلك.

أقول له مثلاً إني مشغول! لقد حدث شيء خطير في الشرق الأوسط، حدث كبير في الصراع الدائر هناك.

لكنه لا يفهم ولا يريد أن يفهم لأن هذا الأمر بعيد تماماً عن حياته. هذا الأمر في موقع بعيد تماماً عن الموقع الذي يعيش فيه. فيزعق بوجهي ويضرب على الطاولة. كل هذا والصور تتلاحق، والتحليلات تتدفق من هنا وهناك. هو يزعق والمذيع يقول شيئاً خطيراً، أو معلومة أريد أن أسمعها وهو لا يترك لي مجالاً في ذلك.

يزعق سام ونصف الكلام الذي أريد أن أسمعه ينسحق تحت صراخه وصوته.

أحياناً يذهب إلى التلفون ليتصل بأمه ويشكيني لها، ويطلب مني أن أذهب إلى التلفون حالاً، يقول لي:

ـ ماما تريد أن تحكي معك.

أنهض من مكاني وعيناي معلقتان على الشاشة الصغيرة، أصغي إلى زوجتي على التلفون، تقول لي عليّ أن أهيء السلطة، والكاجاب، وأن أعد بعض المايونيز من الثلاجة، أما هي ستأتي بوجبة الفاست فود معها من الماك ـ هكذا نسمي «الماكدونالد» هناك ـ وعليّ أن أشتري عدة الرياضة للولد، وتختمها بأنها سعيدة لأني سأقضي اليوم كله معهم في المنزل.

* * *

أنا لا أخترع هذا الأمر اختراعاً، إنما أقول أنّ هذا الأمر حدث عشرات المرات. هو ذاته. أو أحداث مشابهة له.

يحدث أحياناً أن أتوهم في صور القتلى أناساً أعرفهم من بغداد، أو أقرباء لي، ومع ذلك عليّ أن أنسى كل شيء، وأخضع للحالة الآنية التي يتطلبها المنزل.

ليس اتهاماً

أنا لا أتهم ميمي إطلاقاً بأي شيء مسيء أو معيب، ولا أعتقد أنها قصرت في يوم معي أو مع الأولاد، بل بالعكس أنا أجدها على الدوام طيبة معي وودودة جداً، ولا أقول إنها تجبرني على أفعال أنا لا أرغب بها أبداً، أحياناً أقول لها سأفعل، لا أعترض على ما تريد مطلقاً، أجيبها أحياناً دون التفكير كثيراً بما تقول، ولكني أتهرّب بطبيعة الأمر ولا أفعل أي شيء مما تسألني أن أفعله.

فهي والحقّ أقول ستغضب إن قلت لها، لا، وستناقش كثيراً، وستحاول إجباري على قول نعم، ولكنها فيما بعد لا تبالي إن فعلت هذا الأمر أم لم أفعله، لا تبالي إن نفذت ما قلته لها أم لا.

هذا الأمر لا علاقة له بباقي جوانب شخصيتها، فهي ليست من الزوجات اللواتي يقلبن حياة الزوج إلى جحيم، وربما هي عكس الأميركيات التقليديات، وإن كانت بدينة مثلهن، فهي تتفّهم عملي وإن كانت لا تهتم به أبداً، وهي تراعي مشاعري جداً وهذا ما يجعلني أقدّرها. ربما لأنها عمليّة، وتجد أن مراعاتها لي ستجعلني أعمل بشكل جيد وهذا ينعكس على موقعنا كعائلة.

* * *

أقول لكم: أنا أقدر ميمي كثيراً لأنها تخطط بشكل جيد. أعترف

بذلك، فهي براغماتية وعملية بشكل صحيح، تعامل المال الذي أجلبه باقتصاد مذهل. وهي التي توجهني وتعلمني الكيفية التي أتعامل بها في الوكالة مع الأميركيين.

ومنذ أن تعارفنا في الجامعة ـ كانت فتاة نحيفة، شقراء، ترتدي نظارات طبية ـ بهرتني ذلك الوقت، لا بجمالها، فقد كان متواضعاً، ولا بذكائها فقد كان متوسطاً، ولكن بعقليتها الأميركية البراغماتية والتي تقدس المصلحة. كانت تقول: ببساطة الحقيقة هو ما ينفعني ويفيدني. الحقيقة الوحيدة على الأرض هي مصلحتي.

كنت أتفاجأ مثلاً وأنا أقرأ الجملة ذاتها لدى فلاسفة كبار. «طالما الحقيقة متكثرة ومتعددة فإنّ الحقيقة الوحيدة هي التي تخدمني» عند وليم جيمس مثلاً، أو عند جون ديوي.

كنت أقول هؤلاء الأميركيون يرضعون البراغماتية رضعاً، إنهم يتشربون بها من المدرسة ومن التلفزيون ومن الأخبار السياسية أيضاً، من الثقافة أعني! وأحيانا أقول أنّهم براغماتيون بالفطرة. هم فلاسفة صغار حتى وإن بدوا طيبين وساذجين، وهذا ما أدهشني أيضاً بميمي، صحيح إني لا أؤمن بهذه الفكرة على نحو عملي، أو على الأقل في حياتي، ولم أمارسها كما تفعل ميمي مطلقاً، ولكني كنت أعتقد بأني أستفيد منها فائدة كبيرة. أعترف بأني لم أفعلها في حياتي، ربما إلا بزواجي منها، ولكنّي على نحو آخر كنت أشعر بأني مدين لها بأشياء كثيرة.

* * *

قلت ذلك الوقت: أوكيه. إذا أردت العيش هنا عليّ أن أرتبط بامرأة تدمج الحقيقة بالمصلحة!

ولأنها بيضاء، أي أميركية أصلية ـ من مدينة صغيرة تدعى آسبن في الغرب الأميركي ـ ترتدي على الدوام الجينز، والكنزة الصوفية، وتناقش بشكل فعال في الشؤون الأميركية، قررت الزواج منها.

كان واحداً من دواعي إعجابي بالغرب وهجرتي إليه، هو الجنس بطبيعة الأمر، وهذا رأيي من الأول، إن العالم ينقسم إلى قسمين، أو بلغتي: ينقسم إلى موقعين. الموقع الأول مترف في الجنس، ثري بالأجساد المشتهية، ومستمتع أيضاً. يضعف التابو فيه لأن الجسد طليق وحر وغير معوّق. وهنالك، الموقع الثاني: عالم المجاعات الجنسية من كل نوع.

وحتى حين أردت أن أحلل موضوع الإرهاب حللته بطريقتي التي لم تعجب رئيسة القسم في الوكالة، حللته كما أراه، ضمن هذه الفكرة التي تستحوذ عليّ غالباً، وهي فكرة المواقع: قلت لها الغرب مثل امرأة جميلة، طويلة، سوبر سكسي، ثرية أيضاً، وحين لم يستطع هؤلاء الإرهابيون مضاجعتها، قرروا قتلها.

الضرب هنا هو نوع من السادية الجنسية صدقيني! إنهم معجبون، ومنتصبون، والتهديم هنا هو نوع من الاغتصاب لا أكثر.

ضحكت مني، أدارت ظهرها لي، ومثل أية أميركية متغطرسة خرجت من الغرفة، وأغلقت الباب.

* * *

هذا ما كنت أفكر به دائماً، كنت أفكر على الدوام أن ميدان الصراع تغير، ويمكنني أن أرى هذا الأمر بسهولة اليوم، على الأقل من ناحية الشكل، فقد كان الصراع الطبقي وهذا ما كان يفكر به الثوريون عادة يتركز في قضية من يأكل ومن لا يأكل، الفقراء والأثرياء يصنفون عادة وفق سلم

الحاجات المادية، غير أن الطعام صار أكثر وفرة، البروليتاريا ما عادت هي التي لا تأكل والبورجوازية هم أصحاب الكروش الذين يأكلون كثيراً، بل يمكنك أن ترى أن المعادلة قد تغيرت تماماً:

هنا ينفق البرجوازيون أمولاً طائلة كي يصبحوا نحيفين، أي صورة من صور البروليتاريا الرثة أيام القرن التاسع عشر، ليبدو وسيمين بشكل أكبر، وتصبح جاذبيتهم الجنسية أكثر قوة وفعالية. فكلما كانت أجسادهم صورة من صور المجاعة الضاربة: الوجوه الممصوصة والأضلاع البارزة، كلما كانوا أكثر وسامة وجاذبية جنسية.

أما الفقراء هنا فهم يأكلون كثيراً، لأن طعامهم، في الغالب، غير صحي ومترع بالزيت والسكر. هم صورة من صور الأثرياء في القرن التاسع عشر، أصحاب الكروش العظيمة أيام كارل ماركس وفريدريك إنجلز، والذين يتنفسون بصعوبة، ومؤخراتهم ترتد إلى الوراء بصورة مشوهة.

إذن ما عادت البروليتاريا هي ذاتها التي كانت في ذلك الزمان، فمن هي البروليتاريا هذه الأيام:

لقد تحولت البروليتاريا من طبقة إلى شعوب برمتها. هنالك شعوب بروليتارية من ناحية الجنس مثل الشرق الأوسط وبعض الدول في آسيا، وهنالك شعوب برجوازية مثل أميركا وأروبا وبعض دول أفريقيا.

وحين جئت إلى أميركا، قلت في نفسي ما الذي يجعلني أعود للتقشف الجنسي والتصحر الطاحن، هناك في بلدي؟ ما الداعي لذلك؟ فلأبقى هنا وأعيش الحياة الأميركية، وباسمي المستعار جورج باركر، أكون قد حققت شيئاً من نفسي، فذكائي وقدراتي لا تتلاءم مع العالم الذي جئت منه. أبداً، أبداً.

الحياة الزوجية

الحياة الزوجية السعيدة ليست على الدوام سعيدة. هذا ما كنت أقوله مع نفسي.

الزواج السعيد جحيم مثل الزواج التعيس وربما أكثر، وحين أضجر من المنزل أخرج مسرعاً، أقول لزوجتي عليّ أن أذهب للوكالة سريعاً، لأنهم طلبوني هناك. أكذب عليها دائماً بهذا الأمر، وهي الوسيلة التي أعلل بها هروبي من المنزل حين أشعر بالضجر منها أو من الأولاد، وهي من جانبها لا تأبه لكذباتي التي تكتشفها بسرعة كبيرة أحياناً، ولا تغضب أو تتوتر.

كنت أقول: الزواج هو الآخر نوع من لعبة مواقع، أنت تتحول من رتبة إلى رتبة أخرى، وفي الرتبة الكثير من التوهمات، والخيالات، والفانطازمات، ولكنك تكتشف حتى لو متأخراً هذا الفراغ، تكتشفه عارياً أمامك ومكشوفاً، ربما تغضّ النظر عنه أول الأمر، ولكنك فيما بعد تستسلم لحالة جديدة تقربك شيئاً فشيئاً من البحث عن تعويض ما، أو البحث عن إكمال نقص ما، أو إشباع رغبة ما.

لا يمكنك أبداً أن تنفلت من أسر هذا الشيء، ربما هو شيء بعيد، شيء غريب ومطلوب تدرك أنه موجود في امرأة أخرى، فجأة تشعر أنت بحاجة إليه وتريده، ولكنه ينفلت من يديك، شيء تريده وترغب به ولا

تجده في المرأة التي تعيش معك، لا تجده في الموقع الذي أنت فيه إنما في موقع آخر، في موقع المرأة الأخرى.

وهكذا تجد نفسك تبحث عن جزء من نفسك في موقع جديد.

أقول لكم: إنّ العشيقة في واقع الأمر هي الموقع الجديد، الموقع الخفي الذي يقع تحت موقع الزوجة وأحياناً فوقه أو عليه، هو الاستبدال الممكن، هو ممارسة الخيال إلى أقصاه حينما لا يكون الخيال كافياً في موقع الزوجة، وهكذا كنت أقول لا يمكن أن أجد امرأة عملية وبراغماتية وفي الوقت ذاته مثقفة مثل عشيقتي التي سأحدثكم عنها فيما بعد.

طيب ولكن ما الذي يجعلني أهرب من موقع الزوجة إلى موقع العشيقة؟

في الواقع كنت أهرب أكثر الأحيان من المنزل، لأن ميمي لا تستطيع أن تضع خطاً فاصلاً بين طبيعة عملي وبين متطلبات العائلة. هكذا كنت أقول في نفسي: يا إلاهي أنا لا أستطيع العمل وسط مشاكل الأولاد وزعيقهم. لا أستطيع الموازنة بين متطلبات العائلة الأميركية ونوعية المشاكل التي تحدث في الشرق الأوسط، والتي أجهد نفسي كي أوفر عنها المعلومات والتقارير والمفردات.

لذلك حدث الذي حدث ولعلكم لهذا السبب، سوف تغفرون لي.

صورة حقيقية من حياتي

أعطيكم صورة حقيقية عن حياتي، صورة حقيقية وليست متوهمة أبداً، وأرجو أن تصدقوني في الأمثلة حتى لو كانت غريبة بعض الشيء، فما أفعله من خلالها هو أن أقرب لكم الصورة لا أريد أن أصدمكم أو أدهشكم.

أقدم لكم مثلاً، الجيش العراقي يهاجم الكويت، أو قوات الحلفاء تهاجم بغداد وتهدمها، أو إسرائيل تجتاح بيروت، أو أسعار النفط ترتفع فجأة، أو يحدث انقلاب، أو شخصية سياسية تغتالها فئة مجهولة، وبين أن أبحث عن المعلومات وأطور الأفكار حولها وأحللها، تدخل زوجتي المكتب وتطلب مني أن أذهب معهم في رحلة إلى ولاية أخرى، أو تقول لي أن كاتي وسام يريداني أن أصحبهما إلى الدزني لاند.

فأنا هنا سأرتبك حتماً، لأني أشعر على الدوام أن هنالك فارقاً كبيراً بين عالمين مختلفين تماماً، هذا عالم وذاك عالم آخر، لا أتحدث فقط عن العمل، إنما أتحدث عن الفضاء، أتحدث عن المجال الذي تحدث فيه أشياء متقاربة، وهذا ما كنت أقوله في نفسي دائماً:

إنّ الموقع الذي أحدثكم عنه وهو الذي أفكر به على الدوام في حياتي، هو ليس فقط رتبة ووظيفة وزوجة وبلد وأشياء مادية وملموسة فقط، إنما هو فضاء، إكسسوارات لازمة، وخيالات، وإضافات معنوية وروحية، وأشكال عديدة تشكله. وكنت أشعر بأني بحاجة دائمة إلى أجواء

وفضاءات قريبة من المنطقة التي أعمل عليها، كنت بحاجة إلى إكسسوارات قريبة من أجواء عملي وفضاءاته، غير أن هذه الطلبات الأميركية ـ عفواً لهذا التعبير ـ بعيدة تماما عن الأجواء والحياة الشرق أوسطية.

في الواقع هذا ما يجب أن أُذكّر به دوماً:

إنّ متطلبات الأولاد بعيدة كل البعد سواء في نظام التفكير أو المعاناة عن تلك التي تحدث هناك. لو كنت متخصصاً بالشؤون الأميركية، مثلاً، فلن أجد تناقضاً كبيراً بين انتخابات الكونغرس والذهاب إلى الدزني لاند. ولكن بين ضرب قوات الحلفاء لمدينة بغداد وبين ذهابي إلى الدزني لاند تناقض كبير.

في البداية قلت: سيكبر الأولاد وأتخلص من مسؤولياتهم، وستكبر ماري وتصبح أكثر بدانة وأتخلص من مسؤولياتي تجاهها، وسأكبر أنا في الوكالة وتقل مسؤولياتي، ولكني كنت على خطأ كبير.

فقد كبر الأولاد، غير أن المشاكل والطلبات في تزايد مستمرين. وكبرت ماري وأصبحت أكثر بدانة غير أنها تعلقت بي بشكل أكبر من قبل بكثير. أما الوكالة فأمرها أكثر تعقيداً بطبيعة الأمر من قبل، فقد ازدادت المشاكل في الشرق الأوسط، وكثر المحللون، وأصبح الاستمرار عسيرا من دون البحث عن وسائل أخرى للاحتفاظ بالوظيفة.

كنت أحاول أن أبقى ساعات طويلة، ممداً على الصوفا، وعيناي مصوبتان نحو الثريا الكرستالية المتدلية من السقف، كأنني في فيلم روسي ـ كانت زوجتي الأميركية فيما مضى صديقة لفنان روسي وقد تأثرت به كثيراً، وصنعت أثاث المنزل كما لو كنا في بطرسبرغ في القرن التاسع عشر.

أو أجلس في مغطس الحمام وأنا أرقب انقشاع بخار الماء الساخن،

ومن ثم تحوله إلى قطرات دقيقة تنساب على طول الجدران. أو أن أنظر إلى حائط الحجرة المملوء بالصور وكأني في بطرسبورغ القرن التاسع عشر، أو أرقب عبر النافذة الكبيرة الأشكال المتعددة التي يصنعها الطير على الشجر، أو إلى مياه المطر التي تتجمع في الحفر.

موقع معقد

ـ هل وضعك هنا معقد؟

قالت صديقتي البولونية التي أخفي علاقتي معها عن زوجتي.

قلت لها:

ـ لا ولكني أشعر أحياناً بأني مرتبك.

كنت شربت كأسي مع فيرسلوفا، كنت أسميها فيفي للاختصار أيضاً، في مقهى لافيلا في المدلاند آفنيو، وعدت على عجل إلى ضاحية سوهو، الجادة السادسة، جنوب هودسون حيث يقع منزلي. أول ما دخلت الصالة، خلعت جاكتتي ورميتها على الكرسي، ثم جلست على الصوفا أمام شاشة التلفزيون، كانت إحدى المحطات التلفزيونية قد أعدت مقابلة مطولة معي قبل يومين، وعليّ أن أراها في الساعة الخامسة مساء، كانت أحداثاً عاصفة في العراق:

القوات الأميركية في ساحة الفردوس، وبعض صور القتلى في كل مكان، والسلب والنهب يعم البلاد والقوات الأميركية لا تفعل شيئاً.

لقد قلت لهم في المقابلة لا يمكن ترك الحدود مفتوحة. يجب الحفاظ على المؤسسات. وحذرت من أشياء كثيرة كانت قد فاقمت الأوضاع السياسية فيما بعد. كنت جالساً على الصوفا أرقب المقابلة وأنا منفعل جداً

ذلك اليوم، وابني سام يجلس إلى جانبي بيده الموبايل ويبعث المسجات إلى المحطة في التعليق على شريط صغير يخص كرة القدم وواحد يخص كونسيرت موسيقي هيفي ميتلز.

كنت أحلل ما هي استراتيجية الجيش الأميركي وما كان عليه أن يفعل في بغداد، وكانت عيناي تذهبان رغما عني كي أقرأ في السبتايتل الصغير الذي يسير أسفل الشاشة رسائل سام القصيرة التي يبعثها من الموبايل الذي بيده إلى المحطة:

فاك يو جيني. آم سام. يو هاف تو كس يور آس.

ثم نهض من المكان وذهب إلى حجرته وفتح المسجلة على أعلى صوتها ليسمع أغني الآمنيم.

* * *

أعرف أنّ هذه الأمور التي أتحدث عنها لا تقنعكم، ولكن ماذا أفعل:

أنا رجل قديم، قادم من الشرق الأوسط، أعيش هنا في نيويورك، متزوج من امرأة أميركية، وأخونها مع مهاجرة بولونية، ولدي أولاد أميركيون طيبون، لا يعرفون شيئاً عن الشرق الأوسط ومشاكله، كنت مؤمناً باليسار، وبالحركات الثورية، ومتعاطفاً مع القضية الفلسطينية ومع الاستقلال، وأعمل في مؤسسة أميركية يملكها مردوخ، أكبر كارتل صحافي هنا في الغرب. أنا يساري من الداخل ولكني مؤمن بالديمقراطية وبحقوق الإنسان مثل أكثر الغربيين، يميني في الوكالة ومنفتح مع عائلتي جداً، لم أكن يوماً ضد الحداثة أو معادياً للغرب، كنت أقول في نفسي لم يكن ليو شتراوس على خطأ أبداً، لم يكن مخطئاً حين قال أنّ الديمقراطية يمكن تعميمها على العالم كله بالقوة.

درست في جامعة شيكاغو، قرأت ليو شتراوس ومايكل ليدن وكل منظري المحافظين الجدد، وأنا مؤمن بكل ما كتبوه، وقد قلت لمديري في الوكالة، وهو من أصل ألماني طبعاً:

ـ نعم! الديمقراطية يجب تعميمها بالقوة. ربما لا يمكننا أن نجعلها مثل الماء والهواء، ربما لا يمكننا أن نفصلها على مقاسنا ونبيعها هنا وهناك بأبخس الأثمان، ربما لا نستطيع أن نجعلها مثل بنطلون الجينز، وإن كان أميركي الصنع ولكننا عمّمناه على العالم بصورة شاملة، عممناه إلى درجة أن أصبح اليوم موضة شائعة في كل مكان.

قلت لهم:

ـ علينا أن ندرك الفرق. فهنالك فرق كبير بين نظام الزي ونظام السياسة، فالديموقراطية لن تصبح مثل الماكدونالد التي أصبحت أكلة شعبية في الصين، أليس كذلك؟

ومع أن الكثير من قيمنا ـ هذا التعبير أميركي صرف ـ تغزو العالم، أليس كذلك؟ ولكن أمر الديمقراطية أمر مختلف، الديمقراطية مختلفة بطبيعة الأمر.

* * *

نعم إنها مختلفة. ربما تحتاج إلى أن نفرضها في البداية بالقوة، سنفرضها على الناس رغماً عنهم، ولكنها سرعان ما ستصبح مرغوبة ومشتهاة من قبل كل الناس.. ستصبح أمراً واقعاً، تصبح عادة مثل أية عادة أخرى، ولا يمكن للناس الاستغناء عنها، إن من يعيش في داخلها فترة طويلة لا يمكنه أن يتخلى عنها ببساطة، إنها الصحيح، والصحيح وحده الذي يدوم.

قلت مرة لصديقتي البولونية:

ـ نعم يمكننا فرضها بالقوة، ما الداعي أن نخاف من تغيير العالم، ليتغير العالم، لتتغير كل الأنظمة السياسية على الأرض. لم لا. ما الضرر في هذا، ما الضرر قولي لي؟

ـ التفكير سهل ومريح... نوع من الخيال السياسي ولكن الواقع مملوء بالمتناقضات.

ـ صحيح ولكن هنالك أشياء تحدث بشكل حاسم خارج إرادتنا.

ـ هذا ما أقوله... ولكن التصديق بأن أميركا تريد الديمقراطية في أماكن أخرى من العالم شيء يثير الاشمئزاز لدي.

صمت دقيقة ثم شرحت لها الأمر هكذا:

ـ كانت أميركا تدعم الدكتاتوريات في العالم العربي، وتدعم الفاشية الدينية بالضد من الشيوعية بسبب الحرب الباردة، كنا نسميها المتغيرات السياسية في الوكالة، هذا لا يعني أننا كنا نؤمن بشكل عام بهذه الأنظمة، لأنها مختلفة تماماً عن نظامنا وقيمنا ـ لاحظوا أنا أستخدم التعبيرات الأميركية بوصفي أميركياً ـ هل فهمتِ يا فيفي ما أقوله؟ ولكنها المصالح، اليوم نريد من أميركا أن تكون أميركا المبادئ. ما الضرر قولي لي؟

قالت صديقتي بامتعاض ظاهر:

ـ كانوا يدعمونها كي لا يصل الشيوعيون إلى الحكم حتى لو أرادت شعوبهم تغييرهم عبر الانتخابات. بالمناسبة كانت فيفي ماركسية، وقد أكملت دراستها بأطروحة عن الثورات في أميركا اللاتينية. وإن كانت تمتعض من الشيوعية بسبب عيشها طويلاً تحت نظام شمولي في وارسو. ولكنها حين جاءت الى أميركا وعاشت تحت نظام رأسمالي تغيرت.

ـ حسن هذا أمر معروف لكل واحد منا، ولكن أميركا تغيرت هذه

الأيام، أميركا ما عادت ذاتها أميركا أيام الحرب الباردة. أميركا تغيرت بسب المحافظين الجدد.

ـ تغيرت؟

ـ نعم تغيرت!

ـ أنت تمزح؟

ـ لا ولكن...

ـ لكن ماذا؟

هنا استدركت:

ـ بالمناسبة إّن معظم المحافظين الجدد هم من التروتسكيين.

قلت ذلك كي أجعلهم مقبولين لديها.

ـ ههه.... ضحكت ساخرة.

ـ أصبح شعارهم الديمقراطية الدائمة بدلاً من الثورة الدائمة.

* * *

قلت لها ذلك وأنا متمدد عارياً على السرير في شقتها. بينما نهضت هي من الفراش لترتدي كالسونها المرمي على الأرض، أشعلت سيجارتها وذهبت لتصبَّ لنا كأسين من الويسكي. قدمت لي كأساً وأخذت تنظر من النافذة وهي تدخن سيجارتها، وتشرب من كأسها.

ـ هل تعتقد أن أميركا اليوم تؤمن بأن الديمقراطية هي الحل، ويجب فرضها بالقوة، قالت لي.

ـ نعم نعم ما الضرر حبيبتي؟ ما الضرر في ذلك؟ قلت لها هذه الجملة وأنا أحدق بجسدها الفتي. وهي واقفة شبه عارية قرب النافذة، وفي يدها كأسها.

* * *

أعترف لكم بأني أحبّ أن أناقش فيفي في السياسة وأنا أحدّق في شعرها، أحدق في لونه الكستنائي المشرق، وفي خصلاته المنسابة على الكتفين، وفي ألوان جسدها المتدرجة. أحدثها عن المحافظين الجدد، وأنا مسكون ومخدر برؤية جسدها البضّ، برؤية شعرها المنفلت والطليق والذي يتطاير مع أية نسمة تهب.

في الواقع كنت أحصل على أعظم نشوة وأنا أتحدث معها، أتحدث معها بينما عيناي تحدقان بجسدها. كنت أنظر بوله طاغ إلى صدرها، إلى انحناءة ردفيها الجميلين. أتحدث معها عن كتابات برنارد لويس وفؤاد عجمي وكنعان مكية وأنا متمدد على السرير شبه عار على مسافة منها، كنت أتنشق عبير عطرها الذي تعبق به الغرفة كلها، أتنشق هذا العبير الذي يعمل على إثارتي مجدداً، مرة بعد مرة.

كنت أشعر بالنشوة وأنا أحدثها عن العراق وهي خارجة من الحمام عارية، مضوعه رائحة الشامبو في الغرفة، أو وهي تسير على البلاط بقدميها الصغيرتين الحافيتين. أتكلم عن المحافظين الجدد وأنا أحدق بشعرها المبلل المنسدل على كتفيها، مفترشاً ظهرها.

أبالغ أحيانا:

ـ المحافظون الجدد هم ثوار العصر الجديد بعد أن تقاعد الثوار وجلسوا في المقاهي حبيبتي. لم تعد الثورة هذا الحيوان الهائج الذي يجرف العالم كله نحو التغيير أبداً. ما عاد الثوار في المواقع والخنادق يرفعون أسلحتهم ويطالبون بالتغيير. لقد استسلم العالم كلياً أتعرفين؟ هل يوجد اليوم جيفارا مثلاً؟ هل هناك هوشي منه؟ هل هناك باتريس لومومبا كي يدوخ العالم.

الثوار الآن يدخنون في المقاهي. ويشربون البيرة في البارات

ويتذكرون أيام النضال التي غادرت ولن تعود. لقد أنهينا ـ أقصد نحن الأميركيين ـ الثورة في العالم دون أن نطلق طلقة واحدة.

وقفت فيفي عند النافذة. رفعت قدمها قليلاً فلمحت انحناءة أحد ردفيها، رفعت قدمها وهي تحدثني عن نهاية التاريخ. أو صراع الحضارات، الموضوعات المفضلة لدى المثقفين بعد نهاية الحرب البارد.

ـ ثم مدت يدها وتناولت علبة سكائرها والقداحة. تكلمت بصوت مبحوح، وتحركت قليلاً فتمكنت من رؤية منحنيات ردفيها بالكامل. ثم بدأت تتحدث وأنا على درجة شديدة من الإثارة إلى حد أني ظننت إني سأقذف أمامها.

أشعلت سيجارتها كما لو كانت تؤدي طقساً من الطقوس. ناولتني واحدة وجعلتني أدخن، وأنا أراقبها:

نهداها الصغيران اللذان لم يريا حمالة أبداً لم يكونا كبيرين جداً، لكنهما كانا يتأرجحان على نحو يسيّل اللعاب، هالتان داكنتان، وحلمتان مدببتان. وهي تقف عند النافذة مستمرة في شرب كأسها. وأنا مستمر في الحديث:

ـ إنه متغير سياسي يجب قبوله والإيمان به.

أبلع ريقي وأنا أنظر إليها.

ـ الثورة اليوم نحن الذين نقودها. بول وولووفتز هو جيفارا من دون لحية. زلماي خليل زاده هو هوشي منه من دون صلعة لامعة. عالم متغير حبيبتي! أنت تتكلمين عن أميركا قديمة. كان ذلك أيام زمان، أميركا اليوم هي أميركا المبادئ. أميركا اليوم هي التي تقود الثورة صدقيني. هذا العالم لا يمكنه أن يعيش دون ثورة. هذا العالم لن يستمر دون ثوار.

تدير لي ظهرها العاري الذي تخلبني انحناءاته، شعرها الكستنائي المنسدل على كتفيها، مؤخرتها الصغيرة تبرز بشكل شهوي، ترفع كأسها إلى فمها بهدوء، وترمقني أحياناً بعينيها الزرقاوين الذكيتين من وقت إلى وقت وهي تردّ على تساؤلاتي.

يا إلاهي ليس هنالك ما هو أعظم من أن أكون ممدداً على السرير شبه عارٍ في شقة فيفي. لا لأني سأطور أفكاري فقط، إنما أشعر بأني نجوت من عالم أسود كان يمكنه أن يبتلعني، هناك، في الشرق الأوسط، ويخفيني، كنت أشعر بالراحة التامة معها، وحتى في شقتها التي لا يوجد فيها إلا القليل من الأشياء:

أبجوران جميلان. جدران بيض. طاولة خشبية. كرسيان. فراش. ومغطس في الحمام.

إنها حميمية إلى حد كبير، كل شيء محسوب وموضوع في مكانه. لا وجود لشيء زائد إطلاقاً، لا وجود لمؤن كثيرة لخوفها من أن يبقى منها شيء في الثلاجة التي ينبغي أن تكون شبه فارغة. مثلها مثل جرارات كومودينها، وأرفف خزاناتها، ومكتبتها، وصفحات ألبومات صورها. لا وجود للصور البالية التي تملأ منزل ميمي، والزهور، والكنبات الخشبية الثقيلة في وطن الأثرة الأميركي.

* * *

زوجتي ميمي أميركية تحب أن ترى الأشياء في المنزل متراكمة على بعضها، كل ما تراه في الإعلان تنقله في اليوم التالي إلى منزلي! وعليّ أن أتعود على الحاجة الجديدة المنقولة هنا، وبعد أن أتعود عليها أجدها في الزبالة بعد مدة، ليحل محلها شيء آخر، وعليّ أن أتعود على رؤية

الحاجة الجديدة في المنزل.. وهكذا، شيء لا يمكن احتماله، شيء أكبر من طاقتي لتحمله، لذلك أجد نفسي مرتاحاً جداً في منزل فيفي الصغير والفقير والمتواضع.

فيفي موقع آخر، غير موقع ميمي. وإن كان موقع ميمي مهماً جداً لمهاجر جاء من الشرق الأوسط إلى أميركا، موقع ميمي كان مهماً ـ ركزوا على كلمة كان ـ لمهاجر يصل إلى عالم، هو غير عالمه تماماً. مهاجر لم يجد لإدامة حياته واستمرارها في هذا المكان، غير اكتشاف كل شيء. كنت أكتشف كل شيء وحدي، كنت أكتشف حسب الصدفة الشخصيات التي كنت أحتاج إلى معرفتها، والجمل المهمة التي في الكتب، وموسيقى الأسطوانات التي تجعل مني شخصاً مندمجاً، وصور الممثلين في السينما (الشيء الضروري والمكمل لمثقف يعيش في أميركا)، بل وحتى طعم الكعكات كان عليّ أن أتعرف عليها وحدي، مثلها مثل كل أنواع النبيذ التي كان عليّ أن أحتسيها في الحفلات والدعوات وإن لم تكن كثيرة في أميركا.

ولكن بعد أن تعرفت على ميمي صارت حياتي أسهل بكثير، صار هذا العالم الذي كنت أحلم بالتعرف إليه موجوداً في منزلي وتحت تصرفي، أصبح هذا العالم قريباً مني وفي متناولي..

لقد تعرفت على الحياة الأميركية من خلال ميمي، كانت مهمة لي وأنا كنت محتاجاً لها، كنت محتاجاً لموقعها ومعرفة كل شيء في هذا الموقع، كنت محتاجاً لها لأنني عن طريقها سأتعرف على الكائنات الأميركية التي هي من لحم ودم، أعرف ما هي وما تكون، كنت محتاجاً لأن أعرف تناقضاتها وانفعالاتها، معرفة أمة بأكملها ـ صدقوني ـ لا تتمّ إلا على السرير.

أنت لن تتعرف على شعب مطلقاً، وتكون واحداً منه، إلا بعد أن

تطرح إحدى نسائه على سريرك. صدقوني أتكلم عن تجربة. بعد أن تعيش معها وتتعرف على جسدها وانفعالاتها وحياتها، ستتعرف على أمة ربت وعلّمت وشكّلت وكوّنت.

ولذلك حين كنت أذهب للوكالة كنت أدرك انفعالات الشخصيات الأميركية التي تعمل معي بسهولة، وأعرف ردود أفعالها بسرعة، ويمكنني أن أحزر نواياها أيضاً. يكفي مقاربتها من ميمي كي أمسك بمنطقها مهما كان تعقيدها واختلافها.

موقع فيفي، ما هو؟

أما موقع فيفي فهو الآخر كان مهماً في حياتي. كان الحديث معها والنقاش اليومي يجعلني أميز جيداً بين الواقع واللاواقع، بين الحقيقة والوهم، بين الذكرى والاختلاق.

كانت حجرتها هي محترفي الوحيد والرائع، والذي أجرب فيه كل أفكاري، كنت أجد نفسي معها في مجال مفتوح على تجريب كل الاحتمالات. وكانت شخصيتها، بطبيعة الحال، وتجربتها في بلد من حيث النظام السياسي قريب إلى بلدي يجعلنا نتقاسم التجربة ذاتها والأفكار نفسها. وهنالك طبعاً ما نشعر به من حرمان وعدم رضا، كمهاجرين في أميركا.

وهكذا كنت أجد أنّ نقاشي الدائم معها هو الذي يجعلني أطوّر أفكاري، هو الذي يعمق تحليلاتي، وأنا من جانبي كنت أطلعها على كل الأبحاث والدراسات التي أكتبها. بينما زوجتي ميمي لا يهمها أمر عملي بتاتاً.

ومن حسن الحظ أن لي فيفي، ربما كان اختياري موفقاً لأنها هي أيضاً قد عاشت أكثر حياتها تحت نظام شمولي، وتعرف ما يحدث في البلاد التي جئت منها، في حين كانت زوجتي ميمي أميركية تافهة، وعفواً من هذا الاستخدام، أقول تافهة لأنها لا تفهم ما يحدث وغير قادرة على فهمه أيضاً، وأنا أعترف أنني في كلا الاختيارين كنت موفقاً، فقد اخترت ميمي

في أعوام شبابي الأول؛ وقد علمتني الحياة الأميركية التي كنت بحاجة ماسة لها، واخترت فيفي في أوج عملي لأن لها أفكار سياسية، وتحليلات ممتازة، قد أفادتني كثيراً في عملي في الوكالة.

* * *

كانت فكرة سفري إلى أفريقيا مثيرة لصديقتي البولونية لأنها تحمل مدلولين متعارضين، ومتشابهين في آن واحد. والفكرة كانت مثيرة لزوجتي لأني سأكسب من وراء هذا التقرير الكثير من المال، لنتدبر به زواج كاتي وطلبات سام الكثيرة والمتنوعة. والفكرة كانت مثيرة للوكالة أيضاً من باب اهتمامهم بتاريخ الشرق الأوسط، وتلك الحقبة بالذات.

ونسبة لي فضلاً عن كل الأسباب التي ذكرتها، في أهمية هذا التقرير الذي سوف يمكنني من الاستمرار بعملي والاحتفاظ بوظيفتي، كان سفري إلى أفريقيا أمراً عظيماً بعد أن تعفنت طويلاً في الوكالة محللاً باسم مستعار، بعد أن عشت خمسة وعشرين عاماً بوصفي مهاجراً خائفاً من بلاده القديمة، غير مطمئن لبلاده الجديدة، يقف بقدمين خائرتين، واحدة هنا وواحدة هناك، دكتاتورية في البلد البعيد، ومصالح متغيرة في البلد الجديد. مهما تفعل، مهما تقول، ينظرون لك بوصفك كاتباً منحازاً، حتى لو أظهرت بجلاء قرفك من جمهورية الخوف، الاسم الذي استخدمه كنعان مكية لوصف البلاد التي جئت منها. وبالرغم من فرحة زوجتي الظاهرة إلا أنها أظهرت قلقاً خفياً، ولا سيما بعد مزاح كاتي اللعينة معي، حين قالت لي وعلى مسمع أمها:

حسناً دادي، اذهب إلى أفريقيا، واجلب لنا المال، ولكن حذار من النساء هناك.

البحث والتقرير: مواد أولية

لقد بدأت البحث لكتابة التقرير من أميركا. كان عليّ أولاً أن أقرأ عن الموضوع، وأن أجمع المعلومات من المنفيين هنا في أميركا.

ولكن انظروا ماذا حدث:

لقد شعرت بالفرح الشديد تلك الأيام وللمرة الأولى في حياتي الأميركية. فقد كانت الفكرة والموضوع الذين سأذهب من أجلهما إلى أفريقيا مثيرتين حقاً لا بذاتهما فقط، إنما وبعد هذه السنوات الطوال التي عشتها متغرباً، بعد السنوات الطوال من الدراسة والعمل، أجد نفسي للمرة الأولى وقد أصبحت قادراً على لقاء العراقيين هنا في أميركا، والحديث معهم عن تأريخي وحياتي.

وهذه المرة الأولى التي ألتقي بها بهؤلاء الناس باسمي الحقيقي، وليس باسمي المستعار، للمرة الأولى أسترد الاسم القديم، وأخفي الاسم المستعار والذي استخدمته في الكتابة والعمل على مدى خمسة وعشرين عاماً في الوكالة.

يمكنني أن أقول بأنني للمرة الأولى التي أسترد فيها هويتي التي أخفيتها طويلاً عن رجال ونساء بلدي، لقد وجدت فجأة الهوية الخفية وقد عادت لي، لقد وجدت الشخصين المنفصمين للمرة الأولى وقد تطابقا،

وجهي الذي أخفيته طويلاً عاد لي. وملامحي التي ذابت واضمحلت قد تكونت من جديد، وها أنا أسير بثقة وألتقي الناس دون خوف، أو رعب كما كنت أفعل من قبل.

* * *

في البداية، ومن أجل أن أجمع المعلومات والصور والوثائق عن الثوار، كان عليّ أن ألتقي مجموعة من الأشخاص المعنيين بالأمر وجلّهم من المنفيين.

وهكذا ومن منزل فيفي بدأت بجدول عمل، وبمجموعة من الخطوات التي كان عليّ اتباعها حتى أصل إلى أفضل صورة عن هؤلاء المعنيين بالتقرير.

طبعاً كان عليّ أولاً قراءة مجموعة من الكتب الموضوعة حول هذا الموضوع، غير أني وجدت فيها الكثير من المبالغات، فعدت إلى بعض الصحف التي نقلت المعلومات عنهم ذلك الوقت، وجدتها هي الأخرى مملوءة بالزيف.

عمدت بعدها إلى قراءة بعض التقارير الاستخبارية عنهم، ومن ثمّ جمعت عنهم الشهادات والمعلومات والصور. وقبلها كنت كتبت إعلاناً في الصحف، واتصلت ببعض المهتمين بهذه المواضيع، وببعض بائعي المعلومات، وهؤلاء مهمون جداً، كيف؟

في الواقع هنالك مجموعة من الشهود الذين يعرفون الكثير من المعلومات، بعضهم من السجناء السياسيين، والبعض الآخر من الجلادين، أي من ضباط الأمن والمخابرات الذين أفادوا من قوانين أوروبا ولجئوا إليها، وهؤلاء يمتلكون الكثير من المعلومات حول هذه الأحداث وهم

مستعدون لبيعها، شرط ألا تذكر أسماءهم. إنهم يعيشون اليوم جنباً إلى جنب ضحاياهم، وربما في العمارة ذاتها دون أن يتعرف بعضهم إلى بعض.

وكنت أحياناً أذهب للعمارة ذاتها التي أقابل فيها عائلتين، واحدة كان أحد أفرادها في حرب العصابات من الشيوعيين، والعائلة الأخرى كان أحد أعضائها من رجال الأمن من البعثيين.

وهكذا أخذت أرتب موضوعي والمعلومات الخاصة به وأدرجها في ملفات منفصلة لكي يتسنى لي استخدامها أثناء المرحلة النهائية من الكتابة. ومن أجل المعلومات الاضافية اتصلت بصديق يعمل مراسلاً في بغداد كي يشتري لي بعض الوثائق المهمة والخطيرة من السوق.

استغربت فيفي...

ـ تشتري الوثائق من السوق؟

ـ نعم فهذا الأمر أصبح معروفاً جداً هذه الأيام. يمكن لأي شخص أن يشتري الوثائق السياسية في بغداد كما يشتري الخيار والطماطم من السوق.

ـ كيف؟

ـ هذا البلد الذي كان بوليسياً يوماً ما، ويتصف بندرة المعلومات عنه، أصبحت وثائقه وتاريخه معروضة للبيع في السوق بعد احتلاله وسقوط نظامه.

ـ وهل ستفعل ذلك؟ قالت متبرمة.

ـ لا بأس طالما هذا الأمر يفيدني في موضوعي.

* * *

إذا كان عليّ أن أقول شيئاً مهما وفي هذا الموضوع بالذات عليّ أن

أقول إنني لم استفد كثيراً لا من الوثائق ولا من الأشخاص الذين التقيت بهم في أميركا، إنما من الوثائق المسربة والتي تباع في أسواق بغداد. كان الأمر محبطاً بالنسبة لي جداً. كنت أشعر بأني في بحر متلاطم من الزيف لا قرار له، وكلما كنت انحدر عميقا في هذه التظليلات أشعر بأني أفقد بوصلتي، ويصعب عليّ الرجوع أو العودة بعدها.

* * *

وفي يوم عدت إلى منزل فيفي متعباً تماماً لأني لم استفد من المعلومات المقدمة لي كثيراً. وحين سألتني عن سبب تعبي قلت لها بعصبية:

ـ ببساطة إنّ أكثر الوثائق مزيفة.

ـ طيب حاول أن تحصل على المعلومات من الأشخاص الذي عاشوا تلك المرحلة وهم الآن منفيون في أميركا.

ـ الأشخاص الذين التقيت بهم يدعون أشياء لم يفعلوها.

انتظرت قليلا إلى أن جلبت لي كأس النبيذ، فقلت لها:

ـ غريب أمر هؤلاء الثوار.

ـ ماذا بهم؟

ـ ما أن تنتهي الثورة بهزيمتهم، حتى يبدأ كل واحد منهم بتسطير بطولات وهمية عن نفسه لا مثيل لها، وأنا أتساءل: لو كانت كل هذه البطولات حقيقية، إذن كيف فشلت الثورة؟

أنصار وأنصار

في أثناء لقاءاتي مع المنفيين هنا في الولايات المتحدة ـ أحب أن اسميها كما يسميها العرب: ـ أمريكا ـ وجدت أن أكثر المنفيين هم من أنصار الشيوعية القديمة. كنت أجلس في منازلهم الفارهة ولم يعد من شيوعيتهم شيء، فهم فاتحون جدد، رأسماليون صغار في خدمة رأسماليين كبار. تعلموا الحياة هنا شيئاً فشيئاً، تعلموها حتى أصبحوا رأسماليين وفاتحين، إنهم الذين أطاح البعثيون بهم بمساعدة الأمريكان في السبعينيات.

ـ ما عدتم جدداً في بلاد العم سام. قلت لهم ساخراً.

ـ للأسف لا... قال الرجل في عامه الستين وقد قضى أربعين عاما منها في أميركا، ولم يبق من شيوعيته غير القميص الكاكي واللحية البيضاء.

ـ هنالك منفيون جدد. قلت له ساخراً.

ـ نعم البعثيون...

إنها اللعبة ذاتها، إنهم البعثيون الذين أطاح بهم الأمريكان بمساعدة الشيوعيين الذين لجأوا إلى أميركا أواخر السبعينيات وأصبحوا أمريكان. إنها أشبه بلعبة... رأسماليون يحكمون العراق الآن كان جلّهم شيوعيين فيما مضى. جاءوا مع أميركا للإطاحة برأسماليين قدماء هم البعثيون. الفاتحون

الجدد هم الشيوعيون القدماء وهم الذين أطاحوا بالرأسماليين القدماء «أقصد البعثيين الهاربين بعد الاحتلال».

الرأسماليون الجدد هم الذين قاتلوا في حرب العصابات في الجبال شمال العراق، وفي الأهوار في الجنوب، وكانوا أتباع جيفارا وهوشي منه وتروتسكي فيما مضى، وهم أتباع ليو شتراوس ومايكل ليدن ووليام كريستول اليوم.

الرأسماليون القدماء (البعثيون الهاربون إلى أميركا وأروبا بعد الإطاحة بصدام) أصبحوا هم الثوار الجدد في العالم، بل أصبحوا هم مقاومو الإمبريالية والرأسمالية العتيدة، هم الثوار بعد خمسة وثلاثين عاماً في خدمة الإمبريالية المتوحشة من أجل الإطاحة بالشيوعية القديمة، وهم اليوم أتباع جيفارا وهوشي منه. عجيب أمر الثورات في العراق. صورة ليست مقلوبة تماماً، صورة هؤلاء الثوار المتقاعدين والذين يحبون الجلوس في المقاهي. والحديث الدائم عن بطولات لم يبق منها أي شيء هذه الأيام.

أين الثورات

قلت لفيفي مرة على الأرجح أنّ الاشتراك في الثورة هي مثل لعبة الروليت، لو كنت تعرف بأنك ستخسر حتماً، وليس هنالك ولا واحد في المئة بأنك سترنح، فإنك لن تلعب. وهكذا فإنّ الثوري سيعتقد بأنّ هنالك على الأقل نسبة واحد في المئة، بأنه سينجو، ولذلك ينخرط في الثورة. وربما من أجل هذا الواحد في المئة حدثت الثورة في أهوار العراق...



تعرفين فيفي... إلى الآن، ومنذ سقوط الشيوعية لا أحد يخترع لنا يوتوبيا لنركض وراءه، حتى فكرتها اضمحلت وتراجعت. لم يعد هناك أنبياء للثورة. حتى صورهم وراء الواجهات الزجاجية في المتاحف لم تعد مثيرة لأحد. لم يعد دخان التبغ يتصاعد من سيجار الشباب وهم يخططون في الغرف الصغيرة مصير العالم. لم تعد الكلمات المتصلبة تصعد من الكتب الجديدة. لم تعد الثورة ترافق دخان التبغ الصاعد من المناقشات الحادة وحوارات المثقفين في المقاهي، أو مع خمرة المتحمسين في البارات. لقد أصبح العالم مائعاً، وأكثر خنوعاً بكثير، وأكثر امتثالية.

ـ ألا يمكن أن تعود خيبة الأمل واليأس من الثورة إلى ثورة؟

ـ ممكن...

ـ كل الثورات انتهت إلى قوى فاشية تعيد التاريخ مرة أخرى، وهذا التاريخ لا يتأسس على أي شيء عقلاني..إنما على القهر والتعذيب والحروب الأهلية...الثورات حلم عظيم ولكنها تنتهي إلى تفاهات فيما بعد..

ـ طيب أوافقك ولكن اسمعيني أرجوك لا تضحكي مني هكذا. لا لست سكراناً أرجوك. طيب. أنا موافق ولكني أسألك سؤالاً: كيف يمكن لجيفارا أن يحقق هذا الرقم الهائل من المعجبين ويغطي حتى على الأكثر شهرة في السينما؟

كيف يمكن لجمال عبد الناصر أن يسحر هذا العدد من المعجبين العرب وهو يسحق بحذائه اليساريين المدافعين عن الفقراء في مصر؟ ماهي عناصر التشويق لديه ليسحبها من عمر الشريف أو فاتن حمامة؟ ومع أننا مسحورون بالأبطال الجدد، ولكن من دون ثوار طبعاً. أين هؤلاء الذين يبحثون عن التغيير بأذرعهم العارية؟ أين الراكضون وراء الأوهام؟

لا تقولي لي: هؤلاء المهاجرون وهم يضعون أيديهم على رؤوسهم أمام هراوت الشرطة في المظاهرات. لأن المهاجرين هم الذين كشفوا عن زيف اليوتوبيا. ولا تقولي هؤلاء أصحاب اللحى والدشاشيش القصيرة الذين يفجرون أنفسهم وسط الناس، لأنهم أيضاً بلا يوتوبيا. بل هم أعداء كل يوتوبيا ممكنة. هل يمكن أن تصبح الثورة هي الجلوس في الكافتريا، والشك بقدرة العلم على صنع السعادة، أو اليقين بعدم قدرة الرأسمالية الجديدة على صنع الرفاه.

هكذا نجلس وننتظر ما سيحدث مستقبلاً. حيث ينتهي الطراز العتيق من الرومانسية ويأتي طراز جديد من الواقعية الساكنة.

أوكيه الثورة خرافة. أو أفيون مثقفين. أنا موافق ولكننا بحاجة إلى حركة كي نتحول من هذا الخمول إلى الفتوة. ألا توافقيني.

ـ لا أوافقك.

ـ طيب واللّه أنا أوافقك... ولكن اسمعي فكرتي جيداً... أنا لا أؤمن أن الثورة ستغير العالم رأساً على عقب. كما حدث ذلك في الثورة الفرنسية أو الأميركية أو الروسية. طبعاً نحن في عصر المعلومات وكل شيء تغير، واللّه أعرف... لا تقولي لي إنك شهدت تساقط الرموز والشعارات والتماثيل في بلادك وانتهت الثورة إلى حيث لن تعود. حتى لو لم تعد الثورة كما كانت عبادة الثورة، وأنبياء الثورة لم يعودوا هم الصوفيون الذين يظهرون من جديد. فأنا لن أصرخ: ها نحن من داس التاريخ بقدميه. ولن أصرخ مع تمثال لينين المرمي في المزبلة ليكن العالم عامية بلا طبقات.

ولكني أقول إننا تغيرنا، لم نعد كما كنا قبل مئة عام. لا خرافة الماركسية في وحدة العمال، ولا خرافة ماو في وحدة الفلاحين، ولا باص الثورة الذي مر في أميركا اللاتينية وهو يقل فيدل كاسترو وتشي غيفارا إلى حرب العصابات هو الصالح، ولكن شكل آخر للتغيير غير الذي يريده بن لادن أو الزرقاوي بالموت والفناء، غير النسخة االإفغانية للتغيير. والتي تنقلنا إلى عالم ما قبل الصناعة. يعني كما نقولها بالعربية: خطوة للأمام لا خطوة للإمام. هل فهمتيني... فيفي؟

* * *

طبعاً في البداية كنت أصدق كل ما كتبوه فيما يخص الثورات والصراعات والانقلابات، وكل هذه الزبالة التي يحشون بها رؤوسنا منذ المدرسة، كان المكتوب يمتلك صفة المقدس بالنسبة لي، أما إذا رأيت أرقاماً فأهوى مستسلماً أمامها، الوثائق، الأرقام، الأخبار، وكل هذه الأشياء المكتوبة والمحبرة عن الشخصيات الفذة، الصور أيضاً، ولا سيما الصورة التي فيها نوع من الحركة، كل هذه الأشياء تمثل لي شيئاً مقدساً.

لكن اليوم أقول كل هذا زبالة، خراء ليذهب إلى الجحيم لا أفكر به مطلقاً. أكبر ثوري لا يحلم أن يكون رمزاً من رموز الكولا كولا، أو أكلة الماكدونالد، طبعاً العالم اليوم هو مجموعة من القطع غير المتلائمة، قطع بائسة متجمعة مع بعضها. هدف الدول المتحاربة هو غزو العالم برمته من خلال السوق، وحكمه من خلال مراكز قوى تجريدية. هذه القوى لا يمكن أن نقيم عليها ثورة لأنها بلا مكان تقريباً. هل توافقيني؟! طبعاً... المكان مهم جداً للثورة.. شوفي.. اليوم.. القوة التي نريد أن نقيم ضدها الثورة لا وجود محدد لها تقريباً، فليس لها قصر جمهوري، أو إذاعة ليذهب له الثوار كما كانوا يفعلون في بغداد ليسيطروا عليه، ويعلنوا البيان الأول للثورة. هي قوى غامضة موجودة في الأنترنيت، في الستلايت في التلفون تظهر وتختفي وهي موجودة في كل مكان تقريباً. هذه قوى وهمية توليتارية لتحكم بمنطق السوق دون جنسية تحددها. حين أحاول أن أصف هذه القطع غير المتلائمة لأظفر منها بصورة واضحة لعالمنا أجد إن هناك كثيراً من القطع المفقودة.

التحضير للسفر

كنت عدت في الظهيرة من مكتب السفر حاملاً التذكرة. هبطت من سيارتي الفورد وندستار، وهي سيارة عائلية، من نوع فان اشتريتها العام الماضي. بعد ثلاث خطوات في الكراج بحثت في جيبي عن نظارتي، نظارة القراءة، فلم أجدها. عدت إلى السيارة، فتحت الباب وبحثت عنها في الداشبول المزدحم بأشياء كثيرة، فلم أجدها. بحثت ثانية في الأماكن ذاتها التي قلبتها على المقعد فلم أجدها. بحثت تحت حيث تكون الأقدام...لم أجدها. ميمي كانت بانتظاري لدى الباب. لحظتها تذكرت!

لقد نسيتها بالأمس في منزل فيفي، عند زيارتي لها بعد الدوام، وكنت قلت لها أني لن أمر عليها في اليوم التالي، بل سأرحل مباشرة إلى أديس أبابا. قلت لها سأقضي بعد أن أجلب التذكرة من مكتب الحجز، اليوم كله مع العائلة.

حزنت فيفي لهذا، وهو أمر طبيعي جدا أن تحزن، فقد كانت تريدني أن أقضي يوم ما قبل السفر عندها، في منزلها. لكنها لم تعلّق على هذا الأمر أبداً، غير أني استلمت sms غريباً على نحو ما، من عيادة طبيب الأسنان، قرأته ولكني لم أفهمه في البداية مطلقاً:

«لا يمكنك أن تقرأ اليوم أي شيء... ستمضي الوقت مفكراً بي» وضعت نقطتين وقوساً لتكون الإشارة الضاحكة.

أوه هذه رسالة فيفي. كنت غيرت أكثر من مرة اسمها على التلفون، في يوم كانت النجار، وفي يوم كانت بواب المكتب، وفي يوم كانت الوكالة الصحفية، وفي الأيام الأخيرة اسميتها عيادة طبيب الأسنان. من أجل ألا تشعر ميمي بشيء مريب. فلو قرأت ميمي شيئاً من رسائلها لن تفهم من هي. ولكن رسالتها بالأمس كانت غامضة لي، ومضحكة، ما علاقة عيادة طبيب الأسنان بقراءتي.

ـ آه ميمي أنت هنا... اسمعي أنا أضعت نظارة القراءة سأذهب لأجلبها.

ـ حبيبي اشتري غيرها... الأمر لا يستحق... اليوم الأخير أنت عندنا...

لكني أصريت على جلب نظارتي، ذلك لأني بهذه الطريقة يمكنني أن أمر على فيفي أيضاً.

مما لا شك فيه كنت بحاجة كبيرة لإعداد الحقائب، والأوراق، والكتب التي تبحث في شؤون القارة، والمسجلة التي سأستخدمها في تسجيل المقابلات، وجهاز اللاب توب، وبعض الحاجيات الضرورية التي قلت في نفسي ربما سأحتاجها هناك. ولكن لا بأس من المرور على فيفي أيضاً التي أرادتني أن أفكر بها يوماً كاملاً قبل الرحلة، أو قبل المغادرة إلى أديس أبابا، كنت أنظر رسالتها من وقت إلى وقت وأنا أبتسم. عيادة طبيب الأسنان:

«لا يمكنك أن تقرأ اليوم أي شيء...ستمضي الوقت مفكرا بيJ»

كنت في الطريق أفكر لا بفيفي وحسب وإنما بوضعي ككاتب وبالثوار بعد سن الخمسين، وبالعراقيين الثوريين الذين يعيشون اليوم في أديس أبابا، والذين ربما تزوجوا من أثيوبيات، ثوريات سابقات، أو من أفريقيات من أنغولا أو من الصومال، أو من أي مكان آخر. تحسست

التذكرة في جيبي. كل شيء كان تاماً. الحقائق وهي تحتشد. الاندفاع الذي يبدأ قوياً ومن ثم أخذ يرتخي. أفكر بزوجتي، بأبنائي، بمزرعتي التي اشتريتها العام الماضي، بالحيوانات التي فيها، بالأموال التي سأحصل عليها، بوظيفتي التي علي أدامتها، بدروس الموسيقى التي أخذتها متأخراً، بالسكر، بالتحيزات، بالوحشية التي تضرب العالم كله، أفكر بكل شيء تقريباً. هكذا تتحول الأفكار أحيانا إلى فوضى.

أتحسس أسناني، وجهي، قدمي، حقائق وجودي التي تتراكم في هذا العالم، من أنا؟ شيء من الفوضى تزدحم فيّ وأنا في الطريق فقط كي أمرّ على فيفي وأجلب النظّارة... نظّارة القراءة طبعاً.

* * *

أدخل المنزل. منزل فيفي بالطبع. كأني أراه للمرة الأولى. ربما لأني سأسافر غداً، سأفتقدها وأفتقده هناك. رأيته ذلك اليوم أشبه بمنزلٍ من منازل حكايات الجان. فيفي فتحت الباب، بدت أجمل من كل مرة رأيتها فيها. تطلعتْ بعينين باسمتين وطلبت مني أن أدخل. بدا لي المنزل كأنه مشيّد من أجلي ذلك اليوم. صرت أرى الأشياء بعين جديدة. كتب ماركسية، صور ولوحات ثورية، كل شيء بدا أجمل من المعتاد. لم يكنْ ذلك وهما. تعثرت وأنا أدخل بركام من الكتب، بأحذية طويلة، بجزم، بسترات، قبعات، من الواضح أن هذه الأشياء فاضت من الخزانة وتركتْ هناك قرب الطاولة. أما صحون الغداء فما زالت موضوعة حتى الآن على المائدة.

ـ هل فكرت بي؟ كان صوتها رقيقاً وعميقاً.

ـ بالتأكيد...قلت لها.

ولكن قلت مع نفسي:

ـ «فكرت بكل شيء ليس وحدك تقريباً من فكرت بها»

دون أن أجرؤ أن أقول لها هذا الجواب.

ابتسمت فيفي لجوابي، وهي تنظر في عيني مباشرة ثم انبرت سائلة:

ـ هل عندك تصور جيد عن موضوعك؟

سألت كما يسأل عادة أساتذة الجامعة والمتخصصون! أحياناً تعجبني النبرة الجادة في صوت فيفي، لأنها تقع في التقابل مع الإغراء الجنسي الذي تبديه لي.

ـ أعتقد نعم...

أبديت صورة جادة رصينة مثلها.

ـ هل لديك أسماء؟

قالتها كمن تختبر محدثها.

ـ لدي في الوقت الحاضر ثلاثة أسماء أحب أن أعرف أكثر عنهم...

كنت أفكر لحظتها بجبر سالم... الثوري الذي جاء من الناصرية إلى بغداد في الستينات. وعمل صحفياً بالقطعة، وقد قطن ذلك الوقت في حجرة قذرة في البتاوين وسط العاصمة.

كنت أفكر أيضا بأحمد سعيد، العقائدي الذي عاش طفولته وشبابه في بغداد، ثم التحق بالثورة الشيوعية في الأهوار، وقد شارك في حرب العصابات في الجبال أيضاً، ثم انتقل إلى بيروت بعد أن أطاح البعثيون بالثورة، ثم انتقل إلى أديس أبابا بعد صعود الضابط الشيوعي منغستو إلى السلطة في أثيوبيا.

وبميسون...

ـ امرأة معهم..

ـ نعم... ميسون التي أحبها أحمد ورافقته في الأوكار الحزبية وفي حرب العصابات.

كان وجه فيفي قد أشرق حين تكلمت لها عن هذه الشيوعية التي اشتهرت بمقاومتها الضارية للبعثيين في ذلك الوقت، وعانت في السجن من أكثر صنوف التعذيب شراسة ووحشية....

راحت فيفي إلى الثلاجة جلبت لي كأس ويسكي من الذي أحبه «جوني ووكر» ومن نوعية بلاك ليبل... وبالكأس المضلع مع مكعبات الثلج.

* * *

أمسكت الكأس فشعرت ببرودته، أرحت ظهري على الكرسي. وقبل أن أشرب منه سألتني:

ـ هل أنت مستعجل؟

ـ في الواقع....

ـ احكي لي عن هؤلاء...

شعرت أن فيفي تريدني أن أتكلم لها عن موضوعي، وعن سفرتي إلى أفريقيا وعن الثوار الذين سأقابلهم هناك، كي أبقى عندها أطول وقت ممكن، وأنسى بالتالي الذهاب إلى ميمي وقضاء الوقت عندها في المنزل. وكانت تعرف بأني إذا بدأت الحديث بهذا الموضوع فلن أنتهي مبكراً، سأتأخر لديها هذا أمر مؤكد. وأنا من جانبي أدركت بأني إذا ما دخلت في هذا الموضوع وتحدثت لها عنه سأتأخر حتماً عندها، على الرغم من أنني وعدت ميمي

بقضاء السهرة معها ومع الأولاد، ولكني تواطأت أيضا مع فيفي، ربما كانت لدي رغبة داخلية، رغبة غير مصرح بها أن أقضي الوقت معها.

ـ تعرف، قالت فيفي، استغربت لهذا التشابه بين الثورة في العراق والثورات التي حدثت في أميركا اللاتينية، كيف يمكن أن تنتج ثقافتان مختلفتان ثورات متشابهة.

ـ الأمر بسيط!

ـ كيف؟

ـ على الدوام هنالك كتاب ما يصنع الفوضى.

ـ أي كتاب؟

ـ كتاب ريجيس دوبريه ثورة في الثورة!

ـ ريجيس دوبريه... يا إلهي! قالتها قبل أن تنهض لتتناول علبة سجائرها من الطاولة التي تقابلنا.

ـ كتابه ترجم الى العربية، وأحدث مشكلة في العراق... فكرته بسيطة، صحفي يذهب إلى أميركا اللاتينية لينقل صوراً عن حياة الثوار هناك. هو يؤمن بالثورة في هذه البقعة من العالم، يتأثر بجيفارا وبالثورة وبالثوار الذين ارتحلوا الى الأدغال والجبال... قصة جميلة من قصص الصراع في العالم، يعجب بها شباب يعيشون في جنوب العراق ويقررون تقليدها.

ـ هذه الفكرة أبداً ليست بسيطة... هذه حكاية مؤسسة لجيل كامل في أوروبا أيضاً...

ـ أختلف معك بهذا الأمر... قلت ذلك لاستفزازها وأكملت:

ـ أنا أراها كالآتي: شاب متحمس ابن أحد كبار المحامين في

العاصمة الفرنسية، من عائلة برجوازية، ثرية ومثقفة، يسأم من الحياة الرخوة والهشة.. فيسافر إلى كوبا التي انتصرت فيها الثورة عام 1959 بقيادة فيدل كاسترو، يلتقي بالقائد الجديد ومن ثم يتوجه إلى بوليفيا للالتحاق بتشي غيفارا. ومن هناك يجسد أطروحاته الثورية في كتابه الشهير الذي صدر في العام 1967 تحت عنوان «الثورة في الثورة »، وهذا الكتاب هو الذي جنن الشباب العراقيين ذلك الوقت فانتهجوا الكفاح المسلح.

ـ يا لقلبك الذي يمكنه أن يبسط الأشياء على هذا النحو...

ـ حسن لنقل أنها قصة معقدة...

ـ طبعاً معقدة... ماذا تحكي أنت...؟ قالتها بعصبية ولكن بابتسامة ساخرة أيضاً. ابتسمت لها بدوري أنا أيضاً وأكملت:

ـ يقرأ أحمد سعيد وهو في بغداد هذا الكتاب في العام 1967. كتاب يصبح على نحو مباغت شهير جداً... ربما بسبب الاسم، ربما بسبب الصورة... كتاب يباع على الأرصفة. لقد أصبح كتاب المرحلة... أينما تذهبين في العراق تجدينه.

ـ الأمر يختلف قليلاً في أوروبا.

ـ يجلس هذا الشاب وهو ابن محامي أيضا في منزله في المنصور، أو في مقهى شعبي، قرب السوق المزدحم طبعاً. لا أعرف حقيقة أين قرأه!

يعجب أولا بصورة دوبريه بلحيته النابتة على وجهه والمنشورة على غلاف الكتاب العربي، يعجب ربما بقميصه الكاكي، شكل الشاب الثوري وهيئته... أمر معروف...

ـ أنت تسخر...؟

ـ اسمعي لا أسخر صدقيني...

ـ تكلم اذن بجدية أكثر...

ـ أنا أتكلم بجدية كاملة.... ولكن اسمعي لدي سؤال... أنا إلى الآن لا أعرف من أين تأتي فكرة اللحية عند كل الثوار، هل يعني أنهم ليس لديهم وقت مثلاً لحلاقة اللحية...

ـ ههههه أنت تضحكني بأسئلتك ولكني أرى اللحية كثير سكسي...

ـ هكذا إذن... أنا أعتقد أنها ليست للنضال إنما فقط لأنها بالنسبة للنساء سكسي..

ـ ارجع إلى موضوعك بدلاً من أن تجعل الأمر كله في هذا الجدل العقيم...

ـ أوكيه أرجع إلى موضوعي... لنقل أن أحمد سعيد قد قرأ هذا الكتاب... ولكن لا أعرف إلى أي درجة فهم فكرة ريجيس دوبريه الأساسية في الثورات؟

ـ ماذا تقصد؟ قالتها مبتسمة، ووضعت سيجارتها على طريقة الثوريات ونفثت الدخان في الهواء.

ـ أنا أقصد فكرة ريجيس دوبريه عن البؤر الثورية...!

ـ هذا أمر مهم...

ـ أنت تفهميني جيداً..

ـ كل العالم أعجب في البداية بهذه الفكرة!

ـ طبيعي فبعد نجاح الثورة الكوبية في استلام السلطة السياسية وبدء التحويل الاشتراكي، طرحت نظرية البؤرة الثورية «وفق النموذج الكوبي»!

ـ ما الامر في ذلك كانت هي الأساس لتحرير أمريكا اللاتينية.

ـ أوكيه فيفي... ولكن هذه النظرية خضعت للمحك العملي عبر سلسلة من التجارب كان أبرزها تجربة غيفارا في بوليفيا، والتي انتهت بشكل مأساوي...

ـ أوكيه سجلها غيفارا بنفسه في مذكراته عن هذه الحرب...

ـ طيب ولكن إلى أي درجة كان الشباب العراقي، ذلك الوقت، يعرف مذكرات جيفارا عن الحرب؟

قلت لها هذا الأمر مؤكداً لها معرفتي بالموضوع، على علمي بمعرفة فيفي كل ما يتعلق بأمر الثورات في أميركا اللاتينية.

ـ ايه مضبوط! محركة رأسها بالإيجاب وهي تضع يدها التي تحمل السيجارة، العكس على الفخذ، والراحة يستند إليها خدها.

ـ هذا ما أردت أن أصل إليه... إذا كانت هي قد تعرضت إلى نقد شديد وبدا فشلها واضحاً، لماذا لم يقرأ الشباب العراقيون هذا الفشل، وهم جربوه بأنفسهم حينما أشعلوا ثورة الأهوار... ثمّ لماذا ذهبوا بعد ذلك إلى أفريقيا.

ـ ثورة الأهوار ما هي...؟

ـ أوه خليني أكمل...

ـ أنا أسمع..

ـ لنقل أنّ أحمد سعيد قد أعجب بقصة البؤر الثورية، وهو يقرأ ريجيس دوبريه. كان يحلم ويحلم في مدينته الواقعة على النهر. فيفكر لماذا لا يصنع ثورة على غرار ثورة كاسترو وجيفارا، ما الذي ينقصه... لا الخيال ولا الروح الثورية ولا الحماسة.... ثمّ اسمعي الشيوعيون العراقيون

هم الوحيدون من شيوعي الشرق الذين جربوا حمل السلاح على غرار البؤر الثورية في أميركا اللاتينية...

ـ أوه شابو.... احترامي الشديد لهم...

ـ ثمّ يصدف أن جاء من بريطانية شاب متحمس آخر، اسمه خالد... كان يعمل مستشاراً عند الفيلسوف برتراند رسل... شاعر... ثوري... وسيم ورومانتيكي... ماذا تريد الثورة أكثر من ذلك؟

ـ طبعا...هذه كل صفات الثوريين في العالم...

ـ تحدث الثورة لكنها تفشل، التقدير غير صحيح... الامبريالية لا تستسلم بسهولة، لم يفكروا بالذخيرة، لم يفكروا جيدا بالحاضنة... يقوم الفلاحون الفقراء أنفسهم... وهم سبب ثورة هؤلاء الرومانتيكيين الحالمين... بالوشاية لدى السلطة لتعقبهم وقتلهم أو اعتقالهم....

ـ التراجيديا النهائية للثورات لا يعني الفشل أبداً... الثورة تستمر بالرغم من نهاية مشعليها نهاية تراجيدية...

قالت فيفي ذلك وأنا واثق من اعجابها الشديد بأي ثورة.



تنتمي فيفي إلى جيل أوربي لديه حنين شديد للتغيير، أو للتفكير بالثورة. وأنا واثق ثقة تكاد أن تكون نهائية أن صورة الثوري، هي لا محالة، صورة أدبية، لنقل فنية، صنعتها السينما والرواية أيضاً. صورة مصنوعة بكل تأكيد من عناصر خيالية مختلفة، صورة جذابة عناصرها طهرانية الثوري، جماله، براعته، ذكاؤه، تضحياته، لكنها من الفن أكثر مما هي من الواقع، من الخيال أكثر مما هي من الحقيقة، وحتى وإن كانت واقعية فهي من

تأثير الفن أيضاً، والكثير من الشباب يخوضون هذه التجربة بسبب تأثرهم بالسينما وبالراوية.

أنا أقول هذا الأمر على الرغم من معرفتي بأن الغربيين قد تغيروا كثيراً هذه الأيام، لكن جزءاً منهم... وربما جزء غير قليل ما زال يحلم بالثورة، بشرط ألا يموت فيها. حلم كل البشر، أن يكونوا ثواراً شرط ألا يخسروا شيئاً، أو على الأقل لن يموتوا.

إذا حدث وأن وجدت ضمانا بأنك لن تموت ستصبح ثورياً حتماً.

ولكن لدي شك أيضاً، بأننا لو قرأنا على الثوري خبر موته قبل أن ينخرط في الثورة، فإنه ربما لن يذهب إلى حتفه بأقدامه.

* * *

طبعاً في العراق كانت ثوراتنا موجعة.. يا فيفي.

ثوارنا انقسموا قسمين أحدهم جلاد وآخر ضحية، بعض الضحايا نجوا واختاروا الجلوس في المقاهي، أو الصمت، او اهتدوا إلى التجارة بعد أن انتهت الثورة، لكي يتجنبوا الدخول في الصراعات الدموية للسلطة، ثم جاءتنا طبقة من الثوريين المتدينين ليس لهم مثيل على الأرض أبداً، ربما يشبهون الفوضويين الروس في القرن التاسع عشر، ثورة عابثة بلا أي معنى.

طبعاً لا صلة لهم بطبقة الأنتلجنسيا التي تصنع في الغالب تنظير الثورة، بالتأكيد لا. هم اليوم من الأميين، والمحرومين، ومن اليائسين الذين وجدوا في نسخة بن لادن أحلامهم. فبن لادن من فوق حصانه يريد أن يفجر العالم ويمحوه، ثوراتنا بلا أحلام كبيرة، واحد يريد أن يردنا إلى عالم ما قبل العالم، وآخر يريد أن يأخذنا إلى عالم لم ينولد بعد.

وها هو الغرب كما ترين فيفي... وضع أول إشارة cross أمامنا وأوقف شرطياً مهذباً ليعلمنا أن طريق الثورة والتغيير مغلق حالياً، وعلينا أن نغير الاتجاه، لقد قدم شاي التقاعد للثوار وصرفهم من الخدمة، قال لهم مكانكم هنا في المقهى.

باللّه لا تضحكي فيفي أنا لست سكراناً، اسمعي تقاعد الثورة في الغرب قد حل منذ زمن بعيد، وصورة ماركس لا تعد هنا سوى سائق شاحنة أراد أن يقطع طريقاً مسدوداً فسجلوا ضده مخالفة مرورية، لم يعد ثورياً بنظرهم بمقدار ما هو سائق مخالف. طبعا هم محقون، حين بدأوا بهذه الصناعات الضخمة أوصلونا إلى إزالة تناقضات اجتماعية كبيرة، هناك وفرة فيفي في كل شيء، التغيير يقع في استهلاك هذه الأشياء الوفيرة والكثيرة كما تفعل زوجتي ميمي، فبدلاً من التفكير بالثورة ستفكر بتوفير أثاث جديد، وهذه الشركات توفر لها كل شيء بالتقسيط المريح، فكم هي مجنونة لو تركت الحرب في شارع سوهو وراء الحاجات الجديدة، وحملت السلاح وذهبت إلى درب هيوستن مثلا حالمة بانقلاب عسكري ضد البيت الأبيض. تفهمين ما أقصده، الأمر فيه شوية خدعة، صحيح البروليتاريا تحولت من عمال لا يملكون إلى منبوذين ومهاجرين ولا منتمين وعاطلين وزنوج وعرب ولكن هذه الفروقات التي تقوم على العرق واللون لا تحلم بالثورة بمقدار ما تحلم بالمطالبة بحقوق أكثر، يعني إذا كنت تأكل، وتمارس الجنس، وتلعب الرياضة، فلا يمكن أن تحلم بالتغيير عن طريق الكفاح المسلح كما كان يفعل ثوريونا في بغداد، الأمر بمنتهى البساطة، الزنجي يحمل جهازاً ويريد أن يصنع أغنية على طريقة مساري، ويربح الملايين، تدخلين في البورصة وتصبحين مليونيرة، المهم أنت تحلمين، وتجدين آخرين يحققون الحلم بلا أدنى طلقة واحدة.

ولكن المشكلة لدينا ـ أقصد في العراق ـ حينما يجدون كل الطرق مسدودة، لا طريق الثورة الذي لكه الثوار السابقون بالشمع الأحمر، ولا درب الحياة مفتوح لهم. فأين يذهبون. طبعاً لا وجود اليوم لتغيير حقيقي إلا في تدمير كل شيء، يقولون أنتم خربتوها، أوكيه ليخرب معها كل شيء. كل شيء صار عندنا ولكن لم ينفع أي شيء، أجيالنا جربت كل شيء لا تقولي لا. أنا أعرف أن الغربيين لا يقبلون بهذا ولكنا تبعناهم بكل شيء ـ لاحظوا إني كنت أتحدث مع فيفي أحيانا باعتباري من الشرق الأوسط لا باعتباري أميركياً كما كنت أتحدث مع الأفارقة ـ أجيالنا جربت كل شيء أحزاب ثورية، قومية وشيوعية وحركات طلابية وتحرير المرأة وحركة هيبية وليبرالية واستشراق غامض وبدائية مزيفة وإثارة جنسية، ومخدرات، وشعر طويل، ومتاريس، وكوكتيل مولوتوف في الناصرية وكردستان وانتهى جميع أشكال الوقار. ولكن لا تغيير ولا بطيخ، عاد المجتمع كما كان، مع أول ضربة أميركية، كما تركنا أبونا إبراهيم حينما كان يتجول في أسواق الناصرية قبل آلاف الأعوام.

حلم واستذكار

طيب. لنقل أنّ الصحفي جبر سالم هو الذي أراد أن يقلد ريجيس دوبريه وليس أحمد سعيد، بل أن أحمد سعيد أراد أن يكون جيفارا العراق ذلك الوقت. وهكذا ذهب الصحفي جبر سالم لينقل هذه الوقائع على الطريقة الدوبروية ـ من ريجيس دوبريه ـ وانطلق في مغامرة كبيرة لا أحد يعرف أين انتهت، وكان لزاما عليّ أن أكتب التقرير متضمنا هذه الحدود المجهولة بالنسبة للكثيرين، غير أنني شعرت ذلك الوقت بالاحباط ذلك لأنني لم يكن من الممكن لي أن أمد فيفي بمعلومات غنية عن هذا الأمر. فما كنت أعرفه من التقارير والشهادات التي في يدي صورة مبالغ بها، صورة مصنوعة عبر بلاغة كنت خبرتها في صحافة وإعلام أولئك الناس كثيرا، ومع أني قرأت نشرات كثيرة، ومقالات من المفترض أن تكون سياسية، ومكتوبة عبر منهج علمي، لكنها في الواقع نشرات أدبية مكتوبة بطريقة أدبية.

ـ فيفي حبيبتي... ليس من السهل أن نتجاوز شخصيات عاشت بصورة ثرية في حياتها ومغامراتها وبنت لنفسها صورة لا يمكن نسيانها...

وافقتني.. لكنها عندما طلبت مني إيضاحات أكثر... صمتُ.

* * *

لقد جمعت وأنا في نيويرك الكثير من المعلومات، والتقيت بأشخاص

عديدين، كلهم أكدوا لي حقيقة هذا الثوري، وهذا الصحفي المغامر الذي نقل الوقائع المعاشة في الأوكار السرية والمعسكرات. وغطى أكثر المعارك ضراوة في أفريقيا ذلك الوقت، غير أن هذه الوثائق التي أخذت تتراكم بصورة غير مسبوقة، تحتوي تقريباً، دون استثناء يذكر، الأفكار نفسها والأحداث ذاتها، بل مكتوبة في أحيان كثيرة بالعبارات المكرورة كل مرة والتي أواجهها وأقرأها في تقارير مختلفة.

ولم أعثر إلا في أحيان قليلة جداً على أشياء جديدة غير مذكورة من قبل. ولكن ما كان مهماً في تطور المعلومات هذه هو حصولي على تقرير نادر يصف بدقة تعارف هذا الصحفي على أحمد سعيد. ويذكر صراحة أثر ريجيس دوبريه الذي قرأ كتبه في بغداد، عليه. ويصف بدقة غير موجودة في أماكن أخرى كيف رحل وراءه إلى كل مكان ذهب إليه، لكي ينقل وقائع حياته ووقائع حياة الثورة. تصف إحدى الوثائق، لحظة التعرف عليه، صرخ في وجهه:

ـ جبر سمعت عنك.. أنت ريجيس دوبريه العراق...

ـ وأنت جيفارا العربي!

وهكذا تعانقا، وترافقا منذ ذلك الوقت.

* * *

مشكلتي مع الوثائق التي عثرت عليها هو اهتمامها الشديد بالتحليل السياسي، غير أن ما كان يهمني في ذلك الوقت شيء آخر. كنت أبحث عن المعلومات والوثائق التي تخص حياتهم، عن نشأتهم في مدنهم، كنت مهتماً بمعرفة جيلهم، وتربيتهم من قبل أهلهم، طبيعة مهنهم، حياتهم مع أصدقائهم، كي أستجلي من وحي وجودهم وكينونتهم، العبقرية الثورية

التي جعلتهم فيما بعد صامدين هناك، في أفريقيا. وكنت أتساءل على الدوام كيف قادوا تلك الأيام حرب العصابات ضد الحكومة في الأهوار؟

صاحت فيفي:

ـ عمل عظيم! ذلك الذي قادهم إلى فكرة الثورة.

* * *

كنت أمام فيفي مستسلماً لكأس الويسكي أولاً، لجسدها الذي يشف تحت الضوء ثانياً، لأفكاري... أو لصور الثوار الثلاثة كما كونتها في ذهني ثالثاً.

بعدها جلستْ فيفي أمامي صامتة في الصالة المضاءة. كانت النافذة خلفها مباشرة، رأسي في دوامة من التشوش الكامل، أما هي فقد جلستْ مشدودة الأعصاب على حافة مقعدها، محاولةً أن تستمع لي وأنا أحدثها، غير أنها انتبهت بأني كنت مستثاراً بها أكثر مما كنت متحمساً في الحديث عن الثوار... سحبتْ نفسها إلى الوراء، كانت ساقاها منفرجتين، تنورتها مرفوعة للأعلى فوق ركبتيها، أصبح تعبيري اللغوي مرهوناً بانفعالي الجنسي المتنامي. أخذت استخدم مفردات جنسية في شرح مفهوم الثورة. توقفت قليلاً. فكرت. تذكرت قبل يومين كنا هي وأنا جالسين في المقهى، وكانت ساقاها متباعدتين وتنورتها منحسرة عن فخذيها، وكان هنالك شخص يجلس أمامها وكان قادراً على رؤية ما تحت تنورتها بل ويرى سروالها التحتي المثير، وأربطة جواربها الملتصقة بفخذيها وهي بلون أرجواني عميق تناسبان ساقيها الملساوين.

استثرت بقوة. أخذت أتكلم بصعوبة. كان الوقت ما بعد الظهر، الأصوات تأتي من النافذة، أصوات بشر بعيدين تدلل على أن الحياة في

نيويورك على الدوام متوهجة.. حياة موارة في شوارعها الفارهة لا تهدأ. رائحة عذبة تختلط مع الهواء الهاب والقادم من الشباك، لا بد أنها رائحة نيويورك، الرائحة التي أحبها وأميزها منذ سكني في هذه المدينة قادماً من الشرق منذ عقود. هنالك موسيقى أيضاً، صوت كمان رخيم يعبر مسافات بعيدة، لا أعرف من أين يأتي ولكنه يختلط في تلك اللحظة مع صوت تنفس فيفي الذي أخذ يقترب شيئاً فشيئاً مني.

حينها هدأ كل شيء في رأسي، واشتعل جسدي. شعرت لحظتها بأني مأخوذ بها تماماً، ربما كنت مأخوذاً، باللحظة وبالفضاء المحيط بي وببهجتي بالسفر إلى أفريقيا، بعد دقائق لم أشعر إلا، أنا وهي، عاريين ومتعانقين على الفراش.

مطار كندي نيويورك

كانت الوكالة قد أبلغتني، قبل أسبوع من الموعد، أن رحلتي إلى أديس أبابا ستكون يوم الاثنين الساعة واحدة ظهراً على شركة الخطوط الجوية الأميركية، بان أميركان. وستكون هذه الرحلة، بطبيعة الأمر، من مطار جون كندي، المطار الأكبر في نيويورك.

غير أني طلبت منهم تأجيلها إلى يوم الأربعاء، في الساعة الثامنة مساء، كي أصل في الصباح باكراً وليس في منتصف الليل. وقد وافقوا على ذلك. وذهبت بنفسي كي أجلب تذكرة السفر يوم الاثنين بعد

الظهر.

قالت لي موظفة شركة السياحة وهي تطوي التذكرة في مظروف:

ـ لديك ترانزيت مرتين، مرة في مطار فرانكفورت في ألمانيا، والآخر في مطار دبي في الإمارات، خمس ساعات قبل أن تصل مطار بول في أديس أبابا، هذا يعني زمن الرحلة حوالي ست وعشرين ساعة...

ـ أوه رحلة طويلة...! قلت لها، ومن غير أن تعلق على جملتي، استمرت وابتسامتها لا تفارق وجهها أبداً، لتحدثني عن إرشادات السفر، ووزن الحقائب، والترانزيتات، وما يمكن حمله وما لا يمكن أخذه معي، الطريقة الأميركية التي تتطلب الأريحية من الشخص المتكلم، وخصوصاً

الموظف، في كل وقت. وهو أمر مزعج بالنسبة لي ولا سيما حينما لا أكون في مزاج مرتاح.

قبل وصولي المنزل كنت اتصلت بصحفي اسمه آدم يقطن في أديس أبابا، أعطتني رئيسة الوكالة اسمه في الصباح. قالت لي وأنا منكب على أوراق فوق مكتبي عن الثورة التي حدثت في أهوار العراق في العام 1968:

ـ خذ هذا رقم تلفون الصحفي الذي يعمل في كثير من الأحيان دليلاً للصحفيين الأميركيين أو الأوربيين الذين يرومون عمل تقرير عن أثيوبيا... اتفق معه، إنه لا يأخذ كثيراً من المال.

ـ حسن، قلت لها وطويت رقم هاتفه في جيبي.

بعد أن خرجت من شركة السياحة اتصلت به.

ـ ألو...آدم...

جاءني الصوت واضحاً:

ـ نعم أنا هو... لكن من أنت؟

ـ أنا صحفي أميركي... أريد زيارة أديس أبابا لعمل تقرير خاص أو عن موضوع خاص هناك... هل يمكنك أن ترافقني.

ـ بكل سرور... متى تصل إلى مطار بول...

ـ من المفترض أن أصل يوم الجمعة الساعة الثامنة صباحاً.

ـ من أي وكالة أنت؟

ـ من وكالة التعاون الصحفي الأميركية...

ـ أعرفها... شيء رائع... هل حجزت الفندق...؟

ـ من المفترض أن أكون في فندق اسمه الجديد...

ـ لماذا هذا الفندق... إنه فندق رديء... إذا أحببت أغيره لك..

ـ أهو رديء إلى هذه الدرجة؟

ـ نعم يمكنني أن أحجز لك في فندق آخر...

ـ أوكيه أنا سألغي حجز الفندق هذا من هنا وأنت تدبر لي فندقاً أخر.. فندق جيد ها؟

ـ طبعاً...

ـ شكراً يا آدم نراك قريباً...

ـ عفواً... سأكون بانتظارك..

* * *

كان من المفترض أن فيفي هي التي توصلني إلى المطار، هكذا اتفقت معها مبدئياً، على أن أقنع ميمي بأن لا تتعب نفسها وتقود السيارة، والطريق طويل فهذا الأمر لا معنى له بوجود التاكسيات، إلا أنها أصرت إصراراً بطريقة مزعجة جداً على أنها هي التي توصلني. بل تكلمت معي بحدة في هذا الأمر، إلى الدرجة التي أغضبتني، قالت أنّها تريد أن تبقى معي حتى آخر لحظة من وجودي هنا في أميركا...

ـ لا يمعودة... كيف يكون هذا على الأقل أوصليني ثم عودي فالأولاد في انتظارك.

ـ لا.. أنا أخبرت الأولاد بأني سأتأخر قليلاً حتى تأخذ طيارتك...

ـ ميمي لا تكوني مراهقة... أوصليني إلى المطار وكفى.

كنت متأملاً من فيفي، إن لم يكن ممكناً أن توصلني هي إلى المطار فعلى الأقل ستكون في صالة التوديع معي قبل لحظة التشيك إن.

وهكذا فإنّ ميمي هي التي أوصلتني بسيارتها إلى المطار. صعد كلانا بعد أن حملنا الحقيبة الكبيرة، كانت ترتدي الكنزة الحمراء بنقاط سود صغيرة، أقول الحق، هي الكنزة التي لا أحبها أبداً، بل أقرف منها تماماً. والتنورة التي اشترتها العام الماضي وأصبحت ضيقة عليها، وقلت لها أكثر من مرة أنها تسمن كل عام أكثر، وبالتالي لا يصحّ أن ترتدي الملابس ذاتها لعامين متتالين، لكنها تفعل الشيء ذاته كل مرة، دون أن تعير ملاحظاتي فيما يخص ملابسها، وأناقتها ـ آخر شيء يمكن وصف ميمي فيه هي الأناقة ـ أي اعتبار، بل كأنها تفعل العكس تماماً، حتى توقفت أن أذكر لها أية ملاحظة فيما يخص ملابسها أو فيما يخص رشاقتها ـ حين أقول رشاقة في توصيف ميمي، شخص ما في داخلي يضحك متهكماً.



في الطريق السريع المؤدي لمطار جون كندي كان الازدحام شديدا جداً. وكانت السيارات تسير ببطء مزعج، وأصوات سيارات الشرطة نسمعها من كل مكان، وخفقات مروحية في السماء تتابع الطريق كأنها تخفق داخل السيارة. لم نكن نعرف السبب وقتها ربما بسبب حادث في الطريق أو مطاردة بوليسية لمجرم هارب، أو بسبب لا أعلم ما هو. إلا أني كدت أفقد أعصابي لحظتها، كنت أعرف أن تأخير دقيقة واحدة في الطريق سوف يؤخرني عن رؤية فيفي قبل أن أغادر نيويورك إلى أثيوبيا، ولا أعلم متى أعود ثانية، والدقيقة في هكذا حسابات تعادل أعواماً من حياتنا التي تمر بعيداً عن الحب، وبالتالي فهي أوقات لا معنى لها. غير أن ميمي استغربت جداً:

ـ لماذا أنت عصبي حبيبي هكذا... مازال لديك وقت كاف...

ـ ألا ترين ألا ترين... لو تركتيني أخذ تاكسي لكنت وصلت الآن!

ـ وهل سيطير التاكسي بك فوق السيارات ماذا تقول؟

ـ لا ولكن سواق التاكسي يعرفون كيف يتحايلون على الازدحام.. أليس كذلك؟

ـ لا أعرف لماذا أنت عصبي هكذا..

ـ بسبب الازدحام!

ولكن أخيراً بقي لي من الوقت ساعة ونصف على موعد الطائرة. بعد تأخير نصف ساعة أوصلتني ميمي إلى ترمينال واحد وتوقفت قبالة البوابة تماماً، وقبل أن أهبط من السيارة قبلتها من فمها قبلة سريعة، فقد كانت متهيئة لتقبيلي قبلة طويلة وساخنة، إلا أني قطعتها بحجة الاستعجال والارتباك من السفر أول مرة إلى أفريقيا، فأخذت تنظر لي مندهشة من سلوكي وهي جالسة بجمود خلف المقود. ثم هبطتُ بسرعة شديدة، أنزلت حقيبتي بكلتا يدي إلا أنها انفلتت لثقلها وارتطمت بقوة على الأرض. فأمسكتها من قبضة العتلة البلاستيكية المثبتة في أعلاها، وسحبتها خلفي. ولما رأيت ميمي تحاول أن تفك حزام الأمان لتهبط من السيارة من أجل عناقي وتوديعي، أشرت لها بيدي أن تبقى مكانها. ثم خطفت حقيبتي، وهرعت إلى الداخل بسرعة كبيرة.

لقد بدا واضحاً بأني كنت أريد أن أهرب منها بسرعة شديدة، وأقول للأسف أن هذا الأمر كان مفضوحاً بالرغم مني أني تعللت بأني مضطرب شيئاً ما لأني للمرة الأولى التي أسافر فيها إلى أفريقيا، ولكني لم أستطع أن أخفي انفعالي أبداً، أبداً. وهكذا أخذت حقيبتي ونسيت حتى أن التفت لها وأحيها تحية أخيرة، ودخلت إلى الصالة الكبيرة متلفتاً باحثاً عن فيفي. ذهبت في البداية إلى الكافية الموجودة في الصالة، فلم أجدها، تفرست بوجوه الجالسين ثم خرجت مهرولا. حقيبة صغيرة على كتفي، وفي يدي

جاكتتي، وحقيبتي الكبيرة أجرها خلفها، ثمّ هرعت إلى لوحة الإقلاع والهبوط الكبيرة الكائنة في منتصف صالة الانتظار.

* * *

من بين عدد غير قليل من الناس المتوقفين أمام اللوحة، عرفت فيفي.

عرفتها من كنزتها البيضاء التي أحبها جداً، والتي اشتريتها لها من محلات تيفاني، المحل الرئيسي، والذي يطلق عليه أيضا منزل «العلبة الزرقاء» الموجود في الشارع 57 الجادة الخامسة، حيث وجدنا، هي وأنا، في الطابق الأول مجموعة Shlumberger الرائعة ومجموعة مميزة أخرى من التصاميم الكلاسيكية، فأشار كلانا وفي نفس الوقت إلى كنزة بيضاء جميلة، قالت لي:

ـ ألا ترى كيف يتطابق ذوقنا في كل شيء.

وكانت ترتدي التنورة البيج التي اشتريتها لها من محلات Bergdorf Goodman الذي يقع في الجادة الخامسة، وكانت هذه التنورة هي من تصميم اللبناني الشهير عبد محفوظ، وقد اشتريت لها فستانا من الهوت كوتور، وكان هنالك ترخيص عليه. فذلك الوقت كان هنالك هجوم على غزة، وقتل الكثير من الناس، واستضافتني محطات عديدة، وأصبح لدي وفرة من المال، صرفت كمية جيدة منه على ميمي والأولاد وصرفت الباقي لملابس فيفي، التي كانت تفضل فيما مضى شراء الملابس من محلات Mystique الموجودة في شارع برودواي في سوهو، والتي تقدم آخر وأحدث التصاميم بأسعار رخيصة.

* * *

من أناقتها، من شقرة شعرها البراقة، من رشاقة كتفها ومؤخرتها

المغربية لي، عرفت فيفي، ففاجأتها بحضنها من خلفها. التفتت لي، فعانقتها عناقا حميماً. غير أنها كانت غاضبة ومنزعجة، لأن ميمي في النهاية هي التي أوصلتني إلى المطار وليس هي! وقد حرمتنا بطبيعة الأمر من أن نكون ساعة على الأقل معاً. بعدها سألتني إن كانت لدي الرغبة في أن أشرب معها كأساً أو كأسين من البيرة قبل مغادرتي..

ـ طبعاً طبعاً! قلت لها هذا بجذل.

فجرتني من يدي بقوة، وهرعت بي إلى بار المطار لنشرب كأسي بيرة هناك. جلسنا جنباً إلى جنب على كراسي جلدية عالية، في الفسحة الخارجية وليس داخل البار. كان وجهانا متقاربين، نشرب ونقبل بعضنا البعض، نتهامس بكلام حب فاضح، نضحك ونلعق شفاه بعضنا. دون أن نتكلم مطلقاً عن أي شيء ما خلا الحب. لم نتكلم لا عن سفرتي، ولا عن عملي الجديد، لا عن الشيوعيين الهاربين، ولا عن الأولاد ولا عن ميمي. كان المطار مزدحماً ذلك اليوم بشكل استثنائي، يمر بنا المسافرون وهم يجرون حقائبهم ينظرون صوبنا أو لا ينظرون. يتجمعون بالقرب منا أو يتفرقون ولاسيما أن هنالك وعلى مقربة من البار لوحة كبيرة لحركة الطائرات، غير أننا لم نكن نبالي بأحد. فيفي وأنا عشنا تلك اللحظات وحدنا تماماً. نتكلم بصوت عال، نهمس، نضحك، نشرب البيرة كأساً بعد كأس. حتى شعرت أن موعد الطائرة بدأ يقترب.

ـ يجب أن أغادر الآن قلت لها...

ـ آه كم يمضي الوقت بسرعة...

ـ سأتذكرك كثيراً وسأكتب لك من هناك...

ـ لا تنسى ها... وانتبه لنفسك في أفريقيا...

ـ اعطيني قبلة أخيرة...

قبلتها قبلة طويلة.

وبينما كنت منهمكاً في قبلتها، لا أعرف كيف، شعرت بأن شخصاً ما وسط الزحام الذي يتجمع عند لوحة حركة الطائرات يراقبنا. مع ذلك لم أقطع القبلة. ولكن بقيت مغمض العينين وأنا غارق في شفاهها، حتى شعرت بأن الوقت تأخر. سحبت نفسي منها، والتفت يميناً، وفتحت عيني ببطء شديد، فشعرت أن الشخص الذي كان يراقبنا قد اختفى في الازدحام، ولم أر منه غير كنزته الحمراء المبقعة بنقاط سود.

ـ من هذا؟ قلت في نفسي، هذه الكنزة أعرفها.

ضربت يدي على جبيني... إنها ميمي! أنا متأكد! هذه الكنزة التي ارتدتها اليوم، والتي اشترتها من عامين أثناء زيارتنا لواشنطن! وكنت أكرهها جداً! آه إنها هي! دخلت صالة المطار ورائي، فقد شكت بتصرفاتي، لا بد أنها ستشك! تصرفاتي، استعجالي، عصبيتي، ارتباكي كلها كانت مفضوحة. ومن ثم لما رأتني مستعجلاً جداً، ومن دون أن أودعها وداعاً حقيقياً، فقررت الدخول إلى صالة المطار لتر لم هرعت كي أدخل الصالة مع أنه ما زال الوقت باكراً على إقلاع طائرتي!

ـ ما بك حبيبي هل من شيء؟ قالت فيفي.

ـ لا لا.. أبدا!

لم يكن ممكناً لي، بطبيعة الأمر، إخبار فيفي بهذا الموضوع، مطلقاً. إنه أمر في غاية الحساسية بالنسبة لكلينا! وكنت أعرف جيداً، كم تضايقها السيرة التي تخص عائلتي، وعلى الأخص الأشياء التي تتعلق بميمي. وبالرغم من إصراري في بداية علاقتنا على إخبارها بكل شيء، وبشكل تفصيلي، وكنت أحكي لها كلما التقينا عن حياتي العائلية، وكل ما يتعلق

بميمي، بمنزلي، بالأولاد، بالمشاكل التي تحدث هناك من وقت إلى وقت. إلا أنها بعد مدة من الزمن أخذت تشعر بالضيق والانزعاج كلما مررنا على هذا الأمر. فأنا في البداية كنت أريد أن أكشف لها كل شيء عن حياتي، بل تعمدت بعض الأحيان بإخبارها حتى بالأشياء التافهة التي تحدث هناك. على أمل أنها ستتعايش مع حياتي هكذا كما هي.

إلا أن النتيجة كانت عكسية، ففي بداية العلاقة تعايشت مع الحالة، ولكن كلما أخذ الحب يزداد بيننا أضحت ثقيلة عليها. أخذت أشعر بوجهها وهو يتغير كلما جئت على أخبار عائلتي، كانت تريد أن تفكر بي بينها وبين نفسها كما لو كنت أعزب، كما لو كنت أعيش وحيدا بلا ميمي وبلا أولاد، وقد تفهمت حالتها، حينها عرفت كيف أبعدها تماما عن كل ما يتعلق بهذه السيرة.

هنالك شيء آخر. فأنا لا يمكنني أن أذكر لفيفي هذا الأمر الآن، لنقل: في هذه اللحظة بالذات. ذلك أن اللحظات التي بيننا كانت جد رومانتيكية وعاطفية، ولم أرد إفسادها بخبر أنا لست متأكداً منه تماماً.

هل كان الشخص الذي يراقبنا هو ميمي؟ أنا لست متأكداً من هذا الشيء أبداً. فأنا لم أر، في الحقيقة، من المرأة التي كانت تراقبنا واختفت فجأة في الازدحام غير لون كنزتها. ولا يمكن لي أن أجزم أنها هي، ميمي، بلحمها ودمها. فربما هذه من أوهامي، ومن خيالاتي، ذلك أن كثرة تفكيري بالأمر، بدأ خيالي يصور لي أشياء غير حقيقية. وعلى علمي بطبيعة الأمر، بل ويقيني أن ميمي سوف تعلم بأمري مع فيفي في يوم من الأيام. فهو يوم لم ينفلت منه أحد، وما نخفيه بقوة وإصرار شديدين، بل مهما بلغ الإصرار فأنه سينفضح في يوم ما!

وقد هيأت نفسي لهذا اليوم بطبيعة الأمر، وأقول هيأت نفسي،

هذا لا يعني أني سأجعل ميمي تتجاوزه، لا بل هذا يعني أني سأتلقى النتائج بقلب مرتاح، مهما كانت.

* * *

ماذا أفعل الآن؟

حاولت تدارك الأمر بسرعة كبيرة، والتصرف أمام فيفي وكأنّ شيئاً لم يحدث، وبالرغم من شعوري بالانقباض الحاد في قلبي، وتغير مزاجي، وتحول سعادتي إلى حزن عميق، إلا أني ابتسمت لها، عانقتها عناقاً قوياً، ووعدتها بدوام الاتصال بها، ثم حملت حقيبتي الصغيرة على كتفي وسلكت الطريق إلى المنفذ الذي يفضي إلى البوابة الأخيرة حيث ركوب الطائرة.

بطولات وثوار

بعد أن أقلعت الطائرة شعرت بدوار خفيف، بارتباك، بقلق من نوع ما. من ضجيج المحركات ربما. من شعوري بأني فقدت علاقتي بالأرض وأصبحت في الهواء. من كنزة ميمي الحمراء التي أكرهها، والتي اختفت في الزحام دون أن أتبينها جيداً.

وربما من التجربة المجهولة، أو من المخاطرة التي سأدشنها في عملي، في أثيوبيا البعيدة! والتي مهما قرأت عنها لن تكون مثلما هي عليه في الواقع.

شعرت لحظتها برغبة كبيرة بكأس ويسكي مع مكعبات من الثلج! بعطش تقريباً، أو ربما برغبة جامحة بتغيير المزاج. وكنت أعرف أن هذا الأمر لن يجيده إلا كأس ويسكي مضلع بمكعبات من الثلج.

* * *

فككت حزام الأمان بعد أن أعلن القبطان بالسماح بذلك. طلبت من المضيفة أن تأتي لي بكأس من الويسكي مع مكعبات الثلج، قالت أنّهم سيمرون على كل المسافرين وعندها يمكنني أن أطلب ما أشاء! ولكني أصريت، أريد كأس الويسكي حالاً، كنت كالأطفال لحظتها، الآن يعني الآن.

جلبت لي كأس الويسكي، وقبل أن أرتشف منه قطرة واحدة خطر في بالي أن أدون بعض الملاحظات عن الثوار.

كانت الطائرة في السماء، ورائحة الويسكي في أنفي، وطعمه الحريف وطعم الثلج البارد في فمي، وفي لحظة من اللحظات شعرت بأني انفصلت عن عالم فيفي وميمي تماماً، والتحقت بعالم آخر، هو عالم الثورة والثوار.

* * *

أفريقيا أنا ذاهب إليها الآن، لون الغيوم الأبيض تحتي مثل دثار من القطن. لون السماء أزرق مثل لون البحر، وصورة تروتسكي الذي دوخ الشباب العراقيين في الستينيات، ترتسم أمام عيني بلحيته المربعة مثل دعاية بسكويت الجمل في بغداد. لم يكن أمراً مبالغاً به. أبداً! حاول شباب في العراق أن يصنع ثوراته متأثراً بثورات أميركا اللاتينية وذلك بما قرأه من كتب ريجيس دوبريه المترجمة والمطبوعة في بيروت مثلاً، لكن الثورة فشلت. وبدلاً من هذه الثورة الماركسية الحالمة، نجحت ثورة أخرى في بغداد، صنعها العسكر وهم ضباط ومراتب مختلفة في الجيش!

هم مجاميع أخرى من أبناء الفلاحين المدعومين من البرجوازية الصغيرة في المدن، ومعهم طبقة الكومبرادوار التي تنتعش في كل العالم الثالث.

إنها ثورة أيضاً لكنها على خلاف الثورة الأولى الحالمة والرومانتيكية. إنها صورة مقدر لها أن تنجح! فقوتها تكمن في الدعم والوسيلة لتنفيذ ما تريده منهم القوى الكبرى. صانعوها رجال سياسة وليسوا شباباً رومانتيكيين حالمين بالعدالة والحرية. وهكذا تفشل ثورة الشباب في جنوب العراق، فيقرر الناجون من الموت الهرب، بعد أن قتل من قتل منهم، وسجن من سجن. يهيم الهاربون في أرض اللّه الواسعة، بحثاً عن ملاذ آمن. هذا الملاذ

يخدرهم بالجنس والحشيش والكتب والموسيقى الصاخبة. لكن بعضهم تضيق به السبل تماماً، فيلتحق بثورة أخرى، ثورة يقيمها منغستو!

ـ لم لا؟ فهو عسكري أيضاً، انقلابي على نحو أصح! كما أنه صانع ألاعيب سحرية في الأسواق الدولية.

ـ إذن من هناك سيصنعون الثورة أليس كذلك؟

ـ نعم، بالتأكيد!

كان همهم أن تكون الثورة نقية، طاهرة، يتيمة، وفيها أبطال ومفكرون، ولكن لم يفكر أحد منهم، أو يتخيل أنه سيلتقي في يوم من الأيام مع بطل من أبطاله، جيفارا، كاسترو، رجيس دوبريه.... في مكان غير خنادق الثورة. هل كان أحدهم يتخيل مثلاً، ممن التحق بالثورة آنذاك، أن يشرب القهوة مع ريجيس دوبريه، قهوة مصنوعة من نوع خاص من قهوة الأرابيكا، وتسمى الماراغوجيب، وهو نوع محسن من بذرة البن العربية الأصل تحتوي على نسبة كبيرة من الزيوت العطرية التي تمنحها مذاقاً لذيذاً ومميزاً. يشربها ولكن ليس في خنادق الثورة إنما في مكتب رئيس الجمهورية؟ ذلك أن ريجيس دوبريه قد خلع ملابس الثورة وارتدى الملابس الأنيقة، وأخذ يعمل في مكتب الرئيس الفرنسي في الإليزيه. ربما سيصرخ أحد الشباب الذين قتلوا في الأهوار ذلك الوقت وهو يحمل كتابه عن الخلايا الثورية:

ـ لا أبدا... هذا الشيء غير معقول بالمرة....

نعم معقول. فجيفارا الذي قتل في شبابه، قد ورثه كاسترو الذي أنهى تاريخه الثوري، بملابس عسكرية وقبعة وسيجار.

* * *

إنه أمر بسيط للغاية. ثورة صغيرة حدثت في العراق. أول ثورة في الشرق الأوسط متأثرة بثورات أميركا اللاتينية. لنقل أنّها المدخل الأولي لوجود ثوار آخرين في أديس أبابا. ولنقل أيضاً أن الشيوعيين العراقيين هم الشيوعيون الوحيدون، من العرب، الذين استخدموا الكفاح المسلح من أجل التغيير السياسي. وكان الصحفي جبر سالم الذي أراد أن يكون ريجيس دوبريه أول من رافق الثوار بكتابته لتقارير متعددة عنهم. ومع أن تقاريره كانت منحازة جداً، ولكني كنت منبهراً بها، ومنسحراً بجرأتها، مذ كنت مراهقاً في العراق، قبل مغادرتي إلى أميركا، وقد قرأتها أول مرة في بيت صديق لي.

* * *

أذكر ذلك اليوم جيداً. يوم صيفي قائظ، غير أنه جميل أيضاً، كنت ذهبت مع عائلتي بسيارتنا الهوندا إلى منزل صديق لي أسمه أحمد، يقطن في حي الأعظمية في بغداد. عائلته برمتها شيوعية، وكانت متأثرة بحركة الكفاح المسلح، وهي حركة ثورية انشقت عن الحزب الشيوعي الرسمي. يقع منزلهم المبني بالطابوق قرب المقبرة الملكية. وقد صعدت في البداية إلى حجرته التي تقع في الطابق الثاني، كي يريني مجلة بورنو قد وصلته من صديق آخر لنا في المدرسة، وكنت متلهفاً لمشاهدتها وتصفحها.

حين صعدنا هناك وجدنا أن الأمر ليس سهلاً في أن يخرج المجلة من الكومدينو ويريني إياها، حيث كانت أختي وأخته تصعدان بين الآونة والأخرى إلى الطابق العالي حيث تقع مكتبته. وكان يخشى أن يخرجها فتقبضا علينا متلبسين. وبدلاً من ذلك ومن أجل إخفاء الحدث الرئيس كان أخرج لي منشوراً سرياً قد وصل والده في اليوم السابق يتعلق بالشيوعيين

والثورة في الأهوار، فجلست على كرسي قريب من المكتبة واستغرقت في قراءته، فنسيت مجلة البورنو، ونسيت صديقي، والبنات، وأهلي، ودخلت في عالم ثان تماماً.

خيال

لقد جعلني هذا المنشور المكتوب بهدوء تام أن أحلم، أن أرى جبر سالم وهو يبحث عن أحمد سعيد بين الوجوه المتفرقة في بغداد، وفي صيف قائظ كهذا الصيف، ولكن قبل عشرات السنوات.

ربما يلمح أحمد سعيد في المقهى! يفتش عنه بين الوجوه هناك دون أن يراه. يقع هذا المقهى قرب محطة الباصات في الميدان في نهاية شارع الرشيد في بغداد. يسير جبر خطوتين يلتقي رفيقا آخر، يوشوش له في أذنه كلمتين محذراً إياه من رجال الأمن.

ينظر جبر باستقامة إلى الشارع، لا يلمح شيئاً، يسير ولا يرى غير بلاطات الرصيف تنزلق عليها عجلات حقائب صغيرة يدفعها ثلاثة مسافرين، وكعوب أحذية امرأة تسير بهدوء. ما كان يلمحه فيما بعد هو ورق التذاكر المرمية على الاسفلت، بقايا سندويشات عمال البناء. يرفع رأسه يرى طيراً هابطاً من أعلى العمارة كي يأكل ما تبقى من الفتات المتناثر على الرصيف. يقف عند أحد أعمدة شارع الرشيد، يعد الوجوه العابرة، يتخفى من رجال الشرطة ونظراتهم المدققة القاسية. ثم يقرأ لوحات عناوين المحلات، هنالك عشرات الإشارات والأسماء، بينما يزدحم الشارع شيئا فشيئاً بخروج الموظفين فيرى عشرات الوجوه التي تهرع، والأجساد التي تتلاقى، والمصائر التي تتفرق، والنساء التي تكمل طريقها.

ـ هل هذا هو أحمد سعيد... لا ليس هو! يشتبه بوجه مار إلى جانبه. لا هذا ليس بروفايله أبداً.

هكذا قال جبر وهو ينظر باستقامة في الشارع باحثاً عن مثاله الثوري الذي يجيد التخفي ويجيد البقاء. كان قد رآه مرة واحدة، يتذكر تفاصيل وجهه بصورة تامة، ولكنه شعر كما لو أنه نسي للحظة وجهه، ملامحه، وحتى لون شعره. من شدة توتره نسي حتى المكان الذي هو ذاهب إليه. عادة قديمة، حينما يذهب للقاء شخص ما، فما أن يتأخر الشخص، حتى يبدأ بالشك بمعلوماته. هل اللقاء في هذا المكان فعلاً؟ هل اليوم هو الموعد المحدد؟ والساعة؟ ربما توهم الساعة أيضاً.

* * *

مالذي يمكن أن يفعله إن لم يتمكن من رؤيته هذا اليوم؟ كان هنالك صوت داخلي يناديه، ينبثق من أعماقه. صوت يخبره أن أحمد سعيد قد غادر البلاد نهائياً. غادره إلى بلد آخر وثورة أخرى، وعليه، على جبر سالم أن يلتحق به! لا بد له أن يغادر! الشخص الذي يتخفى لا يسكن على حال واحدة، ولا في بلاد واحدة. الصوت الذي يصمت، يعود ليناديه مرات ومرات. شبيه بصوت أحمد سعيد، بنبرته، بذبذباته. النبرة التي تقذف به في أماكن أخرى من العالم.

طالما حلم جبر سالم بأحمد سعيد وهو يظهر من الأفق الذي أمامه فجأة. وهو يقول:

«الثوري الحقيقي لا تطيح به الشهرة، ولا يفت الزمن بثوريته».

جبر سالم لا يتوقف عن سماع صوت أحمد سعيد. ذلك أن صوته يحتوي على عالم كامل، عالم الثورة بطبيعة الأمر. لكن ليس هذا كل

شيء، إنما هنالك أيضا: الحياة الحقة، الحياة التي يتقزز منها ويعشقها في آن واحد. الحياة الحقة هي الحياة المملوءة بالفشل والصخب والهزيمة والفرح.

وإن لم يره ذلك اليوم حيث غادر أحمد سعيد العراق، إلا أن جبر أصبح يعيش حقيقة على أمل اللقاء به سريعاً، سريعاً.

* * *

عُرف أحمد سعيد، أثناء شبابه كشاعر، لديه محاولات أدبية عديدة سرعان ما طورها ونشر العديد منها في الصحف المحلية، وقد كانت حياته ومغامراته في تلك الفترة مثيرة حقاً. ربما تحولت على يد رواة حياته الى نوع من الأسطورة الخاصة عن البرجوازي الذي تخلى عن الرفاه، وتحول إلى ثوري، وعاش حياة ابن الشارع، مباهج العالم السفلي، والمغامرات العابثة بكل عنفها، وجنونها.

لقد ترك الملعقة الذهبية على طاولة منزله ومارس الحياة بوصفها عراكاً متصلاً مع الحياة، وربما تقبل مصيره في البداية بقدرية كاملة، إلا أنه سرعان ما تمرد عليها وثار. وحين قرأت أشعاره المخطوطة ـ لم ينشر ديوانه حتى الآن ـ كانت تحمل عناصر أساسية من سيرته الذاتية، وربما أضافت صيغة الأنا التي كتب بها أشعاره ميزة خاصة، فقد كشفت هذه الصيغة الكثير من خفايا حياته، وإن بقيت بعض الأسئلة الخاصة بوجوده قبل الثورة في ذلك الوقت غامضة. ومع ذلك تجد الصورة التي تكرس وجوده كبوهيمي هي مركز ثقل كل الكتابات التي كتبت عنه قبل تحوله إلى الثورة. ثقافة الجيل الذي يجد أهميته وقد نبعت من حضورها اليومي، وما الكتابة هنا سوى سرد طويل ومتقطع يحتوي على حكايات كثيرة،

ومفارقات لفظية، واستعارات خاصة، يزرعها الشاعر في قلب النص ليعرض لنا صورة عن التوتر والقلق الذي كان يعيشه.

* * *

إن أحمد سعيد، الثوري والشاعر هو الذي رسخ إيمان جبر بالثورة، بل رسخها في جيل كامل من الشباب ذلك الوقت، لقد أصبح هذا الجيل أكثر صلابة وهو يقرأ ليلاً ونهاراً، تقارير عن الثورة منشورة في المجلات الشيوعية العربية. تقارير ترتكز لا على أفكار الثوار فقط إنما على عناصر حياتهم أيضاً. وقد التقى احمد سعيد ذلك الوقت بالماركسي اللبناني فواز طرابلسي حينما زار بغداد سرا أواخر الستينيات، وسكن في شقة قريبة من بارك السعدون، تحولت فيما بعد إلى بناية للأمن العامة والبوليس السري. ويقال أن هذا الماركسي اللبناني هو الذي حث أحمد سعيد على إقران شعره بالثورة على غرار شعراء شيوعيين في العالم، وعلى خلاف الكثير من الشعراء الذين استمروا على بوهيميتهم وعدميتهم في العراق. ـوإن بدء حياته بوهيمياً هو أيضاً، فقد تحول مباشرة إلى الثورة، يعني:

كان يكتب المناشير ويوزعها ويشارك في المظاهرات ويقوم بأعمال كثيرة.

* * *

وما هو معروف عنه، أنه كان يتردد كثيراً على مقهى البرلمان، وهناك ادعى مرة أنه لا يكتب إلا تحت تحت تأثير المخدر أو السكر. ثم.. لم تكن كتابته تحتاج إلى معاناة كي تظهر، هذا ما كان يقوله دائماً. فلديه أفكاره الخاصة عن الكتابة، عليها أن تكون مثل غائط ساخن في الصباح التالي لليلة ثملة.

والجميل فيه هو توثيقه للحياة التي عاشها أو شاهدها، خاصة فقر وقلق بغداد. كان يريد أن يسجل كل شيء عن نفسه، ولا سيما وهم وخيالات الطفولة والمراهقة، إلى أن تعرّف على الثورة. فأصبحت هي حرفته.

تقرير المخابرات المركزية الأميركية

الوثائق التي بحوزتي كثيرة ولكنها متشابهة، تقرير واحد فقط هو المهم. تقرير من أوراق قليلة كنت عثرت عليه في الأيام السالفة لسفري، هذا التقرير مكنني من رؤية الأشياء بوضوح أكبر. فقد أمضيت أياماً عديدة، في مكتبة الكونغرس، أبحث عن وثائق جديدة تخص هذه الأحداث التي وقعت في العراق، والتي من النادر أن يذكرها التاريخ الرسمي. الى أن حدث وعثرت على تقرير السي آي أي عن الثوار، يا لفرحتي ذلك اليوم، لقد عثرت عليه في واقع الأمر بمساعدة من موظفة المكتبة التي كانت تقدم لي خدمات كثيرة تساعدني في البحث عن الوثائق، اسمها انجيلا، وهي من أصول أميركية لاتينية.

ضحكت في يوم وأنا قادم وسألتني:

ـ ها هل وجدت شيئاً جديداً...؟

ـ نعم وجدت بعض التقارير الصحفية التي كان يكتبها أحد الصحفيين من خنادق الثورة في أفريقيا.

ـ نحن وأنتم في قدر واحد....

ـ ولكن المشكلة أن التقارير لدينا لا تنجو أكثر الأحيان من الانحياز.

ـ الشيء ذاته في كل مكان. قالت وهي تبتسم. ثم أكملت:

ـ أمر ستواجه حتماً مع كل الصحفيين الثوريين الذين كتبوا عن الثورات والثوار بدءاً من (عشرة أيام هزت العالم) الذي يحكي قصة الثورة الروسية. وانتهاء بكتاب (ثورة في الثورة) لريجيس دوبريه.

ولكن هل اطلعت على تقرير المخابرات المركزية.

ـ لا...ما هو؟

ـ أوه أنت لا تعرف... هم لديهم تحليلاتهم في هذا الأمر...

ـ أرجوك أريد أن أطلع على هذا التقرير...

ـ حسن غدا سيكون عندك...

* * *

في اليوم التالي تترك أنجيلا الأوراق على الطاولة التي أجلس عندها عادة، وتذهب إلى مكتبها، ولا أنسى أن ألتفت للوراء كي أرى مؤخرتها قبل أن تختفي خلف المكتب.

أجلس على الكرسي وأبدأ قراءة التقرير الذي كتبته المخابرات المركزية عن أحمد سعيد وأقارنه بالتقرير الصحفي الذي كتبه جبر سالم عنه. أنجيلا تواصل عملها في إعادة واستعارة الكتب لمرتادي المكتبة. أبحث عن نظارتي. بصعوبة أجدها في حقيبتي. أعاود القراءة مرة أخرى متمعناً في الأوراق التي بحوزتي. استسلم للموقف كلياً. غير أـني لم أعد متيقناً من شيء أبداً. أكره النبرة المكتوبة في تقرير المخابرات عنهم ذلك الوقت، مع ذلك أواصل قراءته. لم أهتم كثيرا بالتفاصيل الذي يوردها باستثناء تفصيلين اثنين، ما تعلق بأحمد سعيد والتحاقه بالثورة وعلاقته منذ أيام الجامعة في بغداد بميسون عبد اللّه.

* * *

العام 1966، صورة أحمد سعيد مثبتة في رأس الصفحة. لا يستبعد التقرير أن يكون هذا الشاب هدفاً لجماعة متطرفة تعمل على كسبه. لديه كل المؤهلات المطلوبة: التهور، المثالية، الخيال. كما أن زياراته المتكررة للجنوب وضعته على رأس المطلوبين ذلك الوقت. لا أحد يفهم الحالة، من الصعب فهم بلد مثل العراق، لماذا تجنح كل الأطراف فيه إلى الشيوعية. يضعف الإسلام فيه وتصعد فيه الروح الجامحة الباحثة عن العدالة.

مع ذلك تم القبض عليه في العام 1967 ووجهوا إليه تهماً خطيرة. منها التخطيط لانقلاب، العلاقة مع خلايا ثورية لتغيير النظام القائم، التمرد، الجنوح نحو الثورة، حيازة ممنوعات: صور جيفارا، كتب ماركسية، مذكرات، قصائد. والأكثر من كل هذا هو علاقاته مع عناصر مشبوهة خارجة عن القانون يتجمعون في مقاهي يسارية.

* * *

كل الثوار في العراق خرجوا من المقاهي والبارات. الأمكنة الوحيدة في هذا العالم التي تعلم معنى الحرية. كان أحمد سعيد من رواد مقهى المعقدين. ثم أخذ يتردد فيما بعد على مقهى البرلمان في شارع الرشيد. وهذه المقاهي في بغداد معروفة بأنها مقاهي مثقفين وثوريين أيضاً، بعبارة أخرى مقاهي يساريين.

المقهى عامل مهم، بل وحاسم أيضاً لمن يريد أن يفهم الحركات الثورية في العراق وسوريا ولبنان، فمن هذا المكان جاءت ثورة العراق، ومع أن القوى المعادية أطاحت سريعا بها إلا أن أحمد سعيد كان يؤمن أنها الثورة الوحيدة التي لها معنى حقيقي في العالم العربي، لأنها قامت على الحرية الجنسية وكل أنواع الحريات. فلا ثورة من دون أن تكون ثورة

ضد الدين. لا ثورة من دون أن تكون انقلابا ضد الصيغة البطرياركية القادمة أصلاً من الدين، والتي تحكم المجتمعات العربية وتصنع ثوراتها وانقلاباتها واستبدادها.

وعند إطلاق سراحه لم يتوقف بل واصل الذهاب إلى هذه الأماكن المشبوهة، والمعروفة بمعاداة السلطة السياسية المدعومة من الغرب من أجل ألا تسقط في حضن الشيوعية.

* * *

لقد استمر في الذهاب إلى المقاهي اليسارية والسفر إلى قرى الفلاحين في الجنوب... هكذا... بقصد أن يلتقي بالآخرين والتهيئة للثورة. إنه وقت التحضير. وهو لم يكن ينشد غير التقرب من الفلاحين من أجل أن يجس فيهم نبض الجنوح، والمروق والخروج على السلطة.

كان يريد سماع أخبار التمرد، أخبار القادمين للالتحاق بثورة الجنوب، والذين في طريقهم إليها. أو الشباب الذين على انتظار في محطة وسطية بنية الوصول والالتحاق بالثوار. تجربة الطريق الشاق الذي يؤدي به إلى المكان الذي ستعلن منه الثورة ويقرأ فيه البيان الأول تهزه من الأعماق. إنه التاريخ حيث سيتابع العالم أخبارهم بشغف. سيكون في الخنادق مع بندقيته، قطعة خبز صغيرة، وربما مع استكان شاي أسود مُحلّى بالسكر.

* * *

ميسون كانت تتابع أخبار الشباب الذين يلتحقون سراً بالثورة. كانت تتابع أخبارهم بشغف. لم تعد تذهب إلى الجامعة كثيرا منذ سجنها والتحقيق معها. وعند ذهابها للجامعة، فهي من أجل أن تتابع أخبارهم

فقط. كانت تدرك أن لقاءاتها مع الرفاق السريين تكسبها قوة، ومن شأنها أن تحقق لها متعة كبيرة. متعة سوف تعتاش عليها أياماً كثيرة وهي تقرأ في حجرتها وتحلم بالتغيير والحرية.

هل التحقت بالتمرد معه؟

على الأرجح كانا قد التقيا في الجامعة (تقرير المخابرات لا يذكر هذا) الشاب بعينيه الواسعتين، بوجهه النحيف، بلحيته الخفيفة، بنظارته الدائرية، بقميصه الأبيض المفتوح ـ يمكنني تخيله شبهاً بالشاعر بايرون أو بيرس شللي ـ كان قد تعرف عليها في منزل أحد الرفاق في حي المنصور الراقي في بغداد، وقد شعرت من الوهلة الأولى، أن هذا المتمرد لم يترعرع في منزل فقير، إنما من عائلة برجوازية، وقد قومته حياته الهانئة ليكون بعيداً جداً عن الابتذال والتعصب.

كان يحيي النساء بتحية واثقة، يتكلم بهدوء وبلكنة راقية إلى الرفيق الذي يقف إلى جانبه. وقد تبرع بكرسيه إلى فتاة قد دخلت ولم تجد لها مكاناً كي تجلس! فوقفت ميسون إزاءه لتكلمه، وتشرب معه كأساً من البيرة. وربما وجدتها فرصة ذهبية أيضا أن تقف أمامه، منفردين وحيدين وجهاً الى وجه. فهذه الطريقة هي أفضل طريقة لمحادثته بعيداً عن الآذان التي تريد أن تسمع ماذا يتحدثان، حيث يجلسان ويحيط بهما الآخرون.

* * *

لقد بذلت ميسون جهداً كبيراً لتكون على مثال هو يريده ويرغب فيه، وحين سمعت التحاقه بالثوار، تخفت يومين خارج منزلها، ثم تمكنت من الهرب والوصول إلى خنادق الثورة. وقد استقبلها هو وأمام أعين الرفاق بقبلة حارة جعلت شفتيها الناعمتين مكتنزتين وبلون عميق أيضاً. وقد

قابلها الرفاق ذلك الوقت بابتسامات مختلفة، لم يكن أحد منهم يعتقد بقدرتها على الصمود في خنادق الثورة والحياة الصعبة، وكانت حياتها الأنيقة السابقة تجبرها على الكلام المهذب والسير بصورة هادئة بين الأوكار السرية مما أكسبها احتراماً لائقاً من الفلاحين ذلك الوقت.

لقد عاشت تجربة هائلة، تجربة التحول، الخلاص، الأمل. وقد تجسدت هذه التحولات في بدنها على شكل رعشات متعددة ومتكررة. ذلك أنها استطاعت أن تقهر هذا الخوف المزروع فيها، ومع أنها كانت تظن أن الخجل هو شيء مزمنٌ لا شفاء منه إلا أنها قهرته. لقد ضاقت بحياة السلم المعقمة التي يلبس فيها الجميع أقنعة كاذبة، متغيرة وعابرة واستبدلتها بروح الثورة الصادقة، حيث كل واحد يرى الآخر من خلف زجاج شفاف أما الأنياب التي تنشب في اللحم من قبل الآخرين، فقد جعلتها الثورة لا تشعر بها، مثل القديسة التي تضحك بالرغم من اسلاك الجمر التي شدت على حلمتيها.

ميسون وأحمد في الأهوار

هكذا إذن بدأت الثورة. ساعتها دقت. ميسون وأحمد بملابس كاكية في الصباح يصنعان الشاي في كتلي يضعانه على نار أشعلاها في أغصان شجر يابس. كان الهور هادئا ساكناً، ما خلا بضعة طيور تحط على مقربة منهم وقارب فلاحين ينحدر في العمق مع فالاتهم لصيد السمك.

ناولها سيجارة ووضع في فمه سيجارة أخرى. تحسس بندقيته وعد رصاصاتها. كانت أسلحتهم قليلة وعتادهم قليل، وليس لهم سوى مجموعة من القوارب التي اشتروها من الفلاحين. وكان يمكنهم سرقة قوارب أخرى ولكن هذا الأمر سيفضح العمل السري وسوف يعقد الصراع هناك. وقد شرح أحمد الأمر لميسون على النحو التالي:

ـ إنّ فكرة الرفيق خالد قائد المجموعة جاءت بالأساس من نقد النظرية الماركسية التقليدية باعتماد الثورة على العمال في المدن، وهو الذي أخر التغيير كثيراً، الآن الأمر مختلف، التغيير يأتي من الريف ويزحف إلى المدن.

هزت ميسون رأسها موافقة وابتسمت له.

* * *

إنّ المهم بالنسبة للشباب في وحدات الكفاح الشعبي المسلح، وهو المصطلح الذي أطلقه الحزب الشيوعي غير الرسمي ذلك الوقت على هذه

المجموعة، هو العمل الثوري حتى ولو بأسلحة ضئيلة جداً ودون مئونة احتياطية تذكر. هكذا هو العمل الثوري، لا يمنعهم أي عائق عن ممارسته، وهكذا بعد أيام بدأت العمليات الثورية.

لقد اشترك أحمد وميسون في أول عملية عسكرية، وهي اقتحام ربية للشرطة، وقاموا بأسر جميع أفرادها. لقد نُفذت العملية بحماس كامل في الفجر، وحين عادا كانت ميسون سعيدة بما قامت به، وكانت سعيدة أيضا بملابسها الكاكية، وبيريتها التي حاكت في مقدمتها نجمة حمراء فأضحت شبيهة بجيفارا.

ثم اندفعت المجموعة المسلحة لاحتلال مركز الشرطة في المنطقة القريبة من ناحية الدواية في هور (الغموكة) في قضاء الشطرة وقد تمت العملية بنجاح بالغ دون خسائر، وتم أسر جميع أفراد ومسؤوليّ المركز، وتم الاستيلاء على أسلحتهم التي قدرت بخمسين قطعة.

صاحت ميسون على رفيق لها وهي تصوب رشاشها نحو الأسرى الذي وضعوا أيديهم على رؤوسهم مستسلمين لهذه الفتاة الجميلة بملابسها الكاكية والتي تتصدر الغارة.

ـ لا تعتدي على الأسرى لأنهم لم يبدوا أية مقاومة.

ثم قام أحمد بشرح أهداف جبهة الكفاح الشعبي للأسرى من الشرطة بالعبارات التالية:

ـ الجبهة لا تعاديكم، إنها لا تعادي أفراد الشرطة والجنود من الطبقات الفقيرة، وإّن هدفها تحرير البلد من حكم العملاء والرجعيين وضمان الأرض للفلاحين، وإنفاق موارد العراق الكبيرة لإسعاد الشعب بدلا من استعمالها لمحاربته.

* * *

من رسالة بعثها أحمد سعيد إلى أحد رفاقه:

«عمل عظيم أن نسمع النشيد الأممي الذي يصعد إلى السماء مع طيور السمان التي تدور على أعلامنا التي ترفرف. وعلى دخان سمك الشبوط الذي نشويه غداء للثوار. وعلى صوت البنادق الروسية الصنع، وتكتكات الطابعات التي تطبع المنشورات. عمل عظيم أن نسمع النشيد الأممي وهو يصدح من حناجرنا إلى أعلى. وفي دمنا تصعد فورة الأخوة في النضال. هذا الرباط المقدس هو الذي جعلنا ننتصر على القوات الحكومية».



انسحبت المجموعة الثورية ومعهم الأسرى وقطع السلاح التي غنموها. وفي طريق العودة ضل الدليل طريقه. فدخلوا هوراً آخر، ثم وجدوا أنفسهم عالقين في مناطق مكشوفة ليس فيها الكثير من القصب والبردي. كانت ليلة رطبة، مع أنها كانت في فصل الصيف في حزيران. وقد أمضوا الليل يتخبطون في الأهوار دون أن يجدوا القاعدة التي انطلقوا منها، وقد وضعت ميسون رأسها على كتف أحمد وغفت. بينما ظل هو يترقب الصباح، حتى طلعت الشمس، فأدرك الممر المائي الذي جرت فيه العمليات المذكورة، وبينما هم عائدون، أيقظ ميسون:

ـ ميسون استيقظي، أظن نحن في كمين.

لقد شعر أنهم تعرضوا لانكشاف الشرطة، وبعد خمسين ياردة انفتحت النيران عليهم من كل صوب.

هبط أحمد وميسون وخالد قائد المجموعة من الزوارق إلى الأرض، وتبعهم الرفاق، ودارت معركة كبيرة بينهم وبين الشرطة. وبعد نصف ساعة من القتال، انسحبت مجموعة الشرطة هاربة أمامهم.

نصحهم أحمد بالعودة إلى الزوارق والاندفاع عميقاً، إلا أنّ قائد المجموعة أصر على ملاحقة الشرطة إما أسرهم أو قتلهم.

- أيها الرفيق أنصحك بالانسحاب عبر الزوارق إلى القاعدة.

- لا أيها الرفيق هذه فرصة كبيرة لنا لأسر هذه المجموعة أيضاً... فعددهم ليس كبيراً..

- ولكني أخشى أن يكون كميناً...

- لا أظن... كما إننا بحاجة إلى الأسلحة التي بحوزتهم.

- وماذا لو كانت هنالك أعداد أخرى؟

- لا أظن ذلك... علينا الترجل وملاحقتهم... وإذا وجدناهم أكثر عدداً منا سننسحب!

- إذن علينا أن نترك مجموعة هنا لتحمي ظهرنا... ماذا لو أطبقوا علينا من الخلف؟

- هذه توهمات أيها الرفيق...

تهيأت المجموعة واندفعت إلى اليابسة. كانت ميسون تقاتل إلى جانب أحمد. وفي المقدمة اندفع القائد الذي جاء من بريطانيا من أجل هذه المهمة. لقد كان يعمل فيما مضى سكرتيرا للفيلسوف البريطاني برتراند راسل، إلا أنه ترك العمل معه وأخذ ينظم الخلايا الثورية ليشعل الثورة في الأهوار.

* * *

المشكلة إن هذا الخطأ العسكري التكتيكي حدث بسبب قلة الخبرة العسكرية، فلم يكن في الخلايا الثورية العراقية ذلك الوقت

ضباط أركان، أو خبراء عسكريون ولا محترفو قتال حرب العصابات. كان أكثرهم من الطلاب.

وهكذا بعد مئتي متر من القتال وجد الثوار أنفسهم محاصرين من قبل جيش كامل. كانت ساحة معركة حقيقية، آليات عسكرية، دبابات برمائية، طائرات هليوكوبتر.

ـ قاوموا أيها الرفاق... صرخ قائد المجموعة الذي جاءته صلية من الرصاص اخترقت صدره ورقبته. ثم قتل اثنان آخران. سقطت طائرة هليكوبتر. حيث وجد أحمد وميسون أن المعركة غير متكافئة، فطلب أحمد من المجموعة الانسحاب إلا أنها حوصرت من جميع الجهات.

هروب

استطاع أحمد البقاء مع ميسون أربعة أيام في أحراش القصب والبردي في هور الغموكة جنوب العراق. ليل رطب طويل ودامس كأنه أبدي، وصباح مشرق صيفي يطل مثل آخر صباح يعانق العالم. شمس تنتشر على الأرض والشجر والماء والأسماك والطيور تحيل العالم إلى مسرح. كلاهما بين أحراش كثيفة يسمعان الجداجد في الليل وصفير الطيور الغريبة المهاجرة من جنوب روسيا والمناطق الباردة صباحاً. وقد أدركا هنالك أن المجموعة الثورية كلها قد أسرت أو قتلت على يد القوات الحكومية، إلا هما:

ميسون شيء من اللأبالية والشعور بالعبث أصابها، أما هو فلم يكن غير جرح طفيف أصاب كتفه لف عليه شاشاً أبيض أخرجه من جعبته العسكرية التي حملها على ظهره.

بعد أيام أصبحا في منزل أحد الفلاحين الذي قدم لأحمد وميسون ملابس قروية، وفي صباح يوم جمعة قال الفلاح لأحمد أن الشرطة تمشط البيوت بحثاً عنهما، ومن الأفضل أن يذهبا بسيارة بيكب تحمل سلال التمر لبيعها في بغداد، وهذه السيارات في الغالب لا تفتش من قبل الشرطة.

استقل أحمد وميسون السيارة. صعدت ميسون بالجرغد والعباءة القروية بينما ارتدى أحمد الدشداشة البيضاء والعقال، وجلس في المؤخرة.

أوصلتهما البك آب الزرقاء موديل الستينات إلى العاصمة، وهنالك تخفيا في أحد الأوكار الحزبية الواقع في منطقة الكرادة. غير أن المكان لم يكن أميناً جداً، حيث شعر بأنه مراقب.

في يوم خرجت ميسون ولم تعد، وقد انتظرها أحمد حتى الصباح فلم تعد، عندها شك في الأمر. لا بد أنها قد ألقي القبض عليها. كان متأكداً من أنها لن توشي به، ولكن ربما سيتتبعون طريقها وسيتوصلون حتماً إلى هذا المكان. عندها قرر قراراً حاسماً بالهرب من الوكر قبل حلول الظهيرة.

وقد هرب فعلاً باحثاً عن مأوى آخر، ولم يكذب الخبر فقد اقتحم الوكر بعد ساعة واحدة فقط من مغادرته.

* * *

كل الوثائق تقول أنّ ميسون أودعت السجن، وبالرغم من التعذيب الوحشي الذي تلقته على يد سجانيها إلا أنها لم تعترف عليه. أما هو فقد تخفى شهراً أو شهرين حتى أصبح لديه جواز سفر مزور، واسم آخر غير اسمه، عندها تابع رحلته إلى دمشق.

* * *

نحن الآن في العام 1969 وقبل ثورة البعث في العراق في تموز بشهر واحد فقط، استقل أحمد باص النيرن الذاهب من بغداد إلى دمشق. لم يشك أحد بهيئته. عرف كيف يخفي نفسه بين المسافرين، ارتدى زياً برجوازياً، وكأنه أحد أبناء تجار سوق الشورجة الذين يذهبون عادة إلى سوريا في الصيف. حين صعد السيارة تلفّت بحذر من خلف نظارة سوداء كبيرة. وقد ترك شعره يغطي جبينه. هزّ الضابط رأسه عندما رآه، نظر

في جوازه مليّاً، أخذ يدقّق مقارناً بين الصورة المثبتة في الجواز وهيئته الجديدة. وتساءل أحمد في نفسه:

«ماذا لو كان الضابط قد احتفظ إلى الآن بالصحيفة الرسمية التي نشرت صور المطلوبين. أو إن صورته وهي ذاتها التي في جوازه قد وزعتها السلطات على نقاط التفتيش».

لكنه الآن، وهو بهذه الهيئة لا يمكن لأحد التعرف عليه. لقد هبط الشعر على الجبين مثل قصة شعر فريق البيتلز. وارتدى نظارة سوداء خلعها أمام الضابط وارتدى نظارة دائرية تشبه نظارة جون لينون. ولذلك احتار الضابط بين الصورة المثبتة في الجواز وبين هيئة هذا الشاب الذي أمامه.

غير أن الشباب، هكذا فهم، يغيرون شكلهم كل عام، بينما صورة الجواز تتغير كل خمسة أعوام.

سلمه الضابط الجواز وعاد أحمد ليصعد في سيارة النيرن، حين جلس على الكرسي، أراح ظهره وتنفس الصعداء.

* * *

في دمشق سكن في فندق صغير يقع في شارع فرعي يؤدي إلى ساحة المرجة. تساءل بعض الثوريين هناك عن هذا الشاب الذي هبطت خصلات شعره على جبينه وما يفعله في هذه المدينة. على الأرجح أن هذا الثوري الذي جاء إلى دمشق لن يستطيع البقاء طويلاً في المدينة. وإن كان قد حصل على الإقامة إلا أنه سرعان ما اتصل بمنظمة التحرير الفلسطينية، وقد طلب نقله إلى معسكر للتدريب، أو لأحدى القواعد هناك، إلا أن طلبه تأخر.

تعرفه على إيلين الراهب

من الواضح أن أحمد أدمن العلاقات مع الثوريات، إنه لا يستطيع أن يتعاطى العواطف والحب مع الفتيات الرخوات الهشات المتنعمات أو البرجوازيات، وهكذا فإن مسيرته العاطفية تسير على الدوام بالتطابق مع الثورة. فهو لا يرى الثورة والمرأة كائنين منفصلين، إنما هما كيان واحد. في ثورة الأهوار للعام 1968 كانت ميسون عبد اللّه... وفي دمشق كانت إيلين الراهب.

وهكذا كل ثورة تفتح في حياته باباً للمرأة وكل امرأة تفتح فيه باباً للثورة.

(ومع أن هذه المعلومة كانت جديدة نسبياً بالنسبة لي. ذلك أني درجت على تخيل أحمد على الدوام مع ميسون، لكن الأمر تغير فجأة! وأنا أقلب الأوراق وأدون وأشرب الويسكي بمكعبات الثلج واحداً بعد آخر).

ولكن كيف تعرف إليها:

في مساء دمشقي رائق وعلى أنغام موسيقى هادئة في منزل أحد الشيوعيين، التقى مجموعة من الكتاب من جيله: حيدر حيدر، سعد اللّه ونوس، وممدوح عدوان، وكانت معهم إيلين الراهب.

إيلين شيوعية سورية تدرس في روسيا وقد عادت لبضعة أيام

إلى دمشق. انبهر بها. مظهر دلّ على نعمة، بشرة فاتحة، شعر أسود مقصوص على موضة تلك الأيام. تحركت فيه مشاعر قوية تجاهها. احتله في البداية الفضول لمعرفة أكبر. ابتهج من الكلام معها وهو يمسك كأس العرق بيده ويشرب. سرت البهجة بدورها في جميع الحاضرين. دار همسٌ بين المدعوين حول علاقة خاصة سوف تنسج بينهما. دعاها لزيارته في اليوم التالي.

إيلين أعجبت إعجاباً شديداً به، بسبب ثوريته، فقد وجدت اليساريين العرب أوطئ عبقرية، فهم يفضلون السجون على الخنادق، والاعتقال على القتال، هكذا وجدت هذه الفتاة المتحمسة والفائرة ضالتها به. هذه النقطة كانت مثار اختلاف بين الشيوعيين ذلك الوقت:

هل يتم تحقيق العدالة الاجتماعية بوساطة الثورة أم عن طريق النضال السلمي.

اعتاد أصدقاؤها لومها لقلة صبرها، وتسرعها. بينما هي لم تكن تحتمل أن يضبط أحد ساعتها في الحب أو بوصلتها. اندفعت نحوه بقوة. بوله. بشغف. فبالرغم من ثقافتها الماركسية المتصلبة، ومن نبرتها الطفولية العفوية والمتهورة، بالرغم من لكنتها الغريبة عليه نوعاً ما، رأى فيها أجمل علاقة يمكن لها أن تنشأ مع عراقي، ثوري، أسمر، متحمس ومندفع.

الحب العظيم قالت يوماً لأصدقائها، هو حينما يحدث بين عراقي وسورية... شي كتير مهضوم كتير سكسي.

لقد غيرت تلك الأيام حتى شكلها وملابسها. قصت شعرها قصيرا جداً، ما خلا مقدمة رأسها حيث نثرت خصلات سوداً منه على وجهها. أخذت ترتدي ملابس عملية من الجينز، والتنورات القصيرة، والأحذية ذات الرباط العالي. وتضع على رقبتها إيشارباً أحمر على طريقة الثوريات

الألمانيات والإيطاليات. من جانبه رأى فيها كل ما يطمح به من فتاة ثورية يحبها، وتتوافق مع آرائه في عمليات التغيير الثوري والعنف المسلح. بل رآها أحياناً أكثر اندفاعاً منه.

مع ذلك لم يحاول تهدئتها بل بالعكس، حاول تغذيتها بكل مصل من شأنه أن يدفعها لخطوة عملية من هذا النوع. لقد فكرا في البداية بخطف طائرة، ثم بأخذ رهينة، وثالثة بعمل مسلح ضد إحدى السفارات الأجنبية. وحينما درسا الجدوى من هذه الأعمال، قررا الالتحاق بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

* * *

لقد اقترب أحمد في تلك الفترة من يقينه الكامل بالأفكار الشيوعية، كان قد قرأ تروتسكي في تلك الفترة جيداً. وقد اقترب من إيلين التي مدته بخبراتها المنهجية في قراءة الماركسية بالفضاء، والأفكار، والتجربة. لقد شعر في تلك المرحلة من حياته أنه أشبه بمسافر في صالة انتظار، تأتي الأفكار إلى ذهنه وسرعان ما يتخلى عنها. كان يبحث عن التجربة العملية، الثورة ليست أفكاراً في الكتب، هي روح عمل، وممارسة، وهكذا كانت أول تجربة له بعد ثورة الأهوار هي دخوله إلى الأردن ومشاركته في حرب الأردنيين والفدائيين الفلسطينيين في أيلول الأسود.

كان الفلسطينيون القاطنون في مخيمات الأردن يتمردون على السلطة الأردنية، وقد بدءوا التحضيرات لحرب شاملة، غير أن الجيش الأردني اجتاح المخيمات وقام بمجازر عديدة. وقد التحق بالفدائيين الكثير من الثوار ولا سيما من العراقيين والسوريين واللبنانيين.

* * *

دخل عمّان في صيف العام 1970 في شهر آب تحديداً، قبيل اجتياح المخيمات. دخل من سوريا دون أن يمر على ضابط جوازات أو حدود، لقد كان المسلحون الفلسطينيون يسيطرون على مداخل ومخارج البلاد. ومن الثابت في كل الوثائق التي في حوزتي أنه دخل بهوية مزورة، وإيلين هي الأخرى دخلت بهوية مزورة. لقد قطنا في البداية في مخيم البقعة عند سيدة تنتمي تنظيمياً هي وزوجها للجبهة. الشوارع موحلة فيها ألاف أعقاب السجائر المقذوفة إلى الأرض. وجوه الرجال تملؤها التجاعيد، والنساء يثرن الشفقة وهن يدفعن العربات التي تحمل الأطفال وأكياس الرز للتهيئة قبل المعركة.

ثم انتقل كلاهما لوكر عسكري ويعد مركز عمليات وسيطرة وإعداد خطط في مخيم الوحدات في عمّان. مكان لا يمكن أن يتخيله في أمكنة أخرى من العالم، أو هو يشبه أمكنة أخرى يألفها، مثل الوكر الذي تخبأ به عندما عاد من الناصرية إلى بغداد.

كان المكان مزدحماً:

طابعة رونيو، أسلحة رشاشة، مخازن عتاد، قنابل يدوية، خمسة أسرة يشاركهم السكن ثلاثة فلسطينيين، ويحرسه من الخارج رجل له وجه هرم ومعطف ثخين، بينا المطبخ أثقله زيت العودام وفتائل دخان اللمبات النفطية، والسقف مسود طبقة على طبقة.

في الوكر كانت الحياة ذاويه، والترقب قبل اندلاع الحرب الكبرى قاتلاً. أخذت إيلين تقص شعرها بالمقص كلما تطول الخصلات الأمامية منه. كانت المتمردة لا تعجبها خصلات شعرها المتمردة، ومع ذلك فهي لا تقنط حينما تنظر إلى وجهها في المرآة حيث بدأت الغضون بالظهور في الجبين والوجه، وفي هذا المكان الفقير الذي يخلو من السيدات سواها

ليس هنالك سوى طاسة ماء ومرآة مكسورة ومشط. أما أحمد فقد كان سعيداً بحياة القحط هذه، وعلينا أن نسجل هنا أنّ اختلافها عن أحمد لم يكن مجرد اختلاف، بل سبب كل ما اندفعت تجاهه في حياتها. عداه فأحمد وإيلين لا يختلفان عن بعضهما كثيراً، لكنها تعلمت منه الرغبة في الوصول إلى حافة الأشياء.

كانت الحياة في هذا المركز مألوفة لديه، لم يكن الأمر غريباً عليه بالمرة، وهو شيء معكوس بالنسبة لأيلين التي لم تكن معتادة على هكذا أمر. وكان الأدهى هو نظرة الآخرين لهما من كونهما عاشقين خارج مؤسسة الزواج، فقد جاءهما أحد الرفاق وحذرهما من تقبيل ومعانقة بعضهما أمام الجميع، حيث كانت عيون الرفاق تلتقي ببعضها مستهجنة هكذا تصرفات.

على العموم كان أحمد وإيلين يستغربان أن تكون هنالك ثورة من دون فكرة الحريات، وفي قلب هذه الحريات هي الحرية الجنسية. كانت أفكار ثورة الطلاب في أوربا ما زالت ماثلة أمام أعينهم، وهم كانوا من النخب العربية التي تأثرت لا بثورات أميركا اللاتينية وحسب إنما بثورات الطلاب في باريس وروما ولندن. وكانوا ذلك الوقت ممن يسمعون أغاني البيتلز ويرتدون الملابس القريبة من الهيبز، ولكن أكثر ما كان يزعجهم هو أن تكون هنالك ثورة ولكنها فقيرة في هذا الملمح.

* * *

من اللحظات النادرة التي عاشها أحمد وإيلين سواء في القواعد أو في الأوكار هي تنقل جان جينيه في المخيمات وهو يكتب كتابه أسير عاشق عن الثورة الفلسطينية وعن الفدائيين في المخيمات، حيث ورد اسم أحمد وإيلين عدة مرات. وقد التقياه مرات ومرات في مخيم

البقعة وفي الوحدات وفي عجلون عندما خرج أحمد من الحرب وحيدا ماراً بالجنود الأردنيين البدو وهم يطلقون الرصاص على الفدائيين بين عجلون والحدود السورية.

* * *

من الثابت أن ميسون التي أطلق سراحها في بغداد قد التحقت هي الأخرى بقواعد الفدائيين في الأردن دفاعاً عن الثورة. وأثناء القتال وقصف المخيمات والقواعد قد التقت وجوه كثيرة والتقت عيون كثيرة، والتقت أجساد أيضاً. ولكن هل التقيا؟

لعل أحمد مر بها بين جموع الرفيقات والرفاق العراقيين الملتحقين بالثورة. ربما رأته ميسون أيضاً بين جموع الفدائيين الذاهبين للقتال إلا أنها لم تتعرف عليه. لحيته كثّة تغطي نصف وجهه، شكله أصبح أكثر قسوة من السابق، منذ أن ترك بلاده لم يعد ينام على أسرة وثيرة، وأصبحت ابتسامته اليائسة الشيء الوحيد الذي يلوح على محياه ويدلل أنه ما زال حياً.

عمّان فداحة الخسارة

المعلومات التي تخص قتالهما في عمّان شحيحة، ولكن من الثابت أنهما قاتلا في أمكنة متعددة ذلك الوقت، ومنذ أن اتُخذ قرار الحرب وشنّ الجيش الأردني بدباباته ومصفحاته الهجوم مرة واحدة على جميع المخيمات الفلسطينية.

فقد قاتلا قتالاً عنيفاً في مخيم الوحدات قبل انسحابهما إلى القاعدة المطلّة على مخيم البقعة، وبعد ساعات فقط تم اجتياح المخيم، بل تم اجتياح الوكر وتم قتل جميع من فيه. وقد وصلا قاعدة الفدائيين شمال البقعة مساء، في سيارة جيب فلتت من دورية أردنية بأعجوبة. وكان مخيم البقعة هو الآخر قد اجتاحته الدبابات الأردنية ونفذت فيه مجزرة بحق الفدائيين، إلا أنّ هذه الدبابات لم تصل القاعدة بعد مع أنها كانت تقصف ليلاً ونهاراً.

وصلا تحت القصف، ودخلا قاعة مغطاة بأكياس الرمل والحشائش، لم تكن هنالك كهرباء ولا ماء، غير أن بعض الرفاق كانوا يشوون اللحم على نار المدفئة، فناولهما بعضاً من اللحم والخبز فقد كانا جائعين جداً. لم يناما غير ساعتين فقط، متغطيين ببطانية عسكرية واحدة من دون سرير بل وضعا ظهريهما متكئين على الجدار ومتعانقين، حين أيقضهما أحد الرفاق طالباً منهما التهيؤ للاشتراك بعملية هجوم على الجيش الأردني الذي اجتاح المخيم.

* * *

لقد اشتركا بغارات عديدة ضد الجيش الأردني ذلك الوقت. من القاعدة القريبة من المخيم قبل اجتياحها وانتقالهما إلى عجلون. ومن ثم انتقالهما إلى أماكن متفرقة في الأردن حسب الموقف العسكري الذي كان يتغير على الدوام.

ولكن الحدث الأكبر هو القتال في أحراش جرش. فبعد أن تم اجتياح جميع المخيمات أُبرمت اتفاقية لإخراج جميع الفدائيين من عمّان وحصرهم في أحراش جرش، وبعد هذا الانتقال حاصرتهم الدبابات وتم سحقهم بوحشية.

* * *

قاتل أحمد أربعة أيام متتالية قبل أن تصاب إيلين الراهب وهي إلى جانبه برصاصة اخترقت صدرها. سقطت بندقيتها من يدها وتهاوت مثل شجرة تنوب ضخمة فوق أكياس الرمل في الخندق. تلكأ قبل أن يحملها على كتفه ويخرج بها من الخندق. تلطخت يداه وقميصه الكاكي بدمها وهو يحملها من الخطوط الأمامية ويزحف بها إلى المفرزة الطبية. حين طرحها على الأرض رأى الثقب نافذا يتدفق الدم منه، عيناها غائمتان، ووجهها شاحب. عرف أنها تموت، عرف أن روحها تفارقها، وقف دقائق قبل أن تفيض روحها وهي تمسك يده بقوة ومن ثم ترتخي.

* * *

من الواضح أن أحمد تم أسره بعد مقتل إيلين، لا أحد يثبت بالضبط المكان الحقيقي للأسر، البعض يقول أُسر في جرش، وآخرون يقولون أنه تم أسره في عجلون، ولكن يقال أيضا أن اجتياح القاعدة بالدبابات العسكرية ونفاذ الذخيرة وراء أسره، وتم نقله مباشرة إلى موقع للجيش الأردني بالقرب من السلط شمال عمان.

في الموقع كانت إيديه موثوقة. يجثو على ركبتيه مع مجموعة من الفلسطينيين الجاثين أيضاً ينتظرون حملهم بالسيارات إلى السجن. وقد مددوا أمامهم أكثر من مئة جثة من الفلسطينيين والأردنيين كانت حصيلة القتال ذلك اليوم. فقد حدث اشتباك هو الأعنف منذ بدء الحرب بينهما أدى الى اختلاط جثثهم مع بعض. فتم تجميعهم في رحبة العجلات، وطلب القائد من أحد الضباط الأردنيين أن يحصي عدد القتلى ويميزهم عن بعض.

كان من الصعب عليه أن يميز الفلسطينيين عن الأردنيين من وجوههم فهم يتشابهون إلى حد بعيد، ما كان يميزهم عن بعضهم هي البساطير العسكرية التي كانوا يرتدونها. فكانت بساطير الأردنيين إنجليزية بينما بساطير الفلسطينيين بلجيكية. وهكذا أخذ الضابط يحصي الفلسطينيين، يضرب بقدمه على بسطار القتيل ويقول:

واحد بلجيكي... اثنين بلجيكي.... ثلاثة بلجيكي... أربعة بلجيكي... حتى أحصى سبعين فلسطينياً، وسماهم بالبلجيكيين، أي الذين يرتدون بساطير بلجيكية. ويؤكد تقرير المخابرات المركزية الأميركية الذي عثرت عليه في مكتبة الكونغرس هذه الحادثة، وينص أيضا أن تسمية الفلسطينيين بالبلجيكيين في الأردن جاءت من هذه الحادثة التي أشاعها أحمد فيما بعض إلى الصحافة العالمية.

* * *

من الثابت أن أحمد أثناء نقله من هذا الموقع إلى السجن قد هرب من السيارة التي تنقله، يقال أنّه فك وثاقه ورمى نفسه من السيارة، وقد أطلق عليه الجنود عدداً من الأعيرة النارية، وقد تظاهر لهم بأنه قد أصيب، وهكذا سارت القافلة خوفاً من أن تقف في الطريق، ولسبب ما سيحدث تمرد بين الأسرى أو تحدث فوضى، وعندها يهرب عدد أكبر منهم.

حين رأى أحمد القافلة وقد سارت من دونه، ابتهج قليلاً، شعر بأنه نجا، ثم عاد قافلاً وحيداً باحثاً عن سبل جديدة للنجاة، فاتخذ السبل الصحراوية ظناً منه أن سيتمكن وحده من الوصول إلى مكان من الحدود السورية. وقد ابتسم له الحظ حين تعرف على دورية فلسطينية قريباً من السلط، فأوقفها، عندها أقلته إلى موقع للفدائيين يقع على مقربة من الحدود السورية، بالقرب من إربد، لم يكن هذا الموقع قد اقتحم بعد، وذلك لتواجد كثيف للجيش السوري من أجل حماية الفدائيين.

* * *

حين وصل كان الليل في منتصفه، ومن شدة تعبه نام تحت جملون كبير مصنوع من الألمنيوم، وفي الصباح انسحب مع انسحاب عدد من قطعات الجيش السوري التي اشتركت في القتال ذلك الوقت إلى جانب الفلسطينيين، وعاد بعد أيام إلى دمشق.

* * *

للمرة الأولى منذ دخوله عمّان، جلس أحمد وحيداً من دون إيلين. حينها فقط شعر وللمرة الأولى بالوحدة القاتلة.

الانتقال إلى لبنان

عاد إلى دمشق. كان ذلك في المساء في موعد إقفال المحلات في المدينة، ذهب إلى البار في باب توما لم يجد أحداً من أصدقائه هناك. عاد إلى حجرته في الفندق وحيداً. كان زبائن الفندق يعودون في الليل إلى أسرّة نومهم. بالنسبة له لم يعد يتقيد بالالتزام البليد بموعد النوم فهو يحب أن يكون صاحياً، يحب المدن التي لا تنام.

خرج من الفندق منتصف الليل وهام على وجهه حتى الصباح في شوارع دمشق. بين جسر فكتوريا والقصاع دار عشرات المرات حتى أشرق الصباح على يوم جديد، ولم ينفك أو يتراخ تفكيره بإيلين. أو التفكير بمصيره هنا في دمشق من دونها.

رأى الشمس وهي تشرق ببطء شديد وتنثر أشعتها الذهبية على المنازل القديمة حيث يكلل الواجهات شجر الياسمين. رأى المنازل ينيرها نور أول الصباح والموظفون والعمال يخرجون إلى أعمالهم. القطط وهي تأكل من المزابل، الكلاب السائبة وهي تسوح في كل مكان، السيارات التي بدأت حركتها مالئة الطرقات.

الشيء الوحيد الذي شعر به تلك اللحظة أنه لا يستطيع العودة إلى الفندق، لا يريد أن ينام، لا يريد أن يكون وحيداً. ولكن ماذا يصنع؟ دمشق تغيرت عليه، لا يمكن العيش هنا من دون إيلين. إذن يجب الرحيل إلى مكان آخر.

في مقهى هافانا القريب من جسر فكتوريا، جلس ليشرب القهوة، وفي تلك اللحظة قرر الذهاب إلى لبنان.

* * *

مع ذلك كل الدلائل تقول أنّه لم يرحل مباشرة إلى بيروت حيث عاش مرحلة من مراحل السبعينيات هناك. إنما تأخر تنفيذ هذا القرار عاماً كاملاً، أو عاماً ونصف، تنقل خلالها بين دمشق والسويداء مركز الدروز في البلاد، حيث تعرف على جماعة ماركسية هناك.

غير أنّ الحياة السورية علمته نوعاً من الرخاء السلبي (من الناحية الثورية)، ولا سيما بعد انتقاله للعيش في جبل الدروز جنب رفاقه الماركسيين. حيث شرب العرق السوري يومياً وأكل الحمص، والفلافل والمناقيش، والجبنة العكاوي، واللبن المدحبر، والزيتون، والزعتر مع الحديث النظري عن الماركسية وأشكال العمل الثوري وما قاله ماركس ولينين وتروتسكي عن أشكال التنظيم الحزبي. كل هذا كان مجتمعاً مع علاقة حب مع فتاة اسمها نادية أكبر منه بعامين، كان يحضر كل مساء في منزلها حفلة يحييها أصدقاء فنانون هواة على أنغام العود والكمان والغناء الشعبي.

* * *

الحديث النظري الذي لا علاقة له بالواقع كان رائعاً، كان مثلاً مشغولاً بموقف البلاشفة القدماء من أمثال كامينيف وزينوفييف في العام 1917 من حكومة كيرنسكي. وكان يفكر وهو في السويداء بين كؤوس العرق والزيتون والكبة النية كيف انكسر الرفاق في الحزب البلشفي وانتقلوا الى معسكر الانتهازية مع المناشفة في القرن الماضي وفي روسيا. كان يشعر ببرد بطرسبورغ وهو في السويداء، وكان يتكلم

عن برتروغراد والنيفا وهذه الأسماء التي لا يعرف عنها أحد أشياء كثيرة كما لو كانت على مقربة أمتار من بيته.

* * *

على العموم المرحلة الثانية من حياته في سوريا كانت رائعة، كانت ثورية لكنها في المنزل، على الهواء البارد الذي يهب عليه من الجبل وهو في أحضان عشيقته الهاوية للماركسية مثله. أما فترة انتقاله إلى بيروت أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، وقتاله مع رفاقه الشيوعيين اللبنانيين المتحالفين مع الفلسطينيين أكدها الكثيرون. ولكن لا تفاصيل كثيرة عنها. على الأرجح أنه انتقل فعلياً إلى بيروت في العام 1974، وقطن في برج حمود لفترة من الزمن. وربما قاتل مع الشيوعيين هناك ولكنه عاد مرة أخرى إلى سوريا وبقي فيها حتى العام 1977. فماذا حدث بعدها.

كل الوثائق تؤكد أنه عاد إلى السويداء مرة أخرى، وشهد ظهور الحلقات الماركسية في سوريا التي أسست رابطة العمل الشيوعي، المنشق عن الحزب الشيوعي الرسمي، والتي رفعت شعار إسقاط النظام في تلك الفترة. وقد تعرضت هذه المجاميع إلى بطش كبير ومن ضمن الذي اعتقلوا وأودعوا السجن صديقته نادية. وهكذا غادر إلى لبنان مرة أخرى.

* * *

في تلك السنوات كان قد اختفى من حياة ميسون.

سنوات لا تُعد بالأيام باعدت بينهما. لم يهدأ لميسون خلالها بال، خشيت أن تفقد نظارتها قل أن تلتق به مرة أخرى. كانت واثقة بأنهما سيلتقيان في بلد غريب، لكن أين ومتى.

يقال أنّها انتقلت إلى لبنان في العام ذاته الذي انتقل فيه إلى أديس أبابا. غير أنها كانت واثقة من أنها ستلتقيه، وقد التقته فعلاً بعد سنوات ولكن في أديس أبابا:

ـ لم يكن الأمر سيئاً زمنٌ غريب، لقاءُ غرباء، لغة أغرب هذه المرة!

من لبنان إلى أثيوبيا

لا أحد يعرف كيف وصل أحمد سعيد إلى لبنان، لا أتكلم هنا عن الوسيلة ولكن تحت أي عنوان.

حين دخل قادماً من الحدود السورية شكت السلطات بأمره. بقي فترة في الحجز ريثما انتهى التحقيق معه. أوراقه مزورة، وهو يجد متعة في المماطلة، أو الامتناع عن الإجابة. ولكنهم في النهاية أطلقوا سراحه. ومن المؤكد، بعد أن تحرر من الحجز التحق بالشيوعيين هناك، وقاتل إلى جانبهم في العام 1974، أي في العام ذاته الذي نظم فيه المجلس الماركسي في أثيوبيا انقلاباً ضد الامبراطور هيلا سيلاسي، وقد سمع به، وربما ابتهج لذلك، ولكنه لم يفكر بالانتقال إلى أثيوبيا إلا في العام 1977، أو في بداية العام 1978.

فمن جهة قد شهد الحملة الوحشية بالاعتقال والسجون ضد رابطة العمل الشيوعي في سوريا، ومن جهة ثانية لم تعجبه طبيعة الصراع والحرب الدائرة في لبنان، فلم ير فيها حربا طبقية! لذلك انتقل إلى أديس أبابا، أثناء تأسيس الجبهة العالمية لقتال الإمبريالية والكولنيالية، والتي ضمت شيوعيين من كل أنحاء العالم.

تقول مجلة الحرية، وهي مجلة شيوعية تصدر في بيروت:

إن أحمد سعيد قد وصل إلى أديس أبابا قبل جميع الثوريين من الشرق الأوسط.

بينما لم يلتحق الصحفي جبر سالم به إلا بداية الثمانينيات، أثناء تعرفه على صحفية شيوعية من أديس أبابا تدعى سوسينا. تصف مجلة الحرية جبر سالم بأنه صحفي مغامر عاش حياة الثوار في الأوكار السرية والمعسكرات. وغطى أكثر المعارك ضراوة في أفريقيا ذلك الوقت. وهو يعيش الآن في أديس أبابا.

* * *

بعد أن كتب جبر تقريره الشهير عن الثوار في أديس أبابا، والذي نقلته الكثير من الصحف العربية في ذلك الوقت، ازداد عدد التقارير عن الثورة، وكان عليّ البحث عن المزيد من الأشياء الأخرى، مع إني وجدت أن جميع التقارير المكتوبة عنهم معتمدة على تقارير جبر أصلاً، وهو يصف الثوار العراقيين في معايشتهم لزمن آخر من شهور الثورة الساخنة في أديس أبابا.

قلت في نفسي:

كل التقارير معتمدة على تقرير جبر، ولكن حفنة التقارير الجديدة ستحسن مزاج الثورة لدى القراء طبعاً!

* * *

يصف تقرير جبر الثوري أحمد سعيد، وهو جالس مع سلاحه برفقة الجرذان في الخنادق، أما المكان فقد كان ضيقاً دون شك وهو يكتب.

ومع ذلك يواصل كتابة قصائده عن الثورة، وحين يعود إلى الفندق

يجد قناني البيرة مكدسة في الحمام، إلى درجة أن لا أحد يستطيع الاستحمام. أما ملابس الثورية ميسون عبدالله فكانت في صندوق كبير للثياب، وسريعاً لم يبق مكان للحمرة وأدوات الماكياج.

في كل مكان هناك كتب، قناني بيرة، ملابس عليها عرق وغبار، أوراق، أجهزة اتصالات، مسدسات، طابعة رونيو، رزم رسائل.

كانوا يتحركون بصعوبة في الحجرة الضيقة في فندق من فنادق أديس أبابا، وهم يسمعون الناس تتكلم عنهم بحذر شديد، وتقول:

ثوار من الشرق الأوسط جاءوا هنا لمساندة الثورة.

هكذا تصبح الأرض نافعة لأن تكون سريراً، صناديق صغيرة من الخردوات تصبح هي السلم، الكوة هي النافذة، ولا متسع إلا الجلوس على الكرسي والطاولة وكتابة التقارير عن الثورة.

تدخل ميسون صارخة:

سأجن! الجرذان والصراصير في كل مكان، بينما تتجرع آلة الرونيو التقارير والمنشورات الثورية.

ثوريون، نعم، إنهم ثوريون: أحمد وجبر وميسون وهنالك الكثير غيرهم وقته، فمن الأسماء التي رحلت إلى أثيوبيا الشاعران مظفر النواب وسعدي يوسف، وكلاهما كتبا قصائد من المكان عن المرحلة.

* * *

كان جبر على خلاف أحمد سعيد... دفعته إلى الثورة ظروف حياته القاسية، المعاملة الظالمة، الأمال الكسيرة، الطموحات الشخصية التي تنتكس بلا رحمة، وبلا أدنى شفقة، إذن لا طريق سوى الثورة.

كان يعرف خطورتها ويدرك مرارتها وقسوتها، ولكن ما يدفعه هو سيرته، وهذه المزقات المدمات من روحه والتي تحفل بآثامه وأفراحه وتشرده.

لقد كان كادحاً حقيقياً أمضى أيامه الأولى في بغداد متنقلاً من عمل الى آخر:

سائق تاكسي، غاسل صحون، حارس كراج، ساعي بريد، عامل في مسلخ بهائم. حتى أصبح الصحفي الثوري، الهارب من السلطة، والمتخفي في الأوكار والبيوت السرية.

وربما كي لا ينتحر، كان يكافح، يضاجع، يشرب، يقرأ كتب لينين وتروتسكي. وما بين سكرتين تقريباً، ما بين سكرة وأخرى، يصل ساحة النضال كي يدافع عن الثورة، كي يقاتل من أجل العلم الأحمر، ومن أجل البروليتاريا. المجد من رأس الثورة إلى قدمها، الرحيل إلى أفريقيا للدفاع عن الثورة هو الهدف. الرحيل هناك، بعد أن هزمتهم الإمبريالية هنا. الثورة انكسرت هنا فلا بد أن تشتعل هناك.

* * *

رحل جبر سالم المتأثر بريجيس دوبريه وكتابه ثورة في الثورة إلى أديس أبابا، التحق بالثوري أحمد سعيد. ثم التحقت به بعد ذلك ميسون عبد اللّه. عاش هذا الثلاثي حياة الثورة العملية، والنقاشات النظرية، وهنالك أيضاً كتابة التقارير الصحفية وكتابة السيرة الثورية للأفراد والمناضلين في الخنادق.

ميسون

لم تتحوّل ميسون عبد اللّه المرأة إلى ميسون عبد اللّه الظاهرة إلاّ بعد صدور مقالة جبر سالم «خبر عن الثورة البعيدة» في العام 1981 في مجلة الطريق اللبنانية، وقد نشأت فيما بعد عنها العديد من السجالات، وكُتِبت العديد من المقالات حول هذه المرأة ـ الظاهرة ـ بين المدافعين عنها والمتهجّمين عليها، بين الذين رفضوا وصفها بـ«الثورية»، والذين تحمّسوا لما اعتبروه منها تصحيحاً للأخطاء وعملاً ثوريّاً جباراً.

لقد برزت ميسون عبد اللّه كرمز للنسويّات الثوريات واللواتي يطالبن بحرية أكبر للمرأة، وعلى المستويات كافة. ومنذ النقاش الإضافي الذي جعل أحد المخرجين العراقيين المقيمين في بولونيا يشرع بإنتاج فيلم سينمائي مقتبس عن المقال، تحولت ميسون عبد اللّه إلى ظاهرة حقيقية في الإعلام اليساري ذلك الوقت، ثم بروزها إلى الواجهة في حروب زيمبابوي والصومال، وهنالك حديث طويل حول إمكانية كتابتها لسيرتها الذاتيّة.

في المقابلة التي أجراها معها جبر سالم هنالك جرأة حقيقية ولا سيما في حديثها عن اغتصابها في السجن. وقد سردت تفاصيل هذا الاغتصاب من كونه برنامجاً سياسياً محدّداً للبعثيين بالضد من الشيوعيين. وهو عرض فج ومباشر لاستخدام السلطة، يعيِّن الحاكم وينظِّم قوانين لعبته السياسية حيث تسمح له بممارسة سلطته دون أيّ قيد.

وبعد هروبها من السجن تسللت إلى دمشق ثم وصلت بيروت، وبعد ذلك لجأت إلى الدعارة لأغراض ماديّة، محاولة إصلاح ضرر الاغتصاب السياسي وإعادة ما سلب منها بالقوة، فجسدها ملكها ويمكنها تأجيره مرات ومرات وتقايضه بثمن دون أن تخسره تماماً.

كتبت ميسون عبد اللّه في واحدة من رسائلها التي بعثتها من أفريقيا:

«الثورة هي الشعور بالتحليق الكامل. الشعور بالأخوة العالمية والتصالح مع الأشجار والحيوانات. الثورة هي العلم الأحمر وهو يرتفع عالياً على منازل القش في القارة السوداء. ربما تسكر طويلاً وأنت تغازل أفريقيا في عتمة الحانات، لكنك عظيم حتى لو لم تملك فلساً واحداً. العظمة في النساء اللواتي يجادلن حول فائض القيمة. في السود الذين يصنعون الحقيقة ويكشفون الكذبة اللعينة في التاريخ. وأشياء أخرى كثيرة. تقولها بمزاج ثوري مرتاح».

* * *

حين وصل جبر إلى أديس أبابا كان يبحث بعض الوقت عن القليل من الطعام، وما يكفي لإيجار علية. لكي تستمر الثورة. شيء لا يمكن وصفه، لا يمكن وصف الثورة في أفريقيا. لا يمكن إدراكها إلا من خلال مرآة هائلة حافلة بمشاهد لا تحصى.

كان مستمتعاً بمشاهد الرجال والنساء وهم يحملون الأعلام الحمر والبنادق ويذهبون إلى زمبابوي وأنغولا، كان مستمتعاً بمشاهد القادمين من كل مكان، من الصين، من أميركا، من الشرق الأوسط. كان مستمتعاً بمشهد الأخوة العالمية من أجل انتشال أفريقيا من قدرها. صحفيون، طلاب، شعراء، ثوار لم يفوتوا فرصة واحدة للنضال، لم يفوتوا سطراً واحداً للكتابة.

نعم. نعم! إنها الثورة التي تحتفي بالحياة ـ هكذا كان يقول في نفسه ـ الثورة التي تؤمن بالحياة كي تخلص حياة الناس من الجنون والفقر والرعب. كي تدع الشعراء يكتبون القصائد في أماكن واسعة ومريحة، وهنالك أيضاً مضاجعة النساء ذوات المؤخرات السود، وشرب البيرة!

فلتتنه إذن حياة المهمشين السود في شوارع أديس أبابا. طالما لا يمكن الاحتفاء إلا بنبل الحياة وسقوط بذاءتها، إلا بانهيار برجوازيتها ياللعفونة!

الحياة تستمر: قصائد، منشورات، ترانيم عظيمة للبراءة.

هذا هو جبر الصحفي الثوري. الصحفي الذي يكتب عن الفقراء وهم يتوجعون، حيث البرجوازيون يستمعون ويضحكون عندما يثملون.

كان يدرك أن الثوار متهمون بالسطحية والاباحية.

نعم، ربما بسبب القرف والفرح، غير أن الثورة هي الرهان الحقيقي، هي الحب والسرير والمرحاض، وفي الجانب الآخر هنالك اللصوص، والقتلة، وصحفيون معتوهون يكتبون تقارير للفئران لا لعصافير الدوري.

اكتب. سرعان ما تجد نفسك الثوري الذي يكتب كتاباً كبيراً عن الثورة، أو ينام في الخنادق حتى الزوال ـ يصرخ في البار:

ـ إذا كان البرجوازي الفاسد في العالم الثالث يذهب إلى الروليت، فإن الثوري أيضاً بإمكانه أن يكون خاسراً جميلاً.

الثوري الذي لا ينتظر مساعدة من أحد. الثوري الذي يحب الثورة، والنساء في الخنادق، وكتابة المنشورات السرية، وشرب الكثير من البيرة، والتبول في شوارع أفريقيا وآسيا.

كابوس قبل الوصول

قبل الوصول إلى مطار أديس أبابا، نمت. لقد لعب الكحول برأسي وجعلني متعبا قليلا، ثم أملت رأسي قليلا عند نافذى الطيارة ونمت.

لكن الحق أني لم أستغرق في النوم عميقا، إنما كان نوما خفيفيا، تتخلله استيقاظات من وقت إلى وقت وليست عميقة أيضا، ولكني حلمت بكابوس حقيقي. ماذا لو لم أجد أبطالي. أو على الأقل لا أجدهم على شاكلة ما تخيلتهم. إنما نماذج بائسة لأناس سكيرين ومحطمين. وهكذا كان هذا احلم الكابوس.

كان المكان الذي علي أن أرى فيه الثوريين أحمد سعيد وميسون قبواً قذراً. تلفزيزن مركون باهمال عند الزاوية، ثمة بقايا طعام على أطباق من النايلون.

أحد سعيد ممدد على القنفة، لحيته لم يحلقها منذ أيام، لا يشبه جيفارا أبداً، عيناه مجهدتان، رماد سيجارته يسقط على الأرض بحركة شبه مخدرة.

الصورة الأخيرة للثوري بعد نهاية الثورة.

بعد التعارف، آدم إلى جانبي، ينهض أحمد سعيد ليصنع لي الشاي على البريمس وبقوري قديم جداً. بعد قليل نسمع طرقات على الباب.

ينهض من مكانه بخطوات متكاسلة. يفتح الباب، تظهر ميسون متعبة جداً. امرأة في الخمسين، ملابسها ممزقة مثل كلوشار، وفي يدها كيس أسود، تفتحه وتخرج منه بهدوء قنينة خمرة. تسير في الحجرة بحذاء الكعب العالي دون أن تنظر لي، وجه متعب، شعر وخطه الشيب وسخ جداً، في يدها سيجارة وتدخن بشراهة، مع ذلك هنالك بعض الأجزاء الجميلة، بطة الساقين، الفخذ والمؤخرة. إيقاع المشية المغري... أيضاً.

ـ أحمد ما أريد أروح مع هذا ابن القحبة بعد...

قالت بصوت مبحوح.

ـ اقعدي هنا... هذا عراقي جاء من أميركا حتى يكتب عنا. وأشار بيده نحوي.

لم تلتفت لي. قالت: أقول لك ما أريد أروح مع هذا ابن القحبة. أريد أبقى عندك.

فتح القنينة، وبدأ يشرب منها مباشرة ثم ناولها لها.

قال لي: أنت نظيف أليس كذلك، برجوازي تقريباً، وتعمل في مؤسسة أميركية.

أخرجت ميسون سيجارة من حقيبتها وأرّثتها، بدت سكرانة جداً ويداها ترتعشان:

سرقت هذه الخمرة من جراره، وهربت لا تعرف كم عانيت مع هذا ابن القحبة..

ـ اعطيني سيجارة. قال لها.

مالت إليه قليلاً وهي تعطيه إياها. شرب من فوهة القنينة، أرث السيجارة، التفت نحوها، وسحبها بقوة. وقال لها: إشتقت إليك.

قالت له: أنت كذاب... ودمعت عيناها.

هوى على وجهها بضربة قوية. فاندفعت نحوه بشكل لا إرادي كي أمسكه، وكنت قد انفعلت جداً، صرخت هي، وسقطت على الأرض. مسكته من يديه وأسقطته على القنفة وقلت له بصوت متحمس: أنت ثوري... لا يجدر بك أن تفعل هذا.

بدت على شفتيه ابتسامة ساخرة. وقال: لا أنا مجرد لص يمارس كل أعمال الخراء..

قلت له: أنت ملك التاريخ... أنت معروف جداً.

قالت ميسون وقد وضعت وجهها على السرير وهي تبكي: أنت تتظاهر بأنك تحبني ولكنك تعاملني معاملة عاهرة. كانت تنورتها قد انحسرت عن فخذيها الأبيضين الجميلين، وسقطت فردة حذائها عن قدمها. يا إلاهي اية فوضى! قلت بصوت مسموع.

لص. قالت بصوت عال. لأنك لم تسرق أحداً. لو كنت لصاً لأصبحت مثل ابن القحبة في جرارك قنينة خمرة، لا تقل لص، لو كنت لصاً لأصبحت مثل هؤلاء. عليك أن تكون كذلك وتسلب الآخرين أموالهم. التفت أحمد نحوي وقال:

أنت برجوازي قذر. بينما أنا ثوري نزيه، ولذلك هذه حالتي.

نظرت لي ميسون بحدة، وقالت لي:

ـ أنت سافل... سافل لا تكسب بجهدك إنما بجهود الآخرين، تكسب النساء لخصيتيك النظيفتين، ولتحصل على المناشف البيض، والعطور الثمينة، ومعاجين الحلاقة.

التفت أحمد لها:

ـ شكراً ميسون اعطيني سيجارة اخرى؟

ثم تناول قنينة الخمرة وأخذ يشرب بقوة. بينما جلست ميسون إلى جانبه ساكنة وهي تمشّط شعره بأصابعها وتمسّد رأسه بلطف.

* * *

صحوت على صوت الطيار الذي يعلن وصولنا إلى مطار بولي في أديس أبابا.

صيف ساخن في أديس أبابا

لقد هبطت في مطار بولي في أديس أبابا مساء، كانت الطائرة قد تأخرت في مطار دبي لأسباب غير مفهومة، وكان المسافرون قد احتجوا في البداية بسبب تأخير أعمالهم، غير أني لم أكن مهتماً، ما كان يشغل بالي سوى شيئين إثنين فقط:

الأول يتعلق بميمي، هل هي التي كانت تراقبني وأنا أقبل فيفي في المطار؟

والثاني يتعلق بالثوار: كيف سألتقي بهم وكيفهم الآن؟ وما هي حياتهم في أفريقيا؟

سألني ضابط الجوازات، وكانت سترته العسكرية مرمية على كتف الكرسي بعجرفة:

ـ كم ستمكث؟

أجبته: شهر... لكنني مستعجل على وجه الخصوص، إذا أنجزت مهمتي بعشرة أيام فإني سأرحل.

ـ كما تشاء...

خداه منفوخان مثل كيسين ممتلئين أما ضيق التنفس فقد سلب الحيوية من صوته.

نهض نصف نهوض على قدميه، وهو يومئ إلى شخص آخر وناوله

جوازي. تناول الآخر الجواز وأخذ يدقق به. ثم طلب مني أن أقف جانباً فاسحاً المجال لقادم جديد. كانت فتاة أوربية، بادرها بابتسامة مجاملة، فاستدارت بحركة سريعة، ثم تقدمت نحوه، وهي تسلمه جوازها.

كنت أنظر نحو شعرها الكستنائي الذي انسدل على كتفيها، ومؤخرتها التي بدت بحجم أكبر نسبياً من جسمها. ثم شعرت فجأة أن الرجل الآخر الذي أخذ جوازي كان يراقبني خلسة، ويراقب الفتاة الأوربية التي وقفت أمام ضابط الجوازات أيضاً.

كان ينظرني من فوق كتفي زميله دون أن يحرك جسمه. نظراته ليست شريرة تماماً لكنها نظرة ذكاء لا ريب فيها، كان يمعن النظر في جوازي بلا حركة، ولا ارتعاش، ثم يرفع رأسه ويمنحني نظرة بعينيه الفاحمتين، اللتين تضيقان كلما أمعن النظر في شخص. لا بد أن يكون هو المسؤول الأمني.

بعدها أجرى مجموعة من الاتصالات بالتلفون ثم أخيراً سلم شاباً نحيفاً أسمر ذا شعر يميل إلى الطول، جوازي بعد أن ختمه، فجاءني الشاب بحركة رشيقة تنير وجهه بسمةٌ دافئة وساذجة، وسلمني الجواز، فمررت بسلام ودخلت.

* * *

كان مطار بولي في أديس أبابا حديث البناء يشبه مطار أوربياً، فضاءه الضخم يأتلق بمصابيح كبيرة معلقة في السقوف. كما أنه مزدحم بالمسافرين القادمين من كل مكان في أوربا وآسيا والذاهبين لعموم أفريقيا، مسافرون من كل أنحاء العالم يتجمعون على شريط الحقائب، ويتكلمون بصوت عال فكان الصخب أكثر من أي مكان آخر.

وقد عثرت على حقيبتي بصعوبة وكنت ظننت في البداية أنها ضاعت، وكانت تلك في الواقع، من هواجس وشكوك كثيرة تتلبسني على الدوام، فإحساسي بفقداني لحقيبتي يرافقني دائماً، كلما وقفت بانتظار الحقيبة على الشريط في المطار.

وحين تجاوزت الحاجز الأخير للجمارك لم أجد آدم، كنت أدرت وجهي تقريباً ودققت بكل الوجوه لا أحد يسألني عن اسمي أو يتعرف علي، كما أني أصبحت بمواجهة فتيات أثيوبيات جميلات يحملن لافتات مكتوب عليها بالانكليزية والأمهرية أسماء أشخاص منتظرين، كنت حسبت أني سأجد اسمي بينها ولكن لا أمل.

ولم أفوت الفرصة في التدقيق بوجوه الفتيات، فهذه هي المرة الأولى التي أقف مندهشاً أمام الجمال الحبشي في هذه البلاد: أنوف صغيرة، شفاه مدورة، أعين سود فاحمة وكبيرة، أجساد ممشوقة رشيقة، والشعر الأسود الفاحم يهبط بشكل هادىء على الكتفين، وكانت الابتسامات هي أجمل ما تقدمه النساء للزائر في هذه البلاد.

اتصلت بآدم ولكن لا أمل. حاولت أكثر من مرة:

ـ ألو ألو... آدم... أرجوك...

لكن لا أحد يجيب... تركت له رسالة صوتية على المجيب الآلي، ورسالة أس أم أس على تلفونه علّه يجيبني فيما بعد. وأدركت أنه لن يجيبني هذا المساء، وعليّ أن أنتظره حتى الصباح. ولكن المشكلة الأساسية التي شغلتني ذلك الوقت هو أنني كنت قد ألغيت حجز الفندق الذي حجزته في أديس أبابا وأنا في نيويورك بناء على نصيحته، من دون أن أقوم بحجز فندق آخر. وكان من المفترض بناء على الاتفاق الذي بيننا، هو أن

آدم هو من سيقوم بهذا الحجز عند وصولي. وبما أنه لم يأت، وربما جاء هنا وانتظر ثم اضطر أن يغادر بعد أن رأى أن طيارتي قد تأخرت، فقد شعرت كما لو أنني تورطت.

ومع أن عنوان الفندق الملغي معي ولكن لا أعرف ماذا يمكن أن أفعل تلك اللحظة بالذات، فمن خبرتي لا يمكن الاعتماد على أصحاب التاكسي في حجز الفندق، فهم يتفقون مع أصحاب الفنادق الرديئة مقابل مبلغ من المال، ويأخذون الأجنبي على أساس أنه أفضل فندق وأفضل عرض أيضاً، حيث تكون الأسعار في الغالب مضاعفة، والأماكن رديئة جداً، وربما غير أمينة أيضاً.

* * *

تذكرت أني كنت كتبت عنوان الفندق الذي ألغيت حجزه على ورقة منفصلة، وأتذكر أني وضعتها في جيب الحقيبة. فأخذت أبحث عنه، متوقفاً في مربع يقع بين الجمارك وصالة الانتظار، قبل الدخول نهائياً إلى الصالة حيث يقف سواق التاكسي وهم ينظرونني من بعيد مثل حيوانات تنظر فريسة.

وما أن عثرت عليه مسكته بيدي وقبل أن أنطلق اقتربت مني فتاة أثيوبية جميلة، ترتدي بنطلوناً من الجينز الضيق وقميصاً مفتوح الصدر قليلاً، لم ألاحظ أنها قصدتني إلا عند اقترابها مني تماماً. وقفت أمامي وجهاً لوجه، ابتسمت، وقالت بإنكليزية واثقة:

ـ هل تريد تاكسي؟

ـ نعم أريد تاكسي...

ـ تعال ورائي! قالت ذلك، وسارت بضعة خطوات حتى صرنا في

صالة الانتظار. كانت تحرك مؤخرتها الأفريقية مع حركة مفتاح السيارة التي بيدها. ثم توقفت والتفتت لي قائلة:

ـ هل لديك عنوان معين؟

ـ أنت السائق؟

ـ نعم.

ـ اسمعي أنا كنت حجزت فندق عندما كنت في نيويورك ولكني ألغيته... كان من المفترض أن آدم وهو دليلي الأثيوبي يحجز لي فندقاً آخر، غير أن طائرتي تأخرت، وربما جاء هنا ثم رحل، بعد أن لم يجدني... اتصل به ولا يجيب...

ابتسمت وهي تتكلم بهدوء جداً.

ـ أين تريد أن تذهب بالضبط؟

ـ أنا لدي عنوان الفندق السابق الذي ألغيت الحجز فيه هل يمكنك أن توصليني له..

ـ طبعاً...

ـ هذا العنوان...

ـ أوكيه ولكن لمذا لا تذهب إلى فندق آخر؟

ـ وهذا الفندق ما به؟

ـ لا شيء.. ولكن ليس هنالك ما يجذب في هذه المنطقة...

ـ هي ليلة واحدة وهذا الفندق سبق أن حجز به صحفيون آخرون...

ـ حسن أنت تريد هذا الفندق... قالت وقد اتخذت هيئة جادة.

ـ نعم أذهب اليوم الى هذا الفندق... وغداً سيتدبر لي دليلي فندقاً آخر أو شقة.

ناولتها العنوان فأخذت تدقق به، وعلى مقربة منا رفع سواق آخرون

أنظارهم مثل حيوانات وهم يرمقونني، كان أحدهم قد توقف دون حراك، وابتسامة، بليدة تقريباً، تومض باهتةً على وجهه.

ـ هل تحتاج تاكسي أو فندق أنا آخذك؟

اكتفت الفتاة بالتحديق فيه بنظرة احتقار جعلته يفرّ من أمامنا.

عندها انطلقت الفتاة إلى الخارج وتبعتها أنا. كانت سيارتها تصف في منطقة بعيدة تقريباً عن البوابة الرئيسية للمطار، وعلى مقربة منها تقف سيارة شرطة ومجموعة من الأشخاص الذين يتكلمون بصوت عال، خناقة أو شيء من هذا القبيل. وما أن وصلنا الشارع الرئيسي الذي يربط الشارع الخارجي بالبارك حتى هرع اثنان من الحمالين لمساعدتنا، تلقف أحدهما حقيبتي من يدي غصباً عني! وهرع الثاني بعد أن أخرج من جيبه قطعة قماش، وانطلق أمامنا.

وما أن وصلت الفتاة إلى السيارة وفتحت الصندوق حتى أدخل الحمال الحقيبة، وما أن جلست داخل السيارة حتى أخذ الثاني يمسح الزجاجة الأمامية والجانبية ومد يده وهزها طالباً البقشيش..

اعطيت كل واحد منهما عشرة بيروات ورقية، واختفيا من ناظري شاكرين لي.

* * *

حين جلست سائقة التاكسي انزاح القميص قليلا فظهر التاتو مثيراً جداً على الجهة اليسرى من مؤخرتها، وهو عبارة عن كتابة بالأمهرية. ثم انطلقت السيارة في شوارع أديس أبابا في ليل دامس فيه هبات هوائية منعشة كانت تأتيني من جهة الشباك المفتوح.

ـ هل الطقس في أديس أبابا دائماً هكذا؟

ـ بالتأكيد... إنه معتدل لأن المدينة على جبل...

ـ هل هناك من أشياء يمكنني الذهاب إليها في المدينة؟

ـ أشياء كثيرة يعتمد على ماذا تريد... متاحف، أماكن تاريخية وثقافية، مناطق سياحية؟ أم تريد نساء وملاهي ومساج أيروتيك؟ مطاعم؟ خمارات...؟

ـ ههه... أنا جئت من أجل كتابة ريبورتاج عن مجموعة من الثوريين... سيتكفل بهذا الأمر دليلي...

ـ إذا أردت خذ الكارت هذا عليه رقم تلفوني وإيميلي متى شئت سأكون بخدمتك...

تناولت الكارت من يدها شكرتها وقرأت اسمها انكو...

ـ اسمك انكو؟

ـ اسمي انكو يعني لؤلؤة بالأمهرية...

ـ اسم جميل... أنكو!

ـ شكراً...

بعدها انعطفت السيارة في دخلة صغيرة تؤدي إلى رحبة أمام فندق بسيط وجميل، وقد انتصبت أمامه مجموعة من الأعلام. هبطنا هي وأنا من السيارة، وسرنا نحو الفندق. دخلت أنا ثم دخلت هي ورائي. كان في صالة الاستقبال موظف أسمر وسيم، يرتدي بذلة بيضاء وربطة عنق، ويضع إشار الفندق على جاكتته. ابتسم لنا عند دخولنا. وقال بإنكليزية محببة:

ـ مساء الخير... وقد أجابته أنكو بالأمهرية.

ـ هل لديك غرفة بسرير واحد هذا اليوم؟ قلت له.

ـ كلا! مع الأسف، اليوم لا توجد حجرة فارغة، الكل محجوز، بكرة سيغادر أحد النزلاء إذا أردت فاحجز من الآن... ولكن بكرة بعد الثانية عشرة ظهراً.

ـ أوه في الواقع، أنا كنت حجزت لديكم حجرة بسرير واحد عبر الأنترنيت من نيويورك قبل أيام، ولكني عدت وألغيت الحجز...

ـ الاسم؟

ـ جورج باركر...قلت له.

أخذ يفتش في جهاز الكمبيوتر.

ـ متأسف مستر باركر! الحجز ملغى. ذهبت حجرتك لنزيل آخر...

ـ ما الحل؟

ـ انتظر الى بكرة... قلت لك لدينا حجرة واحدة، لكن بكرة بعد الظهر، إن لم تحجزها الان ستذهب هي الأخرى إلى شخص آخر...

ـ أنا اريدها اليوم...

ـ متأسف!

ـ مالذي حدث، لماذا لا توجد أماكن في هذا الفندق؟

ـ هذه الأيام هي الموسم السياحي في أديس أبابا!

ـ أوه إذن سأذهب إلى فندق آخر، هل يوجد هنا فندق قريب؟

ـ لا تتعب نفسك هنا، كل الفنادق المحيطة بنا ممتلئة... إذا أحببت عليك أن تخرج خارج المدينة!

ـ لا لا يمكن هذا...

ـ هذا ما أقوله لك!

ثم قام بالاتصال بنفسه بمجموعة من الفنادق القريبة، وكل مرة يزم شفتيه ويقول:

ـ لا يوجد!

بعدها نظر لي بوجه يائس وقال:

ـ متأسف!

كان هنالك شخص واحد يجلس في الصالة، يستمع إلى حديثنا، عيناه تغمزان بفتور فوق عظام وجنتيه العاليتين. كان يرتدي قميصاً رمادياً، وربطة عنق، يرفع الى شفتيه سيجارة في أنبوب خشبي طويل، ينفخ على التوالي حلقات من الدخان نحو السقف.

ـ ماذا أفعل أنا نعسان جداً وأريد مكاناً للنوم... قلت لسائقة التاكسي الجميلة.

ـ حسن يمكنك أن تبيت عندي...

ـ نعم؟

ـ لا يذهب تفكيرك إلى مكان آخر... يمكنك أن تأتي عندي أعطيك سريراً تنام عليه، وأقدم لك في الصباح إفطاراً بسيطاً مقابل 250 بيرو، وغداً يمكنك أن تأتي إلى هذا الفندق في شارع المسكال وسيكون لك مكان فيه.

شعرت لحظتها ألا خيار لي سوى هذا الخيار الذي طرحته هي، ومن دون هذا سأبيت في الشارع، وربما لا أجد غداً أي فندق أيضاً. طلبت من موظف الاستقبال، أن يحجز لي الغرفة ليوم غد، وذهبت مع أنكو إلى منزلها.

منزل أنكو

لا أعرف بالضبط أين يقع منزل أنكو، فقد ساقت أكثر من ساعة خارج مدينة أديس أبابا، في طرقات مظلمة تماماً وغير معبدة، وقد اخترقنا مساحات شاسع يغطيها شجر كثيف، وفي صعود وهبوط كاد أن يوقف لي قلبي، ومع ذلك كانت تتوغل شيئاً فشيئاً في عالم مجهول تماماً بالنسبة لي، جعلني بعض الأحيان في خوف وترقب، ففي النهاية أنا لا أعرفها، وهذه هي تجربتي الأولى في أفريقيا، وكنت أتساءل أين تأخذني هذه المرأة الغامضة، ذات العينين الذكيتين والوشم المكتوب بالأمهرية على مؤخرتها.

أخيرا وصلنا إلى منزل صغير، بباب خشبية. طرقته فخرج لنا رجل أسود بشعر أشيب يمسك بيده فانوساً صغيراً. ابتسم لنا فاتحاً الباب لندخل. عثرت بالعتبة الخشبية لأني لم أرها ودخلت. كانت هنالك امرأة لم أتبينها جيداً، لم تكن مبالية لوجودي، تتحدث إلى نفسها بصوت واطئ. داخل المنزل المظلم نار في موقد، ورجل مسن يجلس وظهره للحائط، يرتدي ملابس بالية وسلسلة حول عنقه، رفع نظره وابتسم لي. ثم أخذ يهف بمهفة للنار القائمة أمام وجهه الهادئ والصارم.

أدخلتني أنكو إلى حجرة مظلمة وفيها سرير صغير، كانت الغرفة من دون باب، وحين جلست على السرير شعرت بأن إلى جانبي كوة كبيرة

مفتوحة من دون شباك، يأتي منا هواء بارد ورطب، وهنالك وشيش عال لا أعرف مصدره.

قالت:

ـ هذه حجرتك. وفي الصباح سأعد لك الفطور. ثم خرجت.

جلست في البداية على حافة السرير. كنت متعباً جداً. خلعت حذائي وجواربي، ثم رفعت قدمي وتمددت. مددت يدي إلى الكوة كانت مفتوحة، وراءها ظلام دامس لا أعرف ماذا يكون. وهنالك وشيش قوي لا أعرف مصدره. كنت شعرت لحظتها بعزلة الجدران الأربعة، شعرت بكآبة هبطت عليّ فجأة، بخوف قليل وارتباك أيضا... ربما عززه هذا الوشيش الغامض، والصمت الموحش لركام هذا المنزل المصمت والمصنوع من الطابوق، لقد كان هذا المكان قبيحا، بل هو أشبه بمستودع هائل لتجميع جثث الغرقى. ما الذي جاء بي هنا؟

* * *

في الصباح استيقظت بهدوء، فتحت عيني بصعوبة بالغة بسبب توهج النور في الحجرة، فنظرت من الكوة رأيت مشهداً ساحراً لا مثيل لجماله، كان الوشيش القادم من الكوة والذي بقيت أسمعه طوال الليل دون أن أتبينه هو من شلالات كبيرة نسبياً تهبط من أعلى الجبل إلى الأرض مكونة نهراً ينسرب بين الخرائب، وهنالك أشجار وأزهار تنبت بألوان متعددة وبشكل وحشي لا ترتيب فيها منحها جمالاً غير محدود، وهنالك شجرة عظيمة جلس تحتها أثيوبيان كان الأول يرقب بصمت أبدي هبوط الماء إلى الأرض، والآخر يمسك غصناً ويبريه بالسكين.

لقد انبهرت بهذا المشهد، لقد أخذت به تماماً، أي جمال هذا يا إلاهي:

كان النور يتدفق تدفقاً عظيماً فيغمر شلالات الماء التي أخذت لون الفضة، والسماء من فوقها زرقاء لاظية، أما الأرض فكانت تتنهد ببطء تحت آلهة النور الوضاءة، كما لو أن غبار الطلع الذهبي ينتشر في كل مكان. ومن بعيد كنت أرى جدران المنازل العسجدية اللون تتعرش عليها النباتات الرقيقة الأوراق، وتحيطها الأشجار العامرة بالعصافير.

دخلت أنكو بزيها المحلي، فرأيتها أجمل من الأمس بكثير، كان وجهها صافياً وعيناها تومضان ببريق جميل ومؤثر. حملت لي صينية فيها ساندويشة من البيض المسلوق، وكأساً من الشاي الأسود المحلى، أخذتها منها وشكرتها، غمزت لي بعينها وخرجت.

جلست على حافة السرير وأخذت آكل الساندويشة بشهية وأشرب الشاي وأنا أنظر من الكوة إلى هذا المشهد الخلاب، كان عبق النباتات العطرية يأتيني مع غابة الألوان والأنوار التي ترتعد على حافة أهدابي، فشعرت بلذة ومتعة لا تضاهى أبداً من هذا المشهد أولاً ومن امتزاج ملح البيضة وسكر الشاي ثانياً، وربما أيضاً بسبب هذه البساطة العارية والشعور بالسلام والصفاء الأبديين، إنه نوع من الاكتفاء الإنساني بهذه الطبيعة العظيمة.

من أسعد مني في هذه اللحظة؟

تمنيت أن أصطحب فيفي مثلاً، ميمي والأولاد كي يروا هذا المشهد، إنه يعلّم أكثر من أي فلسفة أو من أي دين. فعلاقتنا الحقيقية هي مع الطبيعة، غير أن الأيديولوجيات والأديان تأتي لتخريب هذه العلاقة وتشوهها، بل لتحرف اتجاهها إلى اتجاه آخر، إلى اتجاه مشوه مصنوع وغير طبيعي. فحياتنا الحقيقية تتعرف بأشياء بسيطة: أنثى مثلا، ذكر! غير أنها تتشوه على يد الأديان والإيديولوجيات فتصبح:

مسلم، مسيحي، يهودي، شيوعي، رأسمالي، أسود، أبيض، شيعي، سني... الخ، أو في الطبيعة فهي عاصفة مثلاً، زوبعة، تصبح غضباً إلاهيا، منحة ربانية... كنت أقول لأولادي دائماً، عليكم الخوف من العاصفة أكثر من خوفكم من جميع الآلهة.

ثم تذكرت العراق، تذكرت الشرق الأوسط، تذكرت أميركا، تذكرت الحروب الطائفية، والإديولوجيات! فهنالك مثلاً يجري صراع ضار على الأرض. لماذا؟ صراع السنة والشيعة على متر واحد من الأرض، متر واحد ينعدم فيه أي معنى للجمال. وكنت أتساءل مالذي يجعل البشرية تترك ثلاثة أرباع الأرض، بكل جمالها وسحرها، وتتزاحم على أمتار قليلة لتهرق أنهاراً من الدم من أجلها؟

ربما لأن البشرية تغرق المكان بالتاريخ، تغرق الجغرافيا بالأساطير فبغداد مثلاً أو دمشق، أو القدس، أو نيويورك هي ليست أماكن جغرافية إنما هي محمولات ثقافية وتاريخية وسياسية ودينية. فهذا المكان البسيط والطبيعي لا أحد يهتم به لأنه بلا تاريخ ديني أو إيديولوجي، الآن لو قلنا أنّ الحسين مثلاً زار هذا المكان وغسل وجهه بهذا الشلال، أو أن المسيح استراح هنا وألقى موعظة... فإنّ حروباً من شأنها أن تنشأ على هذا المكان، لاحتلاله، وبعد فترة ستفسد البشرية جماله بإغراقه بالأعلام والأيقونات والصور، والمواعظ والتهديدات، وسيصبح له قتلى ملعونين وشهداء مقدسين. آه ما أغبى البشر.

دخلت أنكو وقالت:

ـ هل أنت جاهز كي أوصلك للفندق.

الفندق ذاته!

أوصلتني آنكو في الظهيرة إلى شارع دبرتسايت Debre Zeit، كان مزدحماً جداً بالسابلة والسيارات. في الطريق كان هنالك حادث اصطدام أيضاً، وأصوات الهورنات والسابلة وباعة الرصيف يصلنا في وقت واحد، مختلطاً أيضاً بصوت الأغنية التي اختارتها أنكو لي من الغناء الأثيوبي، للمطربة تاكسيت أوفوورك، وكانت تغني بالعربية، أغنية سودانية على ما أظن، ووضعتها بصوت عال. كما أنها كانت أيضاً عصبية المزاج بسبب هذه الفوضى المحيطة بنا، فتشتم، وتضرب بقوة على مقود السيارة معبرة عن غضبها.

ـ ما دمت وصلت إلى مكان قريب، قلت لها، سأهبط أنا من السيارة وأمشي، كي تتمكني من العودة أنت وبهذا لن تكون مضطرة لاختراق الشارع المزدحم.

ـ ار يو شور؟

ـ يس أم شور!

توقفت أنكو في منتصف الشارع، هبطت من السيارة بسرعة كبيرة، فتحت صندوق السيارة وأنزلت لي حقيبتي بكلتا يديها، بينما أخذت الهورنات ترتفع وتزداد، والشتائم تتصاعد من كل مكان من سواق السيارات التي خلفها، أخذت تبتسم ببرود شديد دون أن تعبأ بهم وبما يفعلوه. بينما

ارتبكت أنا بسبب هذه الفوضى المحيطة بي، والتي شعرت أنها اندلعت بسببي. تلافياً لهذا الإحراج حملت حقيبتي بسرعة كبيرة واتجهت بها إلى الرصيف. انحنيت قليلاً لأشير لآنكو التي عادت بسرعة لتجلس خلف المقود، بيدي، ثم صحت عليها بصوت عال:

ـ سأراك قريبا!

غمزت بعينها وهي تبتسم، دارت مقود سيارتها وانطلقت في شارع فرعي، بينما سرت أنا تحت شمس لاسعة، وسماء صافية لم أر مثل صفائها أبداً، ما خلا بضعة غيوم متفرقة، بيضاء كالقطن. وأثناء سيري شعرت بقطرات عرق قليلة تقطر من جبيني رغم الهواء العذب الذي يبشر بطقس معتدل، وكنت أفكر لحظتها بمشروعي الذي جئت هنا من أجله، والتقرير الذي سوف أكتبه عن الثوار العراقيين، فهو الذي سينقذ لي مستقبلي، وسيؤمن لي حياتي العملية في الوكالة. وما أن انتهيت من الطريق المعبد حتى دخلت في طريق مترب غير مزفت إطلاقا، واضطرني هذا أن أحمل الحقيبة حملاً لا أن أجرها كما كنت أفعل على الرصيف، وهكذا انتهت أحلامي مع صهد الشمس الساطعة، والظل البارد، وعيون الأثيوبيات السود اللامعة.

توقفت عند الرصيف وسط هورنات السيارات التي تتداخل مع بعضها، وعلى مقربة من شجرة يوكالبتوس عالية، كان هنالك كيوشك خشبي يبيع الصحف والكتب والمجلات، تنطلق من داخله أصوات موسيقى أفريقية.

في الواقع لا يمكن التفكير بأديس أبابا إلا كما نفكر في أية عاصمة من عواصم الشرق الأوسط، فهنالك على الدوام حداثة استهلاكية مزيفة تفصح عن وجهها عبر شركات سياحية، مطاعم راقية، مكاتب تصريف

عملة، مروجين للمكالمات المخفضة عبْر الإنترنت، مراكز بيع بطاقات الموبايلات، دعايات عن فنادق فخمة، دعايات عن أزياء أوربية جديدة، وإعلانات عن استثمارات في كل شيء تقريباً. أما الفقر فيطفو عالياً فوق كل هذا الضجيج المفتعل.

* * *

سرت تحت الظل البارد منتعشاً بالهواء الهاب الذي لطفت حرارته الأشجار الأفريقية الضخمة، حيث كنت أسمع زقزقات العصافير التي تبني أعشاشها بين الأغصان الوارفة، وتتداخل مع الموسيقى العذبة القادمة من الدكاكين التي تبيع السلع المستعملة. وعند كيوشك الصحف والمجلات وقفت شابة جميلة، ترتدي بنطلوناً من الجينز وتي شيرتاً قطنياً.

حملتُ حقيبتي الجلدية في يدي وقطعت الرصيف متجهاً نحوها:

ـ من فضلك أين أجد فندق الجديد؟

ـ فندق الجديد طيب، خذ يمين، ثم شمال، وبعد حوالي مئة ياردة من مكتب البريد ستجده أمامك..

هذه المرة أيضا التقت فيها عيناي بعيني أثيوبية، عينان عذبتان جميلتان، ملامح وسيمة ناعمة، وجسد فتي أسمر ينبض.

لم أجد الشاب الذي التقيته بالأمس، كانت هنالك شابة جميلة هي الأخرى محله، والواقع أن جمال النساء الأثيوبيات هي أكثر ما لفت نظري في هذه البقعة من العالم. كما أن الرقة التي هن عليها والبساطة والابتسامة والاريحية الدائمة، هي من أروع الأشياء التي يمكن ان تراها هنا.

أخبرتها عن الحجز، طبعت الورقة الخاصة بالحجز اعطتني المفتاح وكلفت أحد العمال للصعود معي وحمل حقائبي للحجرة.

كانت الحجرة نظيفة، شباكها واسع يطل على مشهد جميل والسرير مرتب. غير أن أول ما شغلني هو كيفية الاتصال بآدم، وبعد عدة محاولات نجحت بالتكلم معه، واتفقنا على اللقاء في المساء.

حينها تمددت قليلا على السرير، قرأت بعض الأوراق أخذت دوشا، ثم أكلت قليلا وهبطت للقاء آدم.

في الفندق

في الفندق، في المطعم تعرفت على ثلاثة مهرجين روس، وسائحتين من المكسيك، ورجل من أوغندا، وطبيب من الصين، وراقصة محلية، وثلاثة صحفيين، قال لي أحدهم وهو ينظر إلى مدى أنتوتو المشجر: تعني أديس أبابا زهرة جديدة.أسسها الملك منليك في العام 1887، على سطح ثلاثة جبال تدعى أنتوتو وقد حافظ على بقائها الدائم جلبه لأشجار اليوكالبتوس السريعة النمو من أستراليا.

فقد أسس الملك منليك ستة عواصم مؤقتة قبلها، أدى إلى تركها بسبب استنزاف الوقود.

* * *

كنت سعيداً ذلك اليوم. شعرت بأني سأكتشف عالما جديدا اسمه أفريقي في هذه المدينة المهمة من القرن الأفريقي. ويا ما حلمت، منذ كنت في بغداد، أن أذهب إلى هذه الأماكن، كي اجتز المساحات الزراعية المهيئة لموسم الحصاد، أسبح في البرك الصخرية تحت الشلالات. أحلم بالتنزه خلال المروج المثقلة بالزهور، وأضحك مع الشعب المرح والراقص والذي يحب الأغاني.

كان لدي كتاب عن أفريقيا مصور باللغة الإنكليزية، بقي معي طويلاً

وهو من الكتب النادرة التي حملته معي من بغداد إلى نيويورك. يصور فيه الناس وهي تجلس في كيوسكات مصنوعة من القش، يجلسون وهم يتدفأون على شعلة نار يديمها الحطب. وفي الخارج ليل أفريقيا الأسود... وكنت كلما أقلبه قبل النوم أحلم بالرحلة إلى أفريقيا حيث أعيش في العراء الممتد، حيث أحيا قلقاً ووساوس ووحشة وتنهدات وخوفاً وهلعاً وحسرة ورغبة!

كنت أعشق هذه المغامرة، حيث أعيش على الأرض الرطبة الجرداء. وهي الواسطة بين الطبيعة والفن، لا أهتم في رحلتي، ربما استسلم لقبائل الفولاني وقبائل الدنكا، استسلم لهم كما لو استسلم للعاصفة، أسير معهم إلى الأشجار الضخمة حيث الوحوش الضارية تختبئ في أوجارها، وأواجه المرح البريء الذي يحف بالأشجار الضخمة بحزن أجداد غابرين.

كنت أريد أسمع في الصباح أصوات طيور ملونة على أشجار الدندب الضخمة، أسير في الدروب التي غطتها أوراق أشجار المانغو بصفرتها الذهبية، استحم تحت أشعة شمس أفريقيا الصفراء التي تعلق بأفق بعيد مثل سحب. أستمع إلى صفارة الشامان وهو يرمي في الفضاء كرات ندائه، أرقب الحمار وهو يهبط من أعلى رابية خضراء تطل على أكسيوم العاصمة القديمة لأثيوبيا والتي تقع في قلب إمبراطورية نافست في القديم حضارة الفراعنة في مصر، بمركزها الديني، أو بأبراجها ومسلاتها القديمة الغامضة، أو بعمارتها التي ارتبطت بالحجر.

* * *

تنتهي أحلامي مع أول صوت قادم من شاحنة تمر بسرعة في شارع دبرتسايت.

اللقاء مع آدم

ذهبت إلى المقهى الذي أعطاني آدم عنوانه من أجل اللقاء.

كان ذلك مساءً، دفعت الباب ودخلت، في مواجهتي ممر يقود إلى صالة واسعة، سقفها عال على نحو ما. سرت بين الطاولات، فقد كانت مزدحمة جدا، والمسافات بين الطاولات والكراسي قليلة إلى الحد الذي تشعر فيه بأنها مختنقة بالناس. فقد وضعوا طاولات وكراسي أكثر مما يتسع المكان.

وأنا أسير متعثراً بين الكراسي بانت وجوه الشاربين ورؤوسهم شبحية خلال غمامة الدخان الكثيفة، زاد من عدد الزبائن انعكاس وجوههم وأجسادهم في المرايا الضخمة المثبتة على الجدران والتي كررتهم بعتمة أشد إلى ما لانهاية. لا أعرف لماذا شعرت لحظتها أني انغمرت في عالم غامض قاتم بين شاربين كثر، كانوا أشبه بأشباح سود تتكلم بصوت عال وتضحك ممحوة في جو من دخان التبغ، وربما كان جلد المقاعد الأحمر هو العنصر اللوني الوحيد الذي يكسر هذه الأجواء الغامضة والمعتمة.

* * *

سرت بحركتي البطيئة، أتطلع بتدقيق في الوجوه الطيفية التي ارتفعت لتنظرني أثناء مروري قدماً بين الموائد. لقد شعرت كما لو أني ألج

وسطاً غريباً، لم أجد نفسي إلا أمام فتحة كبيرة تقود إلى دهليز، فنزلت السلم شعرت لحظتها أني دخلت في منطقة أشد عتمة.

واجهتني مجموعة من العاهرات مع مجموعة من الوجوه المعتمة الممحوة المنكبة على الشرب وسط موسيقى غامضة.

عدت من حيث أتيت، رجعت من السلم ذاته، وما أن أصبحت ثانية في الصالة شاهدت شخصاً نهض من مكانه وأومأ لي. تقدمت نحوه:

ـ أنت آدم...

ـ نعم...

ـ أين أنت يا رجل...؟

ـ هنا! قالها ببساطة شديدة، فتركته كي أصافح الفتاة التي بجانبه.

ـ لاليت قال لي.... صديقة...

كانت لاليت بشعر طويل قُصَّ على طريقة الأفرو، يرتفع عاليا بينما يتدلى من أذنيها قرطان طويلان. كانت ضئيلة، رقيقة البنية، سمراء سمرة فاتحة، ذات عينين واسعتين بريئتين، وهذا ما جعلها جذابة حقاً، أما آدم المبتسم دوماً فكانت له سحنة أفريقية تقليدية بشعر قصير مجعد ملتصق تقريبا على جلد جمجمته وقد بدا من اللقاء الأول شخصاً طيباً.

مد يده بحركة مباغتة، ثم جلس، أما أنا فقد حدقت تحديقة مكشوفة بلاليت، كانت ثمة رقة، تكاد تبلغ حداً عالياً، وفي الوقت نفسه، شيء من بدائية الروح الجذابة جعلت شرارة صغيرة تثب في داخلي. جاءت النادلة فنظرت إلى كأسيهما، كانا يشربان البيرة، كان كأس لاليت إلى المنتصف أما كأس آدم فقد فرغ إلاّ من قطرات قليلة في القعر.

ـ ألا ترغبين بشيء آخر؟ سألتها.

ـ مللت من البيرة أريد كوكتيل الجن بالبرتقال.

ـ وأنت؟ سألت آدم...

ـ هل يمكنني أن أطلب ويسكي...؟

ـ طبعاً...

ـ على حساب الإمبريالية الأميركية... قال ضاحكاً.

هما يعتقدان أن أميركا كلها بنفسها هي التي بعثتني إلى أفريقيا كي أكتب هذا التقرير.

ـ بالتأكيد!

ضحك كلاهما. ارتشف آدم القطرات الأخيرة من الكأس وناوله للنادلة، بينما شربت لاليت النصف الباقي أيضا سريعاً، وناولته للنادلة التي أخذت الكأسين واختفت في الدخان الذي يمحو الوجوه والأجساد في البار.

ـ انتظرتك في المطار ألم نتفق أننا سنلتقي هناك...

ـ في الواقع تأخرت طائرتك... فعدت إلى المنزل.

ـ أنت محق ولكني اتصلت بك فلم تجب.

ـ الواقع كنت نمت... اعذرني حينما أشرب الخمرة وأنام لا أفيق بسهولة.. وكنت أعرف أنك ستستدل فيما بعد على فندق الجديد في شارع المسكال، وسأراك فيما بعد.

ـ لم تكن مستعجلاً إذن...

ضحك، وقال بهدوء شديد:

ـ لا، لا أبداً... فقد فضلت أن أبحث لك عن الأشخاص الذين تريد مقابلتهم...

ـ هل لديك الأسماء؟

ـ بالتأكيد، ولكني لا اقتصر على الأسماء التي بحوزتي، يا ليت أن تكون هنالك أسماء أخرى!

ـ سنرى... لا أعرف كم من الأسماء لديك، ومن هم الذين تود مقابلتهم.

* * *

في الواقع لم أكن أعرف كم عدد العراقيين الثوريين الذي وصلوا إلى أديس أبابا... هل هم بالآلاف؟ بالمئات؟ بالعشرات؟ كم بقي منهم هنا في أديس أبابا، وكم عاد منهم إلى العراق، أو إلى أي البلدان تفرقوا؟

هذه هي الأسئلة التي كنت أريد معرفة أجوبتها من آدم ذلك الوقت. غير أني رأيت أن الكلام معه ومن اليوم الأول، بل ومن الساعات الأولى وفي هذا الموضوع بالذات غير مجد. ربما سيضيع المشروع برمته، فقررت أن أسير معه ببطء شديد، وأن أحصل منه على المعلومات بشكل سهل وتلقائي جداً.

لذلك غيرت مجرى الحديث تماماً، واهتممت على نحو خاص بلاليت، تكلمت معها عن عملها، قالت أنّها أنهت دراستها للصحافة حديثا وتعمل في صحيفة محلية في آديس أبابا اسمها الوقت. ثم اقترحت عليهما أن نغير المكان. فقالت لاليت أنها تعرف مكاناً فيه حفلة راقصة، وذهبنا بالفعل هناك.

* * *

ذهبنا إلى بار اسمه كريزي هورس. كانت فيه حفلة راقصة.

لا يبعد البار كثيراً عن تمثال هيلاسي لاسي الذي أسقط في زمن الثورة. عمل برمته، لذلك وددت تغير الموضوع، وأردت الحديث على نحو خاص مع لاليت لم أكن أعرف ما سبب وجودها في ذلك اليوم مع آدم.

ـ هل أنتم على علاقة؟

ـ لا... نحن أصدقاء...

ـ حسن... الآن ارتحت...

ضحكت... كانت تتكلم الإنكليزية حيث تنطق راءها واواً، تلثغ بتلفظ طفولي إلى حد ما، ومع أنه كان مصطنعاً، تقلد فيه الإنكليز عادة إلا أنه صادق حيال شخصيتها في الوقت نفسه. أما صوتها فكان بنغمة مثيرة جداً.

* * *

حين بدأت الموسيقى راقصت لاليت، وكانت رشيقة جدا، أما أنا فكانت أقدامي تتعثران تقريبا ببعضها، وكنت أفتقر للرشاقة، كما أن بطني منذ عامين أخذت تتهدل، فشعرت بالتعب سريعا، ومع ذلك قلت لا أخيب ظنها بي وأعود لأجلس، استمريت بمراقصتها، بينما أخذ آدم يغازل فتاة ثانية تعرف عليها أول جلوسنا في عهذا البار.

لقد شربنا لا أعرف لم... لكني شعرت بأني سكرت، ولم أفطن إلا على آدم ولاليت وهما يحملاني إلى غرفتي ويضعاني على السرير.

في الفندق

في الصباح رنت فتاة الاستعلامات قالت لي أن آدم ولاليت ينتظراني في الأسفل، ففرحت جداً، وعلى نحو خاص فرحت لأن لاليت جاءت هي أيضاً. في اليوم ذاته، في الصباح باكراً، كنت كتبت إيميلاً إلى فيفي، قلت لها إني أحبها، وأفكر فيها على الدوام، وتمنيت أن تكون معي، وإني مشتاق لها جداً.. ولأني كنت مستعجلاً فقد استنسخت الرسالة ذاتها كوبي بيست وأرسلتها إلى ميمي، غيرت فيها الاسم فقط. ودققت في الرسالة جيداً لئلا أكون أخطأت في موضع ما يعرضني للشبهة مع ميمي. قلت في نفسي إن الحذر في هذه الأمور واجب، بعدها أغلقت اللابتوب، ارتديت جاكتي على قميص نصف كم، تناولت علبة سجائري، وهبطت السلم لملاقاة لاليت وآدم.

* * *

أقول لكم الحق، إن حضور لاليت كان مناسبة كبيرة لي لاكتشاف مدى صمودي في حب فيفي، وإن كانت الأخيرة موجودة في داخلي، وأفكر فيها أيضاً، لكني شعرت منذ ليلة أمس أن هذه الفتاة أصبحت تزعزع مكانتها في قلبي. حتى أفكارها وجدتها أكثر تماسكاً من أفكار فيفي، سواء عن تروتسكي أو عن الثورة، هؤلاء الناس يعرفون الأشياء بشكل عملي، لقد اختبروها بأنفسهم، لم تأتهم جاهزة، لقد عرفوا صعوبتها، ووعورتها، عرفوها بلحمها ودمها، وليس في الحبر الجاف والمسطور في الكتب.

ـ الثورة لم تعد موجودة بطبيعة الأمر. قالت لاليت. الثورة تبخرت. ما بقي هنا هو مملكة أكسيوم التاريخية.

ـ ومنغستو؟ قلت لها.

ـ منغستو لم يعد له وجود، وزمن الثورة حاكمناه على جرائمه وسجونه وعمليات اختفاء الناس.

جلست معهم في الصالة الدائرية للفندق، على مقاعد مريحة من الجلد، وهنالك نادلة الفندق بملابسها البيض وبيديها تحمل الصينية، قدمت لنا قهوة الاكسبرسو على الطريقة الإيطالية، موضوعة في فناجين بيض صغيرة، وهذا تقليد ربما جاء منذ الاستعمار الإيطالي لأثيوبيا.

قال آدم الذي بدا هذا اليوم أفضل بكثير من الأمس:

ـ ما قالته صحيح. ويمكنني طبعاً أن أرى أديس أبابا شامخة فوق الجبال، وأكسيوم التاريخية هي الأسطورة وهي الواقع لا منغستو.

آدم كان ثورياً فيما مضى، ماركسياً على نحو أدق ومن أتباع منغستو. مثل لاليت طبعاً. أما اليوم فقد تغير.

ـ ولكن كيف نسوا جرائم هيلاسي لاسي بسرعة كبيرة، كيف اختفت هذه الفضائع من ذاكرة الناس، وهؤلاء الذين هدموا تمثاله وبصقوا عليه أين ذهبوا؟

ـ ربما جرائم الثورة مسحت جرائم العهد القديم وبسرعة أيضاً. قالت لاليت.

كنت أنظر إلى ساقي محدثتي الجميلتين، وهي تضع ساقاً على ساق، وتنفث الدخان في وجهي بشكل واثق ومثير حقاً.

فسألتهم:

ـ أين نذهب اليوم؟

ـ أنت أين تريد اليوم أن تذهب بالضبط؟

ـ أعتقد أن من الأفضل هو أن ألتقي أحد الثوريين العراقيين في أديس أبابا أليس كذلك؟

ـ هل لديك أسماء؟

ـ نعم لدي بعض الأسماء ولكن هناك الأهم بينهم...

ـ من هو؟ قال آدم

ـ أحمد سعيد...

لا أعرف كيف شعرت أن آدم ولاليت قد تجمدا تماماً من دون حركة، كأن شيئاً ما قد حدث... وربما كان وهما.. أو شعرت بأني توهمت.

ـ ما بكما... أنا سألت.

ـ لا شيء، قال آدم، أعطنا بعضاً من الوقت لنهيء لك الأجواء.

ـ هل تعتقدان أننا يجب أن نقنعهم بالحديث أولاً؟

ـ من؟ الثوريون العراقيون؟

ـ نعم! أليس من الأفضل أن أتعرف عليهم أولا ومن ثم أقوم بمهمتي؟

ـ كما تشاء...

ـ أعتقد هذا أفضل... قالت لاليت.

ابتسم آدم وهو يشرب القهوة، كان ثمة صمت، أنزل فنجان القهوة من فمه وابتسم قائلاً:

ـ أكاد لا أستطيع قول ذلك. لقد قدمت لهم عدداً لا يستهان به من المبررات لكنهم يرفضون لقاء أي صحفي.

قالت لاليت بنبرة وضعته في موضع ضعيف:

ـ لو طلبت أنا منهم ذلك لا أظنهم يرفضون.

ـ تعتقدين ذلك؟ قلت لها بنبرة جادة.

ـ ولكن حتى هذا اللقاء بحاجة أن نهيء لك الأجواء فيه... هل أنت مستعجل؟ قالها بفتور شديد.

ـ أنا أريد بطبيعة الأمر أن أنجز مهمتي ولكن إذا الأمر بحاجة إلى وقت فلا بأس في البقاء هنا.. في أديس أبابا.

ابتسم آدم ولاليت كلاهما... ثمّ قال آدم:

ـ أعتقد أنك بحاجة إلى وقت أيضاً لتتعرف إلى أديس أبابا.

فجأة استدارت لاليت نحوي وقالت، بصوت مؤدب، رسمي نوعاً ما، وعلى النحو النائي الذي تنحوه امرأة تحاول أن تأخذ زمام المبادرة:

ـ اليوم الريح ساكنة يمكننا أن نقوم بجولة جميلة. هل تعرف أديس أبابا جيداً؟

ـ لا أبداً!

ـ أتمانع أن أخذناك بجولة...؟

ـ بالعكس يسعدني ذلك.

* * *

نهضنا من أماكننا، وذهبنا خارجين من الفندق نحن الثلاثة. لا أعرف

ماذا شعرت في داخلي لحظتها، بالتحرر ربما، بالانطلاق، بالانعتاق، من موضوعي، من الفندق، من فكرة الثورة؟ لا أعرف شعرت لحظتها وأنا اتلقف جاكتي وانطلق مع هذا الثنائي الأثيوبي إلى شوارع المدينة التاريخية، بسعادة كبيرة.

عالم جديد

مع لاليت وآدم كنت أحاول أن استكشف أثيوبيا الآن وفي هذه اللحظة، كنت أحاول أن أمسك أفريقيا في البناية الشاهقة أمامي، في التراب الأحمر الذي يغمر حذائي، في السيارات الصفر العتيقة التي تصفر محركاتها في آذاني، في الأشجار الخضراء الباسقة، والممتدة نحو سماء صافية، وشمس ذهبية، شمس حقيقية من ذهب وضوء.

كنا مشينا في شارع تشرشل الواسع، وتسكعنا ونحن نأكل الفاكهة قرب ضريح الملك منليك عند كاتدرائية السان جورج. وأخذت أتساءل لحظتها: أفريقيا التي أبحث عنها في أثيوبيا أين سأجدها؟ هنا في الشارع والكاتدرائية أم في جسد لاليت الفتي والبض وفي حركاتها الحرة الطليقة.

كنت أرى أثيوبيا في قدرة محدثتي على إثارتي، لا في تمثال أبيون بيتروز المشيد في أرادا، حيث واجه الأب فرقة الإعدام بشجاعة متحدياً الفاشيين. كنت أراه في هذا التعامل الحر مع الجسد لا في نصب تغلاشين أمام مكتب البريد، أو في الشهادة الباقية من المعركة المشهورة ألادوا في العام 1896 حيث انتصرت أفريقيا على الكولنيالية الغربية.

كنت أقول في نفسي لماذا يتركون الجسد مهملاً ويتحدثون عن برج الحرية في أرات كيلو، وعن نجاحات أثيوبيا ضدّ الإيطاليين، وضدّ الخيانة السياسية للبريطانيين؟

شيء مخيب أليس كذلك؟ مصدر هذا العذاب الذي تسبب للناس. ومن جانبي ما كنت قادراً على السكون أبداً، استمرأت الجملة الأخيرة وسكت.

غير أن الحديث استمر بعد ذلك. دون أن أعيره كبير اهتمام، إذ إني كنت مشدوهاً فجأة، مأخوذاً عن الكلام الذي يخشاه الأثيوبيون، ولا أشعر بالتحسن على رنات كؤوس البيرة والنقاش والضحك، ثم يتغير الحديث تقريباً، على الأقل في نبرته، ولكننا نستمر في البحث عن أفريقيا ومجاهلها.

* * *

بقيت في أديس أبابا أسبوعين كاملين على هذا النحو، كل يوم سهر في البارات التي كان يؤمها الثوريون، لقد شهدت الحياة التي حلم بها الجيل السابق لجيلي في العراق، جيل الثورة كله تقريباً، جيل الثورة الذي حول حياة جيلي إلى هراء وخراء. فضاءات أديس أبابا المفضلة لدى الثوار، شوارع العواصم الخلفية والأقبية السرية، حانات المجرمين والثوار العاطلين، عاهرات الملاهي اللواتي يقدمن لك على حسابهن الخمور الرخيصة، القتال في نوادي القمار من أجل سنت واحد، الركض وراء النساء المطلقات والاستمناء في التواليتات العمومية، وأخيراً هنالك الصحفيون الذين يبحثون عن الفطنة في الظلام الروحي.

* * *

هكذا أمضيت وقتي مع آدم ولاليت. لقد جربت أسلوباً جديداً تماماً في الحياة، الأسلوب الأفريقي، إنه الأسلوب الواطيء والمتقطع واللين والبسيط.

لقد عشت هناك وأنا أرقب يومياً عامل البار الأسود المتملق، الرجل الأشعث ذا الشعر الأبيض والجلد الأسود، عشت هناك وسط القذارة والوسخ ولكنها أعظم من كل مكان نظيف ومريح عشت فيه، لقد نمت مع النادلات السوداوات في علية البارات وقبلت شفاههن الملونة كالدخان.

رحلة أكزوتيك

وفي يوم سمعت مصادفة أني يمكنني أن أذهب إلى معسكر قديم، خارج أديس أبابا، مهجور هذه الأيام كان الثوار العراقيون قد تدربوا فيه، فحملت حالي وذهبت هناك، غير أني تهت. وشعرت للمرة الأولى ربما ربما هنالك شخص ما يراقبني...وأخذني دون أن أفهم منه أو يفهم مني شيئا إلى البوليس.

وبعد أن قضيت ليلتي الأولى في حجرة ضابط البوليس القذرة، بين القناني الفارغة، بين الفرش والملاءات الوسخة على الأسرّة المتهرئة، وكانت الجرائد وأعقاب السجائر متناثرة في كل مكان على الأرض.

ـ من أين أنت؟ سألني ضابط حدود.

ـ من أميركا. قلت له.

هكذا انتهت ذاتيتي الأولى كعراقي، صفة غير شعبية هذه الأيام في العالم وهي مجاورة طبعاً لأفريقي بسبب الحروب والفوضى ـ وحلت محلها واحدة أخرى، أميركية بطبيعة الأمر!

صفن بوجهي طويلاً قبل أن يدلي بكلمة. أخيراً وجد الحل: الركوب على ظهر دراجة هوائية، أما السائق فهو: عاهرة ريفية من المنطقة الحدودية البعيدة ستنتقل في الفجر إلى مركز المدينة بحثاً عن الرزق!

ها أنا الآن في أفريقيا الحقيقية.

* * *

غادرت المدينة الحدودية عند الفجر على المقعد الخلفي من دراجة هوائية تقودها عاهرة، ترتدي نظارة شمسية جعلتها تبدو مثيرة للضحك، وتنورة قصيرة دون كالسون، وكانت قدرتها على حفظ توازن الدراجة الهوائية شيئاً من الجمال النادر.

قالت لي ونحن في الطريق، أنها ضاجعت فيما مضى رجلاً فرنسياً، وآخر أميركياً! وتحسرت لأنها لم تذهب مع أي منهما، فقد كانت تحب أفريقيا!

ثم ضربت على رأسها وقالت:

ـ كنت ذلك الوقت غبية!

مرت بي خلال مجاميع كبيرة من العمال الذين يعملون بكباين الطابوق، ويمارسون عملهم بمشقة، كلهم كانوا يعرفونها. عمال زنوج يتصببون عرقاً بينما تتصاعد سحابات من الدخان على مقربة منهم، يجمعون الكتل الطينية من برك موحلة كبيرة، أما الطرقات المؤدية لهم فقد تحولت إلى مستنقعات تبعث رائحة الأرض الشهية.

ـ آه لو العالم الغربي يعرف بي. قالت بحسرة!

كانت تعتقد أن الغرب، الخبير الوحيد بشؤون الفوضى الأفريقية، هو منقذها، وإن نجماً سينمائياً وسيماً من أميركا يتبرع لشؤون العاهرات الأفريقيات على الدوام يمكنه أن يتزوجها، وأنها حصلت مرة على قليل مما أرسله لهن. كانت عيناها تفضحانها، تغرقان بالدموع وهي جالسة أمامي في مطعم ريفي على الطريق، تحدق في طبق من طعام غير محدد الشكل والطعم، ذلك لأن الغرب ـ الخبير الوحيد بشؤون الفوضى الأفريقية، وربما هو خالقها ـ لا يعرف بمواهبها.

كنا نعبر من قرية إلى أخرى، وفي الطريق نلتقي بمجاميع مسلحة تقطع الطريق وتأخذ مني الأتاوة، حتى شككت لحظة أنها تمر بي متقصدة في هذه الأماكن، ثم زال شكي حين اقترحت على ثلاثة مسلحين أن يضاجعوها بالدور مقابل أن يفرجوا عني، فهذه المناطق المتأخرة جدا تقطنها أخطر المليشيات، ويسيطر عليها قتلة الحروب الأهلية التي اندلعت في أفريقيا، ويعرف الناس عنهم قصصاً مروعة ومثيرة: قتل، وسلب، وذبح، وعمليات تعذيب عابثة لا سبب لها، وإبادات مجانية تذكر بأيام جوزيف كونراد في هذه القارة الثرية والتي يهجم عليها الأوربيون من كل مكان.

* * *

ربما كل هذه الفوضى حدثت بسبب فشل الثورات وتحولها إلى حروب أهلية.

كنت أتساءل كيف انتهت الثورة إلى هذا؟ كنت أفكر بأسئلة لا تحصى، وأنا جالس بشكل مضطرب خلف هذه العاهرة الزنجية التي أركبتني على دراجتها الهوائية العتيقة، وما أن أخذت تدور الدواسات بقوة، حتى أخذت ترفع مؤخرتها الكبيرة عالياً، فأصبحت مؤخرتها بمواجهة وجهي، دون كالسون. يا للروعة. أما توازنها عبر الطرق المطيرة والوحل فكان شيئاً مثيراً حقاً.

تتكلم. وتتكلم. إنها لا تتوقف عن الكلام. ترفع مؤخرتها في وجهي وهي تدفع الدواسات بقوة.

أضحك يختل التوازن. وهكذا أبقى صامداً وممسكاً بسدل الدراجة، وجهي بمواجهة مؤخرتها تماماً. وحين أحرف وجهي قليلاً عن مؤخرة تمرات ـ هذا اسمها ـ أرى أفريقيا بكل أساها وروعتها:

ضفاف أنهار مملوءة بالتماسيح. غابات سافانا مشبعة ببخار الماء وهو يتصاعد على أشعة الشمس الشتوية. خمائل أشجار صغيرة تنيرها أشعة شمس لا حد لجمالها. أوراق مبتلة. ثراء طبيعي مذهل. لون أثيري يخترق السهول الممتدة. ظلال بلون الحبر المخفف بالماء. عيون أفريقية تعكس الضوء بلونها الداكن. قطرات عرق تتلألأ فوق وجوه بنية.

ما أجملك أفريقيا.

جمال وحيد

مر أسبوعان وأنا على هذه الحالة، كل يوم خروج من الفندق سهر في البارات دون أن أتمكن من رؤية عراقي واحد.

العراقي الذي تعرفت عليه وحدي هناك، لم يعرفني عليه لا لاليت ولا آدم، هو شخص غريب الأطوار اسمه جمال وحيد. كنت تعرفت عليه في الفندق وبصورة مثيرة حقاً. فقد كنت أجلس دائماً على منصة بار الفندق وأغازل ماريام النادلة الجميلة والعذبة. مريام سمراء سمرة محببة، فارعة في طولها، وملامحها سكسية حراقة، كان يعجبها أن تتحدث معي بصوت عال وتضحك ضحكاتها المغرية، كلما يأتي أحد الزبائن تؤشر بيدها لي كأنها تقول:

«أنا عائدة»

تقدم له طلبه بسرعة وتعود لنواصل كلامنا.

كنت أقضي معها أكثر الأوقات إثارة ومرحاً لاسيما قبل أن يأتي آدم أو لاليت، فتنسحب ببطء موحية لي بعينيها، بحركة صغيرة من العينين اللامعتين الذكيتين أنها تتركني، وكانت تعرف بطبيعة الأمر أن كل مغازلاتي لها هي سدى، لأن لاليت معي طوال الوقت.

طبعاً أن يقول شخص ما لامرأة بأنه عراقي، فهي صفة غير شعبية في كل مكان تقريباً، نظراً لما يراه الناس من مشاهد قتل وتفجير في التلفزيون

ـ في الغالب أقول أميركي ولا سيما مع الشرطة أو مع الموظفين الرسميين

ـ مع ذلك لم تبال ماريام بهذا الأمر سوى أنها قالت هناك شخص جذاب يأتي هنا ليشرب العرق، وهو شراب قوي جداً مصنوع من تخمير السمسم، قالت لي إنه عراقي أيضاً، وسألتني إن كنت أعرفه أم لا.

طبعا توسلتها أن تدلني عليه حالما تراه، وتملقتها بكل كلمة إطراء ممكنة، وداهنتها، وتوسلتها ألا تذكر شيئاً من هذا الأمر أمام لاليت أو آدم. فتجمدت ملامحها في وجهي لحظة، ثم وافقت.

طال الوقت طبعاً، كنت أسألها كل يوم ولكن دون نتيجة.

وفي يوم هبطت في الساعة الثانية عشرة ظهراً، استيقظت متأخراً جداً بسبب سهرة طويلة في الليلة الماضية، كانت لاليت قد غادرت فراشي مبكراً، وربما جاءني آدم ليتناول إفطاره معي ولم يجدني فغادر هو الآخر أيضاً. فجلست عند ماريام على البار لأتناول إفطاري من القهوة وإلى جانبي كان يجلس شخص بشعر طويل نصف أشيب، طويل ونحيف ومن ملامحه بدا لي لأول لحظة بأنه من الشرق الأوسط ـ صفة نطلقها على العرب في أميركا ـ مع إني لم أنظر بوجهه مباشرة، ومن الملفت للنظر أنه في هذه الساعة من الظهر كان يشرب العرق.

يصب في الكأس الذي أمامه قليلاً من الشراب. ينتظره طويلاً، ينظر إلى أمام بشكل صامت ويدخن ببطء، ثم يمسك الكأس بيده ينظر له نظرة قصيرة وبحركة سريعة يعبه في جوفه دفعة واحدة.

طبعاً من الطريقة هذه في الشرب عرفت أنه عراقي، طريقة في الشرب معروفة جداً لدى بعض الناس في بغداد.

مع ذلك لم أتكلم معه، كما لم أسأل ماريام عنه، ولم أبادر بأي شيء إزاءه أو إزاءها، بل كنت أنتظرها هي التي تقول لي شيئاً عن ذلك.

جلست أمام ماريام على الستول العالي قبالة البار الخشبي وأخذت أشرب القهوة، كان الصداع قد فلع رأسي، ولم أكن قادراً على الضحك أو المزاح أو المغازلة، مع ذلك كنت أحاول بكلمات قليلة استدراجها، وكنت أتصنع المزاج الرائق ولم أكن أملك منه شيئاً، وكنت أضحك معها، وأشير لها ببعض الكلمات الموحية مثل كل يوم، وهي كانت ترن بجرس ضحكتها وتتخطف بحركتها السريعة والرشيقة.

ولكن ما أتعب أعصابي فعلاً، وجعلني لحظة أشك بأني أخطأت في تقديره، هو أنها لم تنطق بكلمة واحدة عن هذا الشخص الجالس على مقربة مني، ولم تقل بأن هذا هو العراقي الذي حدثتك عنه. أبداً. وكانت تلبي طلبات الزبائن بصورة سريعة، وتعود لي مثل كل مرة وتقترب مني لتوشوش في أذني كلمة، وتهرب مسرعة لتغسل الكؤوس في المغسلة، أو تصب القهوة أو البيرة لتلبي طلب زبون ما، ثم تعود لي لأقول لها كلمة، وأنا أشرب القهوة وأدخن، بينما كنت أشعر بأن رأسي من الصداع أصبح بحجم الحجرة.

مع ذلك لم تفتر رغبتي بمعرفة هوية الجالس على مقربة مني، وأخذت أتكلم معها بصوت عال، وذكرت لها شيئاً مثيراً للانتباه، قلت لها بأني أريد الاتصال ببغداد اليوم تلفونياً، منتظراً ردة فعلها أو ردة فعله هو أيضاً، غير أن كلامي مر عابراً ولم يثر لديها أي شيء، كما أنه لم يثر لدى الشخص الجالس على مقربة مني أي شيء أيضاً، فهو لم يلتفت نحوي، أو ينظر لهذا الشخص الذي سيتصل اليوم ببغداد، مع أن جملة من هذه ستجعل أي شخص لو كان عراقياً بطبيعة الأمر أن يلتفت، ويقول على الطريقة العراقية أنت من بغداد؟

وبعد ذلك نتبادل كلمات مجاملة قليلة، أو أسئلة من طبيعة الأسئلة

التي تسأل في تلك الأيام، ولا سيما أسئلة الفضول العراقي الموسوسة والتي تنغر في التفاصيل، من قبيل: من متى وأنت هنا؟

ما هي الأوضاع هناك؟

وطالما كنت أدير في رأسي وحدي هذا الأوهام شعرت بأن الأمر كان محبطاً من أوله إلى آخره.

بعد نصف ساعة تقريباً، وبعد أن يئست تماماً من أي أمل، وشعرت بأن عليّ العودة إلى الحجرة لأتناول قرصاً آخر من البنادول، طلب منها هذا الشخص شيئاً ما، قال لها بالأمهرية شيئاً لم أفهمه، فجأة تجمد وجهها بوجهه لوهلة، سكنت ثم تحركت عيناها صوبي بسرعة وصوبه أيضاً، ثم التفتت لي وأشرت بيدها لتجمع بيننا الاثنين، وقالت بالإنكليزية هل أنتما تعرفان بعضكما؟

ثم التفتت لي بشكل خاص، وقالت لي هذا العراقي الذي حدثتك عنه!

التفت لي هذا الشخص الجالس على مقربة مني، وهي المرة الأولى التي ينظر لي فيها منذ جلوسه، فقد كان ينظر إلى أمام، يشعل سيجارة بعد أخرى، ويشرب بهذه الطريقة القاتلة.

نظر لي مرتبكاً بطبيعة الأمر، تبلبل من سرعة الأحداث المتلاحقة، ودون أن أدعه يفلت مني، هبطت من على الستول العالي على المنصة، وتقدمت نحوه لأصافحه، ارتبك قليلاً أمامي بكلمات متعثرة، ثم غير السيجارة من يده اليمنى إلى اليسرى، وصافحني دون أن يهبط من الستول.

وسألته هذه الأسئلة الفضولية المعتادة، منذ زمان وأنت هنا؟

قال: نعم!

من متى؟ سألته.

قال: من العام 1983.

فعرفت من التاريخ أنه من الذين أبحث عنهم.

غير أنه لم يسألني أي شيء لا عن عملي، ولا عن وجودي هنا. ولا عن العراق ولا أي سؤال آخر، لقد اكتفى بأجابتي على أسئلتي بكلمات مقتضبة.

فجأة خطر في بالي أن أدعوه على غداء في الفندق يوم غد.

قلت له أنت معزوم على الغداء هنا في مطعم الفندق، انتظرك غداً في الساعة الثانية ظهراً، ابتسم لي، ولم يعتذر، وافق بسرعة، ربما أخذ عنوة فلم أترك له الوقت كي يفكر أو يعتذر.

ثم انسحبت منه بسرعة، وصعدت إلى حجرتي.

* * *

في اليوم التالي جاء جمال وحيد في الساعة الثانية ظهراً، كان طويلاً، نحيفاً، شعره الطويل مشدود إلى وراء، وقد وخطه الشيب قليلاً، ملامحه وسيمة، وعيناه ذكيتان.

تصافحنا بهدوء وتبادلنا عبارات مجاملة، ثم جلس أمامي، وأخذنا نتكلم على الغداء أشياء عارضة عن أثيوبيا وعن الوضع السياسي هناك، وعن العراق، والاحتلال، ولم يبد أي موقف أزاء الأميركان مع أني حاولت استدراجه، ومن تحليله ومواقفه عرفت أنه من الشباب الذين غادروا بغداد في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات حينما بدأ صدام حسين حملته بمطاردة الشيوعيين وقتلهم.

ثم اعترف لي بأنه كان سجيناً سياسياً في الثمانينات، وأنه هرب أولاً

إلى الاتحاد السوفيتي، وعمل في وكالة نوفستي، ثم جاء أديس أبابا بعد حكم العقيد منغستو.

من هنا بدأت أسأله عن العراقيين الذين جاءوا هنا ذلك الوقت، ولكن حين سألته عن أحمد سعيد، ارتبك ونظر لي نظرة شك طويلة.

قال أنّه سمع به ولكنه لا يعرفه وهو يجهل مصيره ومصير أي من العراقيين هذه الأيام لأنه يعمل منذ زمن بعيد خارج أديس أبابا، ولم يذكر أي شيء عن الجيش الأممي، أو عن المثقفين الذين التحقوا به ذلك الوقت، أو عن العراقيين الذين كانوا يقطنون أديس أبابا.

ـ وماذا تعمل الآن؟ قلت له.

ـ أعمل في شركة أجنبية. أوربية وأميركية لحماية الحيوانات البرية. فنحن نطارد العصابات التي تحاول اصطياد الحيوانات البرية، الذئاب تحديداً، تقتلها وتصدر جلودها إلى أوربا، ونحاول أن ننشئ بمساعدة بعض المنظمات ودول الاتحاد الأوربي محميات طبيعية للحيوانات البرية في أفريقيا.

كان هذا عمله.

وقال أنّه غادر أي عمل سياسي منذ أن جاء إلى أديس أبابا. قال أنّه عرف خدعة وزيف الشعارات المرفوعة منذ كان في بغداد. وذكر معلومة عارضة عن القيادات السياسية في العالم الثالث قال إنهم يهربون ويتركوننا للتعذيب والسجون والهوان.

قالها بشكل سريع وهو يشرب كأس النبيذ على الغداء، ولم يبد أية ملاحظة مهمة أخرى، ومن كلامه بدا أنه غير راغب بالمرة في هذا الحديث، وقبل أن أنهي كلامي، طلب الرحيل قال إنه على موعد مع أحد العاملين في الشركة في شارع تشرشل وعليه أن يذهب، غير أنه التفت لي التفاتة سريعة وقال لي:

ـ متى أنت عائد؟

ـ لا أعرف متى بالضبط، ولكن بالتأكيد سأعود متى ما أنهي موضوعي.

ـ هل حصلت على موافقة البوليس السري لتكتب في هذا الموضوع؟

ـ لا في الواقع... هل تعتقد أني يجب أن أحصل على موافقة...؟

ـ هذا الموضوع حساس هنا أعتقد من الأفضل أن تحصل على موافقة... على العموم قبل أن تعود إلى بلادك أدعوك لتناول الغداء معي في منزلي.

فوافقت بطبيعة الأمر، نهض ونهضت معه، شكرني على الغداء، وتصافحنا، وبخطوات سريعة أصبح خارج الباب.

يوم أفريقي

ما حدث عند عودتي في الليل متأخراً يستحق وقفة. لقد عثرت على ورقة مرمية من تحت الباب، وهي عبارة عن رسالة مقتضبة مكتوبة بانكليزية ردئية، تقول إن من أبحث عنهم موجودون في بار يقع خارج أديس أبابا، وإنني يمكنني الذهاب إليهم في الغد، وفي الأسفل كتب العنوان.

كنت سكرانا حين قرأت هذه الرسالة، لم أفكر بها كثيرا، فقد خلعت ملابسي ونمت، وفي اليوم التالي، نهضت من فراشي باكراً. ارتديت ملابسي وهبطت إلى صالة الفندق. تناولت إفطاري هناك. وشعرت بأني لن أغير هذا الفندق. كما أن آدم الذي وعدني بتغييره قد نسي الأمر تماماً. فرحت أيضا بوجودي هنا. كتبت الإيميل إلى فيفي التي أجابت إيميل الأمس بكلمات مقتضبة. كما أني قلقت ذلك أن ميمي لم تجبني أبداً. حسن هنالك شيء ما حدث. ربما تأكد لي أنها هي التي كانت ترقبني وأنا أقبل فيفي.

يا للخيبة. ضربت بيدي على جبيني. سأعود إلى حياة من نمط جديد. ربما إلى موقع آخر. لقد تحقق ما يتحقق للمتزوجين عادة: نهاية الاستقرار تماماً.

كان عليّ أن أكتب إلى فيفي:

«فيفي أعدي لي حجرة في منزلك»، وأن أكتب إلى ميمي:

«ميمي أحتفظي بالحجرة كلها لنفسك»

سأنتقل حتماً من موقع إلى موقع آخر. كما لو أن الناس تنتقل من مرحلة ما قبل الثورة إلى مرحلة الثورة. من علاماتها القلق بطبيعة الأمر، الاضطراب أيضاً، وكذلك الخوف من المصير المجهول. ومع ذلك وأنا أتناول إفطاري في مطعم الفندق كنت أتساءل:

«لماذا انتعشت البلدان التي لم تحدث فيها ثورة، بينما تهاوت البلدان التي حدثت فيها ثورات وسقطت إلى الحضيض؟»

* * *

أنهيت الفطور سريعاً، شربت الشاي ودخنت سيجارتي. سرت سعيدا في بهو الفندق. أدركت وبنوع قليل من وخز الضمير، أني كنت سعيدا لأن ميمي لم تجبني، شعرت بأن حياتي الزوجية في طريقها إلى التلاشي، في طريقها إلى الفناء، وهكذا شعرت بسعادة مضاعفة! مع ذلك كانت ممزوجة بوخز الضمير، ولكن عليّ أن أعترف أن العالم حولي بدأ يتحسن، بدأت أشعر بنوع ما من الحرية، شعرت أن كل شيء جميل هنا وحسن الإضاءة، مستخدما مع نفسي التعبير ذاته الذي استخدمه همنغواي في إحدى قصصه عن كوبا... كوبا الثورة... كوبا الأمل... كوبا... ثمّ انتهيت أن قلت في نفسي:

ـ حسن أنا مرتاح في هذا الفندق!

ثم ذهبت إلى موظف الاستقبال وهو ذاته الذي التقيته أول مرة جئت إلى هذا الفندق مع آنكو، وأخبرته بالشيء ذاته، ثم أردفت:

ـ كل شيء رائع هنا.

هذا أمر طبيعي قلت في داخلي، إنه فندق معد للذين يدفعون

المال. خارج هذا الفندق كل شيء سيء. كل شيء مخرب أو في طريقه إلى التخريب. ولكنني سعيد أيضاً، وأريد أن أذهب كي ألتقي أحد الثوار العراقيين خارج أديس أبابا.

اتصلت بلاليت، وأخبرتها بنيتي في الذهاب إلى بار يقع خارج أديس أبابا للبحث عن أحد الشيوعيين العراقيين، ثم شرحت لها الأمر، كيف أني وجدت رسالة مرمية من تحت الباب، فاستغربت جداً، لكنها قالت لي أنها تعرف المكان، فسألتها:

ـ هل تأتين معي؟

ـ آدم لا يعرف شيئاً عن الموضوع؟ بعد أن فكّرتْ قليلاً.

ـ لا لم أخبره.

بعد تردد وافقت، فانتظرتها في البهو.

* * *

جاءت لاليت ضاحكة مبتهجة، تمسك جاكتة خفيفة في يدها، وقد ارتدت قميصاً أبيض مفتوحاً عند الصدر وبنطلوناً من الجينز. استقبلتها أنا قبلتها، وسرنا معاً حتى خرجنا من الفندق. توقفت قليلاً، نظرت لي بعينين مبتهجتين وقالت:

ـ اسمع... هنالك محطتان للباصات واحدة في تيرا قرب ميركاتو، والمحطة الأخرى تقع في رأس ميكونين، وكل الباصات تقريباً باستثناء الذاهبة إلى نازريت وأبرزاي تنطلق من تيرا.

* * *

لم تكن المسافة بعيدة عن الفندق توقفنا أمام الباص الفولفو... كان السائق بديناً ومبتسماً على الدوام. إلى جانبي لاليت، خلفنا امرأة تحمل صندوق دجاج على رأسها وتتكلم بصوت عال. ويتقدمنا رجل بعكازته، وشعره الأشيب طلب مني مساعدته. ساعدته. جلس في مكانه. صعدت لاليت، لكن المشكلة لا وجود لمقعدين فارغين معاً. قلت لها:

ـ اجلسي أنت!

جلست قرب رجل بدين. أما أنا فبعد أن دفعت الأجرة عدت، فلم أجد غير مكان فارغ وحيد في الباص، هو إلى جانب عائلة كبيرة نسبيا، تتألف من الأب في متوسط العمر، الأم النحيفة جداً، وثلاث بنات على كرسي واحد، وأنا على كرسي. ما أن جلست وأخرجت كامرتي، حتى بكت الابنة الصغرى وطلبت من والدها أن يسألني أن ألتقط لها صورة.

ـ نعم سألتقط لها صورة وماذا تستفيد هي... لن ترى الصورة.

توقفت عن البكاء...

ـ ابتسمي....

تك... أخذت لها الصورة. ضحكت البنت، صفقت لها شقيقاتها الأكبر منها. ابتسمت الأم لي وهي تحك خدها بإظفرها، وشكرني الأب وصافحني. ثم تقدم مني شخص كان جالساً في الخلف، يرتدي بنطلوناً أخضر وقميصا أصفر، ويضع على رأسه قبعة، وفي يده خواتم فضية، وسألني فيما إذا كانت هذه الصورة ستنشرها الصحف في الخارج.

ـ لا... لن تنشرها أية صحيفة.

ـ حسن... قال مبتسماً، وعاد إلى مكانه لم أسأله عن مغزى سؤاله.

* * *

انطلق الباص الفولفو بنا بسرعة من أول دقيقة. صوت الموسيقى في أغنية ربما عن الحب عالياً، يتجاوب مع صوت الهورن النفخي الأشبه بالبوق لسائق الباص. والكل يتحدث باستثنائي أنا، حتى لااليت صارت تتحدث مع الرجل البدين بصوت عال، وتضحك معه، عن لا أدري ماذا، الناس هنا بسطاء جدا ويمكنهم التحدث مع بعضهم عن أي شيء.

كنت جالساً قرب الشباك أنظر أثيوبيا الأعماق. وكل مرة لا أعرف كيف، تصبح واحدة من البنات الصغيرات فوقي. إما تدعسني بقدمها أو تضربني دون قصد على رأسي. لم يكن ممكناً لي الانشغال بالطبيعة في الخارج، فقد كان الداخل يرغمني على الانتباه. وما كان ممكناً لي أن أقول يمعودة خلص... خليني اشتغل. الشقيات الصغيرات يتعمدن إقلاقي، يتعمدن شلّ انتباهي، ومع ذلك يذهب ذهني بعيداً، وأنا أحاول أن أتقي الضربات من الأكف السمر الجميلة، التي تأتي مرات من دون قصد على رأسي. قلت في نفسي:

ـ لا يهم هي هذه أيضاً أفريقيا وربما هي أفريقيا الحقيقية.

* * *

أخذ الباص يتوغل في العمق. يسير بسرعة كبيرة على شارع معبد وسط طبيعة لا حد لجمالها، ومن الشباك الذي فتحته قليلاً كنت أتنشق الهواء العذب، أشم الخضرة النضرة، وأشعر بدفء الفضاء حيث تحتضنه الشمس بأشعتها الساخنة الذهبية.

أين ذاهبون نحن؟ إلى مكان مجهول يرقد فيه شخص مجهول لا أعرف حتى اسمه. كنت سعيداً بشيئين الأول أني ذاهب في الطريق لإنجاز مهمتي، والأخرى أردت أن أتوغل في هذه البلاد لا أن أقف على الحافة

كما كنت أفعل فيما مضى، أردت أن أكوت في وسطها، في عمقها بالأحرى: أي بمعنى آخر في أدغالها، في غاباتها، أو أن أذهب إلى قراها البعيدة، والبعيدة جداً.

وهكذا وضعت الخارطة على ساقي وأخذت أؤشر بقلم الرصاص على المكان الذي سأذهب له، وهو بعيد جداً، ربما أبعد بقعة ممكن أن تكون، بما يتسعه سفر ليوم كامل. في النهاية أريد أن أعود إلى الفندق أيضاً، أعود لعملي، لتقريري الذي سأكتبه عن الثوار المجهولين بالنسبة للعالم، والذين ربما بضربة ما، سيصنع هذا التقرير قدراً آخر لي في الوكالة، وقدراً آخر لهم، من يدري.

كانت البنات الثلاث يرمقنني وأنا أعمل على خارطتي، ويستبد الفضول بهن وهن يضعت رؤوسهن أين اضع القلم وأؤشر، وكانت الكبرى تحدث والدها بأصوات باكية شاكية لم أفهم منها شيئاً، إلا أنها تشير نحوي وتتكلم بصوت متوسل. ربما كانت تريد الخارطة التي أستدل فيها على مكاني وطريقي. لا أعرف، حقيقة لا أعرف. ولكني قلت في نفسي: هذا الشيء لن يحدث، يكفي دلالاً لهاته الشقيات الثلاث اللواتي حرمنني من متعة الطريق. وهكذا تجاهلت نظرات الأب المدققة بي، وتوسلات ابنته، وانهمكت طويلاً في خارطتي كي اشعره بانها مهمة جداً لي، وأنني لن أتخلى عنها أبداً، لكائن من يكون، والأفضل له ألا يعير طلب ابنته إذناً صاغية ويطلب مني ان اعطيها خارطتي التي أعمل عليها..

* * *

في الواقع لم يكن انتقالي من أميركا إلى قارة أفريقيا فجائياً بطبيعة الأمر، فقد انغمست طويلاً في موضوع القارة السوداء قبل أن أذهب إليها.

ومع ذلك كانت التجربة بحد ذاتها مثيرة حقاً، لا بقاموسها الشائك والمعقد:

معاداة الثورة، مناصرة الثورة، باتريس لومومبا، فرانز فانون، الحرب الأهلية، التوتسي والهوتو، الثوار، حرب العصابات، إنما بالانتقال حقيقة من موقع إلى موقع آخر.

كنت أشعر وأنا هنالك، أن أفريقيا هي موقع وفضاء لا يشبه أي موقع ولا أي فضاء آخر. فهي لا تلتقي مع أي موقع إلا بتحسس شديد.

وقد قالت لي لاليت قبل أن نصعد الباص، وهي تدخن:

- يقولون لنا حين يحبوننا نحبكم رغم لونكم الأسود، وحين يكرهوننا يقولون لنا لا علاقة للونكم بهذا الكره.

أطلقت دخان سيجارتها في الهواء ورمت العقب قبل أن تصعد الباص وأكملت:

- إننا متعينون عند البيض بالسواد فقط، يريدوننا عبيداً للوننا ولمظهرنا.

كأنما قالت يريدوننا أسرى لموقعنا.

الوصول إلى قرية

بالنسبة إلى الخارطة التي على ركبتي أننا وصلنا. فأردت الهبوط في مكان رسمته بشكل دقيق، بقلم رصاص مبريّ بشكل جيد على الخارطة، رفعت يدي إلى أعلى:

ـ ستوب!

توقف السائق. والكل نظر لي بعيون مدققة.... وربما تساءلوا ماذا يفعل هذا الغريب هنا.

احتجت لاليت:

ـ لماذا نهبط هنا؟

ـ وصلنا! قلت لها.

ـ لا لم نصل.

ـ تعالي تعالي... قلت لها فتبعتني.

كنت مبتسماً كما لو كنت أعرف أين هبطت بالضبط، كما لو كان هذا المكان مكاني، ووزعت ابتسامات على كل العيون والوجوه التي كانت ترقبني في الباص. وحين وصلت الأرض، ووضعت حقيبتي على كتفي، رفعت يدي مودعاً.

ابتسم السائق السمين ورفع يده وأطلق بوق الحافلة طويلاً وعميقا.

ربما هذه هي كانت تحيته، تحية للفضاء أجمع، حيث فزعت كل الطيور من هذا الصوت الأرعن.

وأنا أيضا ودعتهم:

ـ وداعاً صاحبة صندوق الدجاج المرأة النحيفة الوادعة، وداعاً أيها الشيخ الذي صعد الباص على عكازته، وداعا لمرتدي البنطلون الأخضر والقميص الأصفر مثل فنان انطباعي، وداعا أيتها الشقيات الثلاث فقد فلتت خارطتي من بين أيديكن.

أما لاليت وحدها التي كانت غاضبة.

ـ علينا أن نسير مسافة طويلة قبل أن نصل إلى العنوان بالضبط، علينا أن نقطع هذه الغابة كلها مشياً على الأقدام.

ـ لكن الخارطة... لا يمكنني أن أكذب الخارطة...

ـ عليك ألا تثق بالخرائط في أفريقيا... الأماكن تتغير هنا بسرعة لا تلحق عليها الخرائط.

ـ صحيح؟

ـ طبعا صحيح...

ـ حسن ليس أمراً سيئاً أن نسير في هذه الطبيعة الجميلة..

ـ ...

* * *

سرنا في الشارع المترب. كما جميع المارة، هنالك حيث الرعاة الصبيان بعصيهم وبقرهم التي يسوقونها، والخراف التي تلهو، والطيور التي تحلق على نحو واطيء.

الكل كان يرمقني مستغرباً من وجودي في هذا المكان. حسن إنا في أفريقيا، أفريقيا الحقيقية لا حيث تنقلها وكالات الصحافة والتقارير التلفزيونية كقتال أهلي فقط، إنما مزيج من الطبيعة والبشر. بشر جميلون ووادعون، وطبيعة خلابة.

* * *

هكذا وقفت بصمت كامل ومذيب أمام فضاء صاف، مشبع بالضوء، فضاء أبيض أخذ يغشاني مثل نقاء الثلج، مشبع بلون معدني، وبمطر يتساقط على رأسي من خلال أوراق أشجار ضخمة.

تنفست الصعداء حتى كدت أبكي أمام هذا الجمال الذي يتوحد في ذاكرتي مع نغمات منسابة من موسيقي أسود، ونغمات مرتجفة متواصلة تشبه اهتزاز قطعة من الفضة على سطح من المرمر.

سرت في الغابة.

تعرفت على نوع جديد من السحر. شيء غريب حقاً لم أشاهد مثله من قبل أبداً. على الأقل كنت شعرت بنوع من السحر الذي يمارسه الأفريقي وهو يقود حيواناته. ومن بين الأحراش رأيت رجلاً صغير الرأس وهو يستعد للانطلاق في ظلال الغابة خلف قرد صغير. بينما هنالك رجل يتمدد تحت النباتات ذات الصمغ الذي يخرج بين النسغ واللحاء. وهنالك شاب وشابة يتضاجعان تحت نور يتكون من إمبراطورية إعجازية غامضة الألوان.

* * *

خرجنا من الغابة وسرنا في القرية حتى نهايتها، وصلنا إلى طريق معبد تسير عليه سيارات شحن قديمة جداً. سرنا حتى نهايته فوصلنا إلى

مدينة صغيرة. دخلنا في شارع واسع فيه محلات كثيرة. في مقدمة الشارع رأيت كنيسة صغيرة، مبنية على الطراز الكولنيالي الإيطالي. جدرانها البيض عالية وفي أعلاها ناقوس كبير يتدلى بحبل. سرنا حوالي أربعين متراً فرأينا باراً في الركن، اسمه Castles made of sand. اليافطة صفراء وفوقها نيون، وعلى زجاج الفاترينة رسوم لراقصين وراقصات بملابس غربية، مرسومة بالبويا لكنها جميلة، ربما أعجبتني الألوان وشدة سطوعها.

دخلت البار كانت موسيقى أغان أجنبية، لجيمي هاندركس. لا أتذكر الأغنية بالضبط، ربما كانت جبسي آيز، كان المحل بارداً من الداخل. جلست قبالة لاليت على مقربة من صبايا وشباب يرتدون ملابس حديثة، راقية نوعاً ما، وكان معهم رجل وامرأة أوربيان. كانوا أكثر من عشرة أشخاص يشغلون طاولة كبيرة أو طاولتين مع بعضهما. جلسنا عند طاولة صغيرة لشخصين قرب الفاترينة لتسمح لنا التطلع إلى الشارع. كان مزدحما كثيراً بالمارة، وبالباعة المتجولين، ومزدحما أيضاً بالسيارات.

جاءت النادلة بهدوء شديد، تدور بمؤخرتها بصورة مثيرة حقاً. كانت جميلة إلى حد بعيد، رشيقة رشاقة معقولة، أكبر شيء فيها مؤخرتها، لها ملامح ناعمة، سمرتها يخالطها البياض، وعيناها خضراوان تشبه الأرتيريات كثيراً. شعرها مقصوص على ستايل أفريكان، يتدلى من أذنيها قرطان فضيان على شكل حلقتين واسعتين. ترتدي بنطلوناً من الجينز ماركة لفايز، وتي شيرتاً قطنياً عليه صورة جيمي هاندركس.

ـ كل شيء هنا جيمي هاندركس؟

ـ اسم البار على اسم واحدة من أغنياته...

ـ اه شي رائع...

ـ ماذا تشرب؟

ـ أريد بيرة باردة.

ـ أي نوع؟

ـ نوع اثيوبي محلي..

قالت لاليت:

ـ اجلبي لنا اثنين من التارغو...

ـ ماذا يعني؟ قلت لها.

قالت:

ـ أفضل بيرة محلية هنا.

التفت لنا أحد الشباب الجالسين إلى طاولة قريبة، وقال بانكليزية سليمة:

ـ من أين أنتما؟

ـ من أميركا!

ـ تعالا هنا معنا لماذا أنتما جالسان وحدكما؟

نظرت لي لاليت... قلت لها فكرة جيدة.

انتقلنا إلى طاولتهم. أوسعوا لنا المكان... حملوا لنا كرسيين وجلسنا. لم أعرف في البداية ماذا أقول وكلهم يتطلعون في وجهي.

ـ كلكم أثيوبيون؟ قلت بصوت هادئ.

ـ لسنا كلنا... أنا وصديقتي والجالسان هناك أثيوبيون... هذا صديقنا بيير وصديقته كاتي فرنسيان يعملان في منظمة غير حكومية، هذا جيمس ودانا من نيجيريا... أمان من أرتيريا، وهذه نادية من أرتريا أيضاً، ودمبا ومالا من زيمبابوي، وغن من جوهانسبيرغ.

ـ أوه هذا خليط رائع... هنا أفريقيا كلها.

ـ أنت أميركي... سائح؟

ـ لا أنا كاتب جئت كي أكتب عن مجموعة من الشيوعيين الذين جاءوا من كل أنحاء العالم في زمن الشيوعيين... في زمن منغستو... ويقال يرتاد هذه المقهى.

ـ أوه ممتاز...

لاليت لم تنطق بكلمة. وأخذ الآخرون ينظروننا بفضول بينما اهتم الفرنسيان بما أقول. سألت كاتي وهي ترفع خصلة شقراء عن شعرها:

ـ آه هل هم موجودون هنا؟

ـ من المفترض أن يكون أحدهم هنا، وهو يرتاد البار من وقت إلى وقت ويعيش في هذه المدينة الصغيرة... ولكن في الغالب هم في أديس أبابا.

قال أمان:

ـ آه أعرفه، إنه الصحفي الذي اسمه جبر... رأيته اليوم.. كان هنا.... أظنه عاد إلى أديس أبابا.

ـ تعرفه حقاً؟ قلت باندهاش...

ـ طبعاً أعرفه...

ـ أوه هو من أبحث عنه.. وأبحث عن أحمد سعيد...

هنا تجمد وجهه كأني قلت شيئاً مخيفاً.

ـ هل من شيء...؟

ـ لا أبداً..

ـ هل تعرفه...

- لا أعرفه أنا أعرف جبر سالم...فقط.. وهو صحفي...

- كيف نتحقق من مكانه الصحيح..

- إذا انت باق هنا سأتحرى لك الأمر...

قالت لي كاتي:

- أين تسكن في الوقت الحالي؟

- في أديس أبابا!

- نحن نعيش أيضاً في أديس أبابا... هل يمكن أن نلتقي هناك، أنا مهتمة بهذه القصة؟

- أكيد...

- أين تسكن؟

- في فندق في شارع المسكال قرب دبرتسايت.

- نحن قريبون من المكان استأجرنا منزلاً كبيراً هناك...

- من أي بلد هم؟ قالت نادية الإريتيرية.

- الثوريون الذين جاءوا أثيوبيا؟

- نعم...

- من العراق...قلتها بشكل خفيض.

- آه من العراق! قالت بصوت عال، والدي درس في العراق... كان في اتحاد طلبة ارتيريا وفي الجبهة الشعبية لتحرير أرتيريا أيضاً.

- آه...يا للمصادفة! قلت لها، وقد شعرت بفرح حقيقي، فرحت لأنها تعرف، حتماً، شيئاً، عن بلدي الأصلي، من والدها، دون أن أذكر لها أني في الأصل عراقي.

* * *

كانت نادية تجلس على مبعدة شخصين مني، وقد أبدت اهتماماً واضحاً بموضوعي، ولأنها لم تكن تسمع بشكل جيد ما كنت أقوله لها، طلبت من جان الإثيوبي الجالس إلى جانبي أن يأتي مكانها وأن تأتي هي مكانه، وهكذا نهض جان وجاءت هي مكانه. جلست إلى جانبي وأصبح فخذها لصق فخذي، ووجهها قريباً من وجهي، حتى صرت أشعر بأنفاسها وهي تصعد وتهبط على إيقاع صوتي، وأرى من بين قميصها المفتوح تكورات صدرها. بينما كان بيير وكاتي ينظراننا بنظرات مهتمة، أما لاليت فقد انزعجت بشكل واضح وعلني، على عكس الأفارقة الذين لم يعيروا هذه الحركة أية اهتمام.

وهكذا بقيت تقريباً أشرح لنادية مهمتي، ويحاول بيير وكاتي يصغيان لي من بين الأصوات المتداخلة، ولا سيما صوت الذي اسمه غن، والقادم من جوهانسبيرغ الذي يشبه الطبل، ودمبا من زيمبابوي التي تتكلم الإنكليزية بلكنة أفريقية واضحة.

ثم جاءت البيرة، ودارت الكؤوس، كأسا بعد كأس، وسرت الخمرة في دمائنا، وهكذا أصبح النقاش عاماً، بيننا جميعاً، وبصوت عالٍ تقريباً. لقد ناقشنا أشياء كثيرة على الأضواء الخافتة، وموسيقى جيمي هاندركس. ذهبت إلى التواليت وحين عدت وجدت لاليت تجلس في مكاني جنب نادية الارتيرية، فجلست أنا مكانها، وهكذا حجزتني عن نادية وأخذت تغازلني:

ـ هل أنت مهتم بنادية؟

ـ لا أبداً...

ـ هل تهتم بي؟

ـ طبعاً طبعاً، فقربت شفتيها من شفتي وقبلتها قبلة طويلة، ثم

دعتني للرقص. رقصنا رقصة فيها الكثير من الملامسات، كأنها أرادت أن تقول للفتيات الأخريات أنه لي.

وهكذا عادت نادية إلى مكانها ولكنها لم تكن غاضبة أبداً، شعرت بأن هنالك نوع من التواطؤ الأنثوي الذي حدث وبهذا لم تظهر نادية أية غيرة. رقصت مع كاتي الفرنسية، رقصت مع فتاة أثيوبية من طاولة أخرى. عدنا للنقاش مرة أخرى. اتنضم لنا أشخاص آخرون من طاولات أخرى، بينما كان عدد الراقصين في حلبة الرقص يتزايد مع امتداد الليل إلى الفجر.

لقد شعرت فعلاً أن هذا البار، بار استثنائي في هذه المنطقة من العالم. لقد شعرت لحظتها أنني اقتربت كثيراً من هدفي. حتى وإن لم أحض برؤية أحمد سعيد، ذلك أن وجود جبر سالم في هذا البار قد أشعرني باقترابي من الوصول إلى هدفي. كما أني شعرت على الأقل أنه موجود، وأني أقترب منه شيئاً فشيئاً، هو ليس اسطورة من نسج الخيال، إن له وجوداً حياً، إنه كائن يتنفس، يسافر ويغير مكانه، وهنالك أشخاص يعرفونه وقد رأوه وتكلموا معه ويعرفون أخباره، وسوف يدلوني عليه. كنت مبتهجاً جداً، وسعيد بهذه النتائج التي توصلت إليها، لكن هنالك شيء واحد قد حيرني:

من رمى هذه الورقة والعنوان عليها من شق الباب في حجرتي؟

أنا أظن أنه جبر سالم. ولكن لماذا أراد مقابلتي سراً من دون معرفة أحد، الأمر فيه سر خطير لا بد لي من معرفته.

أما الشيء الآخر الذي جعلني سعيداً هو إحرازي تقدماً في العلاقة مع لاليت، تقدماً كبيراً، وهذا أمر مهم جداً، ربما ما كان يمكنني أن أحرزه معها في أديس أبابا ولا سيما بوجود آدم. أما الآن فهي قد تحررت

كما تحررت أنا أيضاً، ولم يعد لي سوى العودة إلى أديس أباب ولقاء الشيوعيين العراقيين.

* * *

لقد كان جو البار حميمياً... وهكذا انخرطت مع الآخرين في النقاش، تكلمنا عن الامبريالية، عن الشيوعية، عن احتلال العراق، عن الكونغو، عن زيمبابوي، عن روسيا وأوربا الشرقية. عن الأدب الأفريقي، عن شعر سوينكا حيث قرأت دامبا بعض قصائده. ضحكنا كثيراً، أحببنا بعضنا، شعرنا بأننا متقاربون، بفعل الخمرة ربما، بفعل الأخوة الإنسانية التي تجمعنا، بفعل موسيقى هاندركس، بفعل أفريقيا، لا أعرف بفعل ماذا. ولكننا شعرنا بأننا أصدقاء... وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد.

هكذا صرخت بهم أن بعد أن دارت الخمرة برأسي:

ـ اسمعوا مع أني أميركي، ولكني منكم.. أنا معكم... ألم تلاحظوا ذلك؟

ـ نعم نعم... لاحظنا ذلك...

حاولت الوقوف على قدمي فدفعت الطاولة قليلاً....

ـ اسمعوا أنا أحبكم جداً!

ـ ونحن نحبك أيضاً! جاءت شابة خلاسية من وسط ساحة الرقص وقبلتني على خدي دون أدنى معرفة لي بها...

أعادوني إلى مكاني لأنهم أدركوا أني سكرت، فأسقطت زجاجة البيرة على الطاولة.. تلقفتها نادية الأرترية التي كانت جالسة جنب لاليت... لكن انسكب نصفها على الطاولة دون أن يصل المسكوب إلى أحد منهم. أخذ جيمس يجفف الطاولة بالكلينس. ثم هرعت النادلة ذات المؤخرة الجميلة المدورة، والأنف الناعم، والعينين الكبيرتين، كي تمسحها بالممسحة.

ـ آه آسف... آسف...

ـ ارتاح ارتاح...اشرب ماء كي ترتاح...قالت لي لاليت وهي تضحك.

ـ لا...أرجوكم أريد أن أحدثكم.. أريد أن أنقل لكم رأيي بصراحة تامة... فأنتم تعتقدون مثلاً أنا أميركي، وعليكم أن تجاملوني، تجاملوني على أغاني البوب، والتايم سكوير، والديمقراطية والخ...

ـ صدقنا نحن لا نجاملك... نحن نحب الأدب الأميركي حتى وان كنا ماركسيين. قالت الفتاة الجميلة القادمة من زيمباوي.

ـ لماذا تعتقدون أنتم، أننا حينما نحمل قيماً مثل قيمكم... أننا نجاملكم!

ـ حسن... ما أردت قوله لكم... أنكم تعتقدون بأني أميركي، رأسمالي، وإمبريالي... ولكنني في الواقع ماركسي... وما زلت أؤمن بالمادية الديالكتيكية وديكتاتورية البروليتاريا... وأنا أيضا عراقي... أنا تقريباً مثلكم.. يمكنكم أن تعتبروني واحداً منهم (شكرا للآلهة أن ليس هنالك أحد من الوكالة يسمعني... فأنا طالما كنت أحدثهم، وأقول لهم... أن مشكلتكم هو أنكم ما زلتم تعاملوني كعراقي في حين أني أميركي مائة في المائة، أما ماركسي... ومادية ديالكتيكية، ودكتاتورية البروليتاريا... فهذه الأشياء لم أذكر لا إيماني بها في الوكالة أبداً)!

ـ أنتم تعرفون أن الغربيين قد استعمروا فيما مضى هذا المكان، الاستعمار هو بطبيعة الأمر تغيير أيضاً. إنه مثل الثورة دون شك. يتعلق بتغيير المواقع، من موقع ما قبل الحداثة إلى موقع الحداثة. من العاري إلى الكاسي، من النيّء إلى المطبوخ، من العسل إلى الرماد، هكذا كان الرجل الأبيض يفكر بغيره أليس كذلك؟

ـ ربما هذا ما خطر في باله وليس حزمة المصالح. قالت نادية الإريترية التي لم تكن مع سياسة أسياس أفورقي في إرتريا.

ـ أو كان يقول إنه لديه حزمتان حزمة المباديء وحزمة المصالح؟ أنا قلت لها وأكملت:

المباديء هي من أجل أن ينقلكم كما كان يعتقد من البدائية إلى الحضارة!

عم البار الضحك... ربما لأني قلت البدائية...

أستخدم أحياناً تعبيرات غير دقيقة، ولكني لا أجد ما يناسب غيرها.

ـ لكنه نقلكم من موقع كل شيء: الغابة، والجنس، والتصالح مع الحيوانات والأشجار إلى موقع اللاشي، أي موقع العبيد والأجراء والخدام، من موقع المشاعية التي يتساوى فيها الجميع إلى مجتمع الطبقات، أليس كذلك؟

ـ أوه أنت سكرت.... قالوا بصوت واحد...

ـ سامحوني ولكنكم تقولون إن الحداثة هي حلم هذه المجتمعات. نعم إنه حلم بالتأكيد، حلم أن تتحول الغابات إلى مصانع! لكن الحداثة عند الغربيين هي الثروات المعدنية التي يستخرجونها من باطن الأرض، الثروات ستذهب لهم وسيقدمون لكم مكانها البضائع البلاستيكية: نعالات، طناجر، أدوات أخرى مصنعة.

ـ ولهذا حدثت الثورات هنا! قال أحدهم...لم أكن أتبين وجهه في الظلام.

ـ حسن جميع البلدان اليوم في العالم اللاغربي تسير على نحو متسارع إلى نوع من الانحدار السريع والصامت: حروب أهلية، فوضى، تدهور يفوق الخيال، طرق مسدودة بالطين، مختنقة بالشجيرات، طرق تتلوى مئات الأميال قرب مياه تندفع بقوة ثم تنحسر موجاتها مخلفة وراءها الحداثة الغربية:

بنيد سيارة بيكب صديء، مزرعة بن تحولت إلى أرض قاحلة، مدن محطمة، طرقها لم تعد طرقاً، بيوت تجاهد كي تبقى على قيد الحياة، رجال جوعى متوترون وصامتون، عالم يتم تفكيكه ليباع سلعاً، أواني من الألمنيوم، أعقاب سجائر، ملابس مصنعة كالتي تحملها قوافل الدراجات، وفي المقابل، يأتي الرجال البيض ليحصلوا على كل شيء. كميات هائلة من الأخشاب واللحوم والذهب تتدفق خارجة من الغابات إلى أوربا، حيث يسلب تلك الثروات من المواد الخام تجار بيض وسماسرة سود غير أمناء.

قال الأوربي الأشقر الذي يذكر بأبطال روايات المغامرات الأوربية في أفريقيا:

ـ دول كثيرة انهارت بهذا الشكل الكارثي لتعود أسوأ مما كانت عليه من قبل، تبتلي أولاً بالكولنيالية، ثم تأتي الثورة لتخلص الناس من نير الحكم الكولنيالي، لكن الثورة يقودها دكتاتوريون يعيدون السياسة ذاتها بل بصورة أبشع من السابق، وهكذا تبدأ الانشقاقات ويتم اجهاض الثورة. ولكن الأمر لا ينتهي إلى هذا الحد بل تبتلي البلاد بالحروب الأهلية والفوضى.

ـ أوه أنكم مثل كل المثقفين في العالم الثالث تقرأون: فرانز فانون، نجوجي واثينجو، إيميه سيزير، ديريك والكوت، وول سوينكا! تتحدثون كثيراً عن الثورة، عن أشياء كثيرة ومهمة تحدث في كل العالم، لا في عالمكم فقط، تتحدثون عن عالم أبيض بعيد لا يعترف بكم، وعالم آخر تحلمون بوجوده ولكنه يمتنع ويبتعد عنكم.

ـ ما معنى الثورة؟ قلت لهم وأنا أشرب من كأس البيرة. سقطت بضعة قطرات على قميصي، مسحت فمي وأنا أتكلم.

جاءني الصوت ربما من الخلف:

ـ الثورة هي ذلك الحلم الذي تراه في أعين الرجال الذين يقودون الحمير التي تحمل الأسلحة وتتقدم في مزابل القارة. أو في أعين النساء اللواتي يتدحرجن بعيداً، يحملن أسرار الثورة، هابطات منحدرات التلال، بصبر نافد.

ـ ألهذا تحدث الثورة؟ قالت كاتي.

ـ لا ليست لهذه الأسباب فقط... صاحت الجميلة التي من نيجيريا.

ـ أعرف ولكن هنالك حد... الحد الذي تصبح فيه الأشياء لا تحتمل... عندها يجد الناس أنفسهم على الشفير الأخير من الهاوية، الثورة تندلع، تعم الاحتفالات لمدة عام أو عامين، ولكن هذا الأمر لن يدوم إذ سيسرق الثورة أحد الثوار من الآخرين، وسيقتل رفاقه بسرعة كبيرة، وستظهر أدبيات جديدة وكتب ومنظرون يتحدثون عن المنحرفين والمنشقين، ومن ثم تأتي المرحلة الطبيعية للثورة وهي:

ثورة داخل ثورة، أو المرحلة التصحيحية للثورة، وفي هذه المرحلة تقريباً تعقد الصفقات، أو في هذه المرحلة تقريباً تفكك الدولة وتباع سلعاً في السوق السوداء، وعندها فقط سنرى النساء شبه عاريات وهن يفتشن عن حبات القمح في الوحل.

ـ إنّ أفريقيا ما بعد الثورة مثل امرأة سوداء تحمل شوالاً ضخماً مكتضاً بأحذية من البلاستيك الرخيص، على مقربة منها شحاذ يحتضر.

قالت دامبا التي ترتدي تنورة قصيرة وقميصاً يظهر سرتها، وتمسك بيدها سيجارة طويلة وتدخن.

خذوا هذه الصورة من واقعين متقابلين:

ـ بالتقابل مع الأحرار المستعدين أن يفقدوا كل شيء من أجل

مسيرة الثوار ذوي الملابس الرثة، والفقراء الذين يقطعون الطرق التي بناها الأوربيون بعد أن تحولت إلى طرق ريفية مهدمة، هنالك المليشيات التي ترتدي الملابس العسكرية المتهدلة التي وردها لهم تجار السلاح غير الشرعيين. وأمام العاهرات المسكينات في عباءاتهن الحمر القانية، واللاجئين الغائري العيون، وعمال المناجم الذين طال بحثهم عن نسائهم اللواتي اختفين في الحرب الأهلية، والباعة الباحثين عن قوت يومهم، هنالك مجموعات من مثيري الحروب الأهلية، وميليشيات الإبادة الجماعية الملطخين بالدم البشري.

* * *

كانت الخمرة تدور في الرؤوس ذلك الوقت. الجميع سكر لحظتها. أنا في مقدمة الذين سكروا. بينما الرقص يزداد، النقاش يصبح أكثر حماساً، الكؤوس تأتي بلا عدد إلى الطاولات، وكانت ساحبة الهواء تطرد رائحة الكحول، رائحة الماكياج، نفحات الأجساد إلى الخارج ولا تتراءى لنا أفريقيا، سوى الذهب المنهوب من باطن الأرض، والمجاعة المهولة رغم الأبقار الكثيرة. والحروب الأهلية والمليشيات الباقية التي تطوق الطريق، وحروب القبائل والمتمردين.

كنت أنظر هذا الحشد الجميل من النساء والرجال، فأشعر أن أفريقيا الحقيقية هي في هذا الجسد الذي ينطق دون أن يعير الصراعات الكائنة في كل مكان أية أهمية.

قلت لهم بصوت عال:

ـ أنا أحبكم... أحبكم جداً....

ـ أوه... تصفيق عال وصفير...

شعرت بالانتعاش...

رفعت كأسي إلى أعلى... كان فارغاً...

ـ فارغ... فارغ... صرخ الجميع مبدياً احتجاجه.

ناولتني لاليت القنينة نصف ملأى! صرخت:

ـ بصحتكم...

ـ بصحتك..

ـ بصحتكم جميعاً... بصحتكم... اسمعوني...

ـ اسمعوه... اسمعو... قالت لاليت وهي تضحك.. وتساعدني على جعل الآخرين يسمعونني.

ـ إنها صورة ما بعد الثورة ترونها في أفريقيا وآسيا في نفس البرواز تقريباً. أنقلها لك كما رأيتها تماماً:

نساء ينحنين عند الخصر ليحملن بضائع ساقطة في الطين، نساء نحيلات هزيلات ضامرات، عيونهن تلمع من الاجهاد ويعاملن من قبل الجميع بخشونة وعنف، يعاملن من قبل الأسياد مثل محظيات، يضاجعونهن ويتركونهن لمصيرهن.

وهنالك يبحثن في الأرض عن بعض الأرز في التراب، عن ملابس داخلية ترميها السيدات الشقراوات، أو عن قوارير بنزين وعلب كوكا كولا.

صرخ جيمس: آه.. ماذا خلف الاستعمار لنا؟

قالت له دامبا: ماذا خلفنا نحن مما أبقاه الأستعمار؟ ثم استأنفت كلامها: لقد شيدوا لنا مدناً كبيرة ولكننا دمرناها. رد عليها: لقد شيدوها لهم، وحين خرجوا تدمرت.

قالت نادية:

ـ هل كان يمكن الاحتفاظ بها أو تطويرها؟

ـ لن يسمحوا لنا بذلك. قالت النايجيرية.

هههه تصفيق... وصفير.... ثم أخذنا نرقص... رقصت أنا مع لاليت، التصقت بجسدها وهي ترقص، لإغرائي كانت تتفلت مني، وأنا ألاحقها. كان قميصها مفتوحاً يكشف عن صدر نابض حي أسمر، كانت حرارتها عالية، رائحتها رائحة حيوان مشبوب، تحاول إغرائي تقترب مني، تلتصق بي، حين أقترب منها أكثر تهرب. حاولت جرها من يدها وتقبيلها قرب البار انفلتت من يدي. عدنا إلى حلبة الرقص. رقصنا جميعاً رقصات متنوعة شعبية وغربية وعربية وكل شيء. حملنا الكؤوس إلى أعلى، شربنا بصحة كل شي حتى بصحة حذاء النادلة! تطوحنا في البار من السكر، قلبنا الكراسي، ركضنا وراء بعضنا ثم انتهينا في الشارع ونحن نضحك ونغني.

* * *

في الصباح كنت في شقة ما، شقة أحدهم... لم أكن أعرف شقة من. لم أكن أعرف أين أنا. كنت عارياً في الفراش إلى جنبي جسد عار لم أتبينه في البداية، لم أعرف من تكون. ثم عرفت أنها لاليت.

ـ يا إلاهي نحن في شقة من؟

ـ لا أعرف.

كانت نصف غافية إلى جانبي.

ـ الأفضل ألا نعرف وابتسمت لي.

نظرت لها:

صدرها الصلب، بطنها المدورة، شعر عانتها الملتف بصورة خفيفة، أفخاذها المسحوبة برشاقة.

اقتربت مني. عانقتها. طوقت ذراعي على رقبتها وتقدمت ليصبح جسدي كله لصق جسدها، دفعت يدي ثم انقلبت لتكون بمواجهتي تماماً، نظرت في عينيها الملتهبتين من الرغبة، كانت تتنفس بعمق، ثم أخذت أنفاسها تتصاعد، تحسست صدرها، داعبت حلمتيها الداكنتين، فارتجف جسدها، أخرجت لسانها ولعقت شفتي بهدوء وعمق، التهمت لسانها أنا أيضاً، مسكت يديها بقوة طرحتها الى الخلف وانقلبت فوقها، باعدت ما بين ساقيها بركبتي، وأصبحت في شقها كي التحم بها، أخذنا نقبل بعضنا بعض ونحن نتنفس بعمق، وأنفاسنا تتصاعد، أخذت تشهق وتصرخ، حتى غاب كلانا في دوامة النشوة.

اليوم التالي في أديس أبابا

كنا في حجرتي في الفندق، متمددين على السرير عاريين تماماً.

ـ هل تعتقدين أن آدم يعرف مكان أحمد سعيد ولا يريد أن يدلني عليه؟

ـ لا أعتقد... قالت لاليت وقد بدا الاضطراب على وجهها، مالت قليلاً إلى الأمام، ونظرت بعيني بقلق نظرة مباشرة.

قلت لها: لماذا حينما أذكر هذا الاسم تضظربين؟

لم تجبني. سكتت قليلاً كأنها تحولت إلى صخرة. ثم التفتت لي ونظرت في عيني نَظرات مُباشَرة، فشعرت بأنها عاجزة عن تمالك نفسها.

ـ هل هنالك من شيء؟

ـ أبداً...

ـ أشعر بشيء غريب، ثم أني أريد أن أعرف حقاً من رمى قصاصة الورق من شق الباب..

ـ لا أعرف أنا كيف لي أعرف.. وبدأت يدها ترتعش... ألم تقل أنّه جبر سالم ذاته..

ـ ماذا بك يا بنية؟

ـ لا شيء.. لا شيء...

ـ أنا قلت جبر سالم، لأنه يبدو أنه انتظرني في البار كي يراني وبعيداً عن أديس أبابا ثم حينما لم يجدني قد رحل...

ـ ربما..

ـ هل رأيت جبر سالم من قبل؟

ـ أنا؟

ـ نعم أنت..

ـ طبعا رأيته...

ـ هل تعرفين مكانه في أديس أبابا...

ـ أعرف مكانه في أديس أبابا..

ـ لماذا لا تقودينني إليه..

ـ بدا الاضطراب عليها..

ـ من الأفضل أن يدلك آدم عليه...

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف.. إنّه يتحرك كثيراً ربما لا أستطيع أن أدلك عليه..

ـ مازال يتحرك؟

كنت أقصد في التنظيم، في السياسة، إلا أنها أجابتني بطريقة ساخرة:

ـ نعم... يتحرك من بار إلى بار...

ـ ههه.. أضحكتيني...

بعدها تغير المزاج وأصبحنا نتكلم عن الثورات.. قالت لاليت:

ـ هذه الحقيقة.. لم يعد أحد هنا ثورياً... إلا أن الجميع ما زال يتعلق بالماضي... جميع الثوريين هنا أصبحوا ثوريي مقاهي وبارات...

ـ طيب... يمكننا أن نقول أنّ مكان الثورة الحقيقي هو البار... ومكانها المزيف هو السلطة... الثوريون في البار يقولون الحقائق، وفي السلطة لا يقولون إلا ما يفيد مصالحهم.

لم تجبني لاليت إنما بقيت عارية في الفراش وهي تحدق في السقف، حيث كانت المروحة تدور بشكل رتيب ومتواصل... أكملت:

ـ الثورة تتقاعد في البار... الثوري الحقيقي يتقاعد إما في المقهى أو في البار أو في السجن..

ـ نعم يمكنك أن تقول هكذا...

برهة صمت ثم انتقلت إلى حديث آخر:

ـ أنا أشعر أن آدم لا يريدني آدم أن ألتقي بأحمد سعيد، لماذا يا ترى؟

فزت قليلاً وبدت غير مرتاحة من النقاش، بينما استمريت أنا أكلمها وأنتظر منها ردود أفعال أخرى.

ـ هل سمعتيني؟

ـ نعم نعم... ولكن لا أعرف بالضبط... ماذا تقصد...

ـ أقصد أنه لا يريدني أن ألتقي بأحمد سعيد، ببساطة شديدة... هل لديك تفسير؟

ـ لا.. لا ليس لدي أي تفسير...

ـ أنا سأقوم بالبحث عنه وحدي من دون إعلام آدم... هل تساعديني؟

ـ حسب نوع المساعدة! قالت لاليت.. لكن بدت متضايقة...

ـ هل تعرفين أنت مكانه...؟

نظرت لي نظرة استغراب... وقد شعرت كما لو كانت مَغلوبة على أمرِها.

ـ آسف... آسف لا أقصد ولكن هل يمكنك أن تخمني...؟

ـ لا يمكنني...

سادت برهة من الصمت، وكأن سحابة قاتمة مرت في عينيها. التفتت نحوي وقالت:

ـ ستلتقي به لا تخف... لن يستطيع أحد أن يخفيه عليك الا إذا لم يكن يرغب هو برؤيتك...

ـ هل يمكن هذا؟ لا يريد رؤيتي...

ـ ممكن جداً..

ـ لماذا يا ترى؟

ـ هنالك خشية من كل شي أميركي... فضلاً عن أنك صحفي وتمثل وجهة النظر الأميركية...

ـ أوه أنا لا أمثل وجهة النظر الأميركية أبداً.. أنا ماركسي!

ـ أنا أعرف ولكن هو كيف يدرك ذلك...

ـ ولهذا أريد أن أراه.

سادت برهة من الصمت... نهضت نصف نهوض على السرير، وهي تنظر لي نظرة محايدة. تناولت سيجارة من علبة سجائري الونستن المرمية على الكومدينو، نقبت عن سيجارة أخيرة في طرف العلبة، أخرجتها مجعلقة ومحنية قليلة، سوتها بأصابعها، قبل أن تشعلها بالقداحة. ردت جسمها إلى الوراء، ما زالت عارية. استدارت لي بحركة سريعة تكاد أن تكون غريبة، وهي تنظر من فوق كتفها دون أن تحرك جسمها.

ابتسمت لها... فابتسمت.

ـ كم ستمكث هنا في أديس أبابا؟

ـ لن أمكث طويلاً... سأكتب التقرير وأرحل.

صمتت... فشعرت أن مزاجها تغير تماماً.

ـ هل أنت حزينة؟ سألتها بهدوء كبير دون أن أنظر لها.

التفت لي التفاتة قصيرة، نظرتُ نحوها، كانت عيناها صامتتين وحزينتين كالحجر، فغيرت جهة نظرها بسرعة. مرت برهة حتى قالت بصوت خفيض:

ـ نعم!

ـ لماذا؟

ـ تخيلت أنك من الممكن ان تبقى معي...

ـ لا يمكن... عملي هناك... و....

استدارَت لتلتَقِط الشرشف وتغطي به صدرها. شعرت كما لو أن روحها ماتت في داخِلها. لم تعد ترغب بالكلام، سادَ الجو غُموض قاسٍ، لقد حانَت لحظةُ المكاشفة. رفعَت رأسها:

ـ هل أنت متزوج هل لديك عائلة؟

ـ قلت لك عملي هناك! ثم ليس لدي المال الكافي للبقاء هنا في هذا المكان، فأنا في النهاية أعمل حسب خطة، وحسب ميزانية صغيرة لتمويل هذا البحث...

ـ ....

شبكت أصابعها النحيلة في شعرها الكث. صمتت قليلاً ثم مالت للأمام وتناولت القرط من على سطح الكومدينو وغرزته في أرنبة أذنها. شعرت بي وأنا أراقبها عن كثب. طفقت تنظر لي هي الأخرى. أنارت وجهها بسمةٌ دافئة وساذجة، دنت مني وقالت:

ـ لم تجبني هل أنت متزوج...هل عندك صديقة؟

ـ نعم....

(قلت لها ذلك وتذكرت في اللحظة أن عليّ أن أكتب إيميلاً إلى فيفي... فأنا لم أكتب لها شيئاً من يومين وعليّ أيضاً إعادة المحاولة مع ميمي، لأرى فيما إذا لم ترد بعد).

بعد أن قلت لها نعم. استمرت لاليت تحملق في وجهي بنظرة بطيئة. نظرة فيها الكثير من الفضول والإثارة. وشعرت بأنها واعية بما تفعل، فاقتربت منها وهمست في إذنها:

ـ وهل أنت حزينة لهذا الأمر...؟

لم تجبني. صمتت ثم أدارت وجهها عني لتحملق في النافذة، كان الجزء المرئي من مؤخرتها مغرياً لي فشعرت بتهيج شديد، ومددت يدي نحوها وأخذت أمسد لها جسدها من فخذها لمؤخرتها حتى صدرها. غير أنها لم تتحرك ولم تلتفت لي. فأدرت وجهها بيدي نحو وجهي برقة شديدة، حتى أصبحت عيناها مقابلتين لعيني. كانت هنالك لمعة قاتمة في عينيها شديدة الصفاء لكنها غامضة ومثيرة.

دفعت يدي عنها ونهضت من السرير. وقفت عند الكومدينو، تناولت قميصها البسيط، الفضفاض، المصنوع من قماش (الكريب دشين) الأبيض الثر وعقدته عند عنقها، بينما تهدل ذيله طرياً ثقيلاً عند موضع عانتها.

كان مظهرها بسيطاً وكاملاً، وجميلاً حقاً، بسبب تناسقها وشكلها، وشعرها الأفريكان المنفوش إلى الأعلى. كما أنها قد صرعتني ذلك اليوم بملامحها المستقيمة، الدقيقة، الناعمة، وعنقها الرقيق، وقميصها البسيط الأبيض.

ـ اسمع... لماذا تعيش في الفندق... يمكنك أن تأتي عندي، فأنا لدي شقة صغيرة وسط المدينة؟

ـ لماذا؟

ـ إذا كنت تشكو من صغر الميزانية المخصصة لهذا البحث... فيمكنك أن تعيش عندي... وهكذا يمكنك أن توفر، وتبقى أطول فترة ممكنة هنا في أديس أبابا...

ـ هكذا ترين؟

ـ نعم...

عرض لاليت

في الواقع حين سمعت هذا العرض من لاليت شعرت بصواب منطقها، هو أن انتقالي إلى المدينة معها سوف يمكنني من أن أبقى أطول فترة ممكنة في أديس أبابا، وكما شعرت بأني في الفندق شبه معزول، وبأنني إذا سكنت في المدينة سأكون أقرب بكثير لموضوعي، سأكون قريباً من الشخصيات الثورية التي جئت أصلاً لمقابلتها، ومعرفة حياتها وتاريخها وطبيعة وجودها في أفريقيا.

ولكن عليّ أن أعترف أيضاً، أني لم آخذ طلب أو عرض لاليت ببراءة تامة. إنما شعرت أو شككت بالأحرى، أنها طلبت مني ذلك كي أكون تحت نظرها، ربما لتراقبني، وتعرف تحركاتي، وتقيس نوعية تصرفاتي. لقد هجست شيئاً ما في هذه المدينة، لا أقول عدوانياً، ولكنه شيء غير مريح، ولا تنسوا أني جئت من الشرق الأوسط، من عائلة شيوعية، وأعرف جيداً معنى الرقابة، ومعنى التجسس على الآخرين، والقوة والسطوة التي تملكها الدولة على الأفراد، حتى لتحطم كل شيء فيهم حتى عواطفهم.

وكان سؤالي الدائم لم كلما أسأل عن أحمد سعيد تتجمد الوجوه في وجهي؟

* * *

من الطبيعي أني شعرت بعاطفة كبيرة نحو لاليت، لا أنكر هذا أبداً،

شعرت بقربها الشديد مني. وعلى الرغم من قصر الفترة التي تعرفت فيها إليها إلا أني شعرت بأننا سنكون ثنائياً رائعاً هنا في أفريقيا (ركزوا على كلمة هنا في أفريقيا)، سواء أكان في الأفكار أو حتى في الجسد.

فهي شيء مختلف عن كل اللواتي عرفتهن... هذا أمر مؤكد وليس لي فيه أدنى شك. ولكن أعرف أيضاً، أنها من الممكن أن تجبر من قبل البوليس لمراقبتي...

ولكن لماذا يا ترى؟ هذا ما لم أكن أعرفه ذلك الوقت.

* * *

أما لاليت فعلي أن أشرح لكم قليلاً من هي:

أنها امرأة استثنائية في حياتها، وهذا مهم جداً كما أعتقد، ولها تجاربها التي جعلت منها فتاة متميزة، فقد حكت لي تفاصيل كثيرة من حياتها جعلتها شيئا استثنائياً في نظري:

فهي تنحدر من طبقة أثيوبية راقية، ولدت في «جينكا»، والدها كان قاضياً شهيراً ذلك الوقت، وقد شاركت أيام دراستها في المدرسة الثانوية في أديس أبابا، في عدة مظاهرات مؤيدة للعقيد منغستو، كان عمرها ذلك الوقت، كما قالت لي، خمسة عشر عاماً. ثم بعد أن استلم العقيد الحكم ذهبت إلى المناطق الريفية في إطار حملة لمحو الأمية، ولما خاب أملها هناك، عقدت علاقة حب مع شخص كان ينتمي إلى حزب الشعب الثوري الإثيوبي.

ثم بدأت شيئاً فشيئاً تنتظم في الكفاح ضد السلطة الجديدة بدعوة الطلاب والشباب إلى العودة من المناطق الريفية إلى أديس أبابا. غير

أن النزاع لم يكن سهلاً، فقد أفضى إلى ما سمي «بالرعب الأحمر»، وإلى القضاء بوحشية على فصائل معارضة المجلس العسكري، ثم بدأت موجة أعمال من القتل العشوائي. ألقي القبض على لاليت ونقلت إلى معسكر اعتقال حيث قضت عاماً كاملاً هناك.

أثناء اعتقالها أُخضعت لعمليات إعدام كاذبة وإلى غسل دماغ، وكان يسمى هذا التعذيب:

«التعميد على يدي منغستو».

ثم انتهى «الرعب الأحمر»عندما أيقن النظام القائم من مقتل جميع زعماء الحزب، فتم حينئذ إطلاق سراح عدد كبير من السجناء السياسيين. لكنهم لم يطلقوا سراح لاليت، فقد أعدم صديقها أما هي فقد أودعت إلى «كيرشيلي» حيث قضت أربعة أعوام كاملة، كانت تجبر على التجول وهي عارية وتعرضت أكثر مرة للاغتصاب.

في شقة لاليت

انتقلنا بعد يوم فقط إلى المدينة، إلى شقة لاليت. هذا دون أن يعلم آدم أي شيء لا عن علاقتي بلاليت ولا بانتقالي إلى شقتها.

كانت الشقة، أو بالأحرى استوديو صغير وجميل بسرير لشخصين، وكومدينو، ودولاب ملابس أنيق، وهنالك حمام بالدوش وتواليت. يقع هذا الاستوديو في عمارة أنيقة في حي بولي في أديس أبابا، وهو حي راق جداً، بمنازل كبيرة وطرقات واسعة. يقع إلى الجنوب الشرقي من وسط المدينة، وهو المفضل من قبل الأثرياء الاثيوبيين، ومن قبل الأجانب والسواح، حيث تقع فيه العديد من البعثات الدبلوماسية والوكالات الدولية في المنطقة. والسكن هنالك في الغالب في فلل حديثة التصميم، على الطراز الأوربي، أو في عمارات جميلة، بشقق فخمة وحديثة. والشوارع واسعة ومشجرة، حيث أفنيو بولي الذي يقع إلى الجنوب الشرقي من ساحة الميسكل، يضم هذا الشارع نخبة ممتازة من المحلات التجارية، والسوبر ماركتات، والحانات العصرية الجديدة والمطاعم، وهذا الحي الهادئ يشكل صورة تقع في تناقض صارخ مع المناطق الأقدم والأكثر اكتظاظا بالسكان في المدينة الى الشمال والغرب. أما شقة لاليت فتقع مقابل الكاتدرائية الأرذوكسية والتي يطلق عليها بولي مدهين.

* * *

في الوقع كان انتقالي يسيراً وسهلاً، أو كان انتقالاً طبيعياً جداً مثل كل شيء في أفريقيا، سهل وبسيط وبلا ملامح بارزة.

السعادة عظيمة، الجنس مثل الماء سهل البلع للناس الأصحاء، كل شيء قابل للمشاركة:

الحياة، السرير، الجسد، الثقافة، الطعام، الحمام، المرحاض، الأسرار.

* * *

وهكذا عشت الأسبوع الأول مع لاليت في شقتها:

تمدد طويل في الظهيرة معاً على السرير، جمل قليلة وحماسة مفرطة، عبارات مثيرة وأصابع تعبث بالنهود الصغيرة، سيجارة في المنفضة تنتهي دون أن يمسها أحد، كتفان قويتان وإزاحة الفرش عن السرير بسرعة، أما أنفاسنا في الحجرة فقد كانت لا تتريث أبداً، إنهما الشهيق والزفير الصاخبان في الجنس، واللذان يختلطان مع خيال المنظفة في الممر، والذي كنا نشعر بها من خلف شق باب الحجرة.

أما الحديث فقد كان بشكل خاص عن الجنس، مستخدمة كل الكلمات الجريئة والمتهورة، حديث صلب وصادم في آن واحد، لي أنا على الأقل، أنا، الذي أستخدم الكلمات المتقشفة والمحرفة في هذا الموضوع بالذات، تضحك. ثم تمد جذعها الطويل والممشوق فوق وسطي، لتدير مفتاح الراديو الصغير على الكومدينو، تعود لتترجم لي كل ما قاله المذيع بالأمهرية.

وأنا أتمدد إلى جانبها، ألامس جسدها العاري، وهي ترفع ساقيها وتمدهما دون حرج وكيفما تجد نفسها مرتاحة. العقد الفضي يزين عنقها، السلسلة الناعمة البيضاء على خصرها تجعلها مثيرة، حرة. طليقة. تتناول

الصحيفة وتقرأ بها، تنهض إلى التواليت تجلس لتشخ شخة طويلة دون أن ترد الباب، وعيناها البقعاوان تتلاقطان في الفراغ، عطرها الإيف سان لوران يملأ الحجرة، أشعر بنفسي مهزوماً أمامها.

يا إلاهي لا أستطيع أن أتعامل مع جسدي مثلما تتعامل هي مع جسدها. أتمدد وأنظر نحوها، الهواء الرطب الثقيل تدفعه المروحة البطيئة الحركة على رأسي. ومن النافذة سماء زرقاء صافية بغيوم بيض متفرقة.

في الصباح الباكر تنهض لاليت من الفراش، تزيح الشرشف وتهبط بخفة من السرير، تدخل الحمام، تقف تحت الدوش دون أن تغلق الباب.

أفتح عيني ببطء دون أن أشعرها بذلك، وأنظر إلى جسدها الأسمر الفتي الناعم، إلى نهديها الصلبين، إلى شعر عانتها الأسود المغسول بالماء الساخن، أنظرها وهي تمرر يدها على مناطق جسدها الحميمة، تستدير فتصبح مؤخرتها العالية بمواجهتي، تأخذ المنشفة وتضعها على رأسها، تجلس في التواليت دون أن ترد الباب أيضاً.

بعد دقائق تنهض وتسحب السيفون وتخرج عارية أمامي والماء يقطر من جسدها الأسمر البض والرطب.

تقف أمامي! نهداها الصلبان السمراوان، ساقاها الرشيقان، تنفض شعرها الكث والثقيل، تتناول القميص وترتديه دون سوتيان، وترتدي البنطلون دون كالسون، تلتفت نحوي وكأنها تعرف بأني أراقبها.

ـ هل تريد شيئاً. أنا خارجة؟

ـ لا.. لا.. أقول مرتبكاً. تخرج وتترك في المكان عطرها الخفيف.

* * *

كنت أتمدد مثل أي أفريقي يجلس على شجرة بامبو ولا يتزحزح.

كنت أعيش الكسل الأفريقي الذي أحبه، الكسل الذي حرمتنا الرأسمالية منه، أنام وأنا أشخر كما أريد، آكل وأنا على الفراش دون طاولة أو ترتيبات، لا أرفع الصحف المبعثرة عن الارض، أقرأ العناوين ذاتها وأنا آكل، الصحف متناثرة على الأرضية، أدوس عليها وأنا أسير، ولا أحملها، أو أرميها في الزبالة، نشرب ـ لاليت وأنا فوق السرير، أحياناً تنسكب البيرة على الفرش، ننكتها بأيدينا، وننام فوقها، ليس بالأمر المهم.

أسمع موسيقى أفريقية ممتزجة مع الضجيج القادم من النافذة، الأصوات التي لا أفهمها ولا أميزها، وأعشق الحجرة الفوضى التي تعطيني نوعاً من الراحة التامة.

فأقول: ليس صعباً أن تأكل وتشرب وتنام وترقص وتموت بأمان كامل.

نسي ماركس شيئاً مهماً، أفريقيا هي المكان الملائم للشيوعية، لأنهم لا يفكرون بالملكية مطلقاً.

* * *

أستفيق في الساعة الحادية عشرة صباحاً. سعيداً، ممتلئاً بالحماسة، أجلس أمام أوراقي البيض وأدون بعض الأشياء الخاصة بما سأقوم به في الأيام القادمة.

أصبحت أعبد هذه الحجرة، حجرة لاليت، عطرها، جمال الأشياء المرمية بلا اعتناء على الكرسي، أوراقي، ملابسي، رائحة لبانها ممزوجة بأعقاب السجائر في المنفضة، قناني البيرة الفارغة والأقداح المكومة من

الليلة الفائتة على الطاولة. ومن النافذة المواجهة لسريري كانت تأتيني أصوات جميلة بالأمهرية، وموسيقى جاز عذبة.

* * *

كانت تلك الأيام هي أجمل الأيام في أديس أبابا قبل أن أباشر مرة أخرى في البحث عن الشيوعيين العراقيين لمواصلة كتابة تقريري.

اتصال من آدم

بعد عدة أيام، في الصباح، كنت في شقة لاليت، الجو جميل ورائق جداً، صوت المذياع يأتيني بموسيقى هادئة، وكنت أجيب على إيميلاتي، وأكتب ايميلين طويلين واحد لفيفي والآخر لميمي. قبل ان تغادر لاليت استلمت مكالمة من آدم. إن عنوان جبر سالم جاهز.

ـ شكراً يا آدم، تعرف إنك تدهشني بكيفية حصولك على المعلومات، قلت مجاملاً إياه، هل يمكنك أن تقوله لي الآن؟

ـ آه... لا في الواقع يجب أن نلتقي.

ـ حسن... وهل عنوان أحمد سعيد عندك أيضاً؟

تلعثم بالتلفون بينما كانت لاليت تقف بمواجهتي وهي تصغي لي.

ـ في الواقع لا... ولكن عليك أن تلتقي أولاً بجبر سالم.

ـ طيب... متى نذهب إليه؟

ـ أريد أن ألتقي بك أولاً وأشرح لك بعض الأشياء ومن ثم يمكننا أن نقرر متى نذهب للقاء جبر سالم.

ـ حسن أين ومتى يناسبك؟

ـ ما يناسبك أنت؟

ـ هل تعرف منزل لاليت؟

ـ بالطبع أعرفه.

ـ حسن أنا أعيش عندها، في الحي هنالك كافتريا جميلة يمكننا أن نجلس فيها.

ـ تقصد كافتريا برازيليا التي تقع في الجهة المقابلة للكاتدرائية؟

ـ بالضبط... أنا أقصدها هي... أعتقد هذا المكان مناسب للحديث ولشرب كأس من البيرة.

ـ الساعة الثانية عشرة تناسبك؟

ـ طبعاً! ولكن قل لي هي يمكننا أن نذهب إليه اليوم معاً؟

ـ لا أظن يا سيدي، فالأمر ليس بهذه البساطة.

ـ لماذا... وأين تكمن الصعوبة؟... أنت قلت لي مرة أن الحصول على العنوان هو المشكلة، حينما نحصل على العنوان يصبح اللقاء بهم سهلاً.

ـ حينما نلتقي سأشرح لك... الحصول على العنوان أسهل بكثير... فأينما يذهب ذكر الماعز يترك رائحته.

يستخدم آدم معي على الدوام أمثالاً أفريقية، وفي بعض الأحيان يستخدم مثلين يناقض أحدهما الآخر حسب الموقف الذي يريد أن يثبته.

ـ أنت محق آدم... حسن، حينما نلتقي إذن نتكلم في هذا الموضوع.

ـ حسن إلى اللقاء!

ـ إلى اللقاء!

وضعت لاليت حقيبتها على الطاولة، وجلست أمامي مرتبكة. حيث كانت تتهيأ للخروج. فشعرت أن شيئاً ما حدث، شيء غريب هجسته في وجهها وعينيها.

ـ ماذا بك؟

ـ لا شيء...

ـ ألا تخرجين؟

ـ نعم... نعم...

طبعت قبلة على شفتي وخرجت.

بحثت عن علبة سجائري لم أجدها، ثم تذكرت أني وضعتها في المطبخ. وجدتها على الكومدينو ـ أخرجت سيجارة من العلبة ووقفت في الشباك وأشعلتها. من النافذة كنت أنظر سيارة مرسيدس سوداء موديل 280 S، ذكرتني بالسيارات التي تستخدمها المخابرات العراقية والتي كنت أراها في بغداد قبل سفري إلى الولايات المتحدة، متوقفة قريباً من العمارة. وفي المقابل كان هنالك مجموعة من القساوسة الذين يتوقفون أما بوابة الكاتدرائية الكبيرة. ومن الجهة الثانية من الكاتدرائية هنالك سوق المدينة وبعض المتاجر والبارات، وبضعة بنايات مصبوغة باللون الأصفر المشرق. أمام إحداها حفريات وأشغال، وعلى الرصيف الأسفلتي المؤدي إلى ساحة الحي المركزية وضعت الكثير من البراميل المعدنية والاسطوانات.

وهنالك شخص يقف عند السيارة المرسيدس يرتدي بذلة رسمية. حين خرجت لاليت من باب العمارة اتجهت نحو السيارة المرسيدس، وحين وصلت دخل الشخص بالبذلة الرسمية إلى دخل السيارة، وحين صعدت لاليت وأغلقت الباب وراءها انطلقت السيارة بسرعة.

* * *

ـ من يكون هذا الشخص الذي صعدت لاليت معه؟ قلت في نفسي.

شعرت لحظتها بالارتباك قليلاً، وساورتني الكثير من الشكوك. وقد

مرّ في خاطري فكرة مفادها أن لاليت تعمل لصالح الشرطة السرية في أديس أبابا، وهي تتجسس عليّ.

ولكن لماذا؟ وماذا تريد الشرطة مني؟

أنا لست سوى باحث، أقول لكم صحفي، محلل سياسي، ولست سياسياً! ما أريده هو معرفة ثوريين تقاعدوا ولم يعد أحد منهم يشكل خطراً على أحد. ولكن ربما هذا الخوف ـ هكذا فكرت لحظتها ـ لم يكن على نحو محدد قادم مني أنا بالذات. إنما بسبب بحثي عن الشيوعيين العراقيين. والسؤال الذي طرحته لحظتها هل هؤلاء المساكين ما زالوا فعلا يشكلون خطراً على أحد؟ هل هناك سلطات سياسية تهتم بهم أو تخشاهم أو تحسب لهم حساباً؟

إن الشيء الذي لم يكن بمقدوري تفسيره هو أنني كلما أذكر اسم أحمد سعيد، أو أتحدث عنه يفز الشخص الذي يقابلني، وربما يرتجف، وفي الغالب يسكت. هل من المعقول أن هذا الشيوعي العراقي ما زال يشكل خطراً؟ وعلى من هذا الخطر على السلطات المحلية؟ على الكولنيالية؟ على الامبريالية؟ هل من المعقول أن شيوعيا ما في القرن الواحد والعشرين يحظى بكل هذا الاهتمام ويثير كل هذا الهلع في حكومة من حكومات العالم الثالث التي يخشها حتى الحجر في باطن الأرض لبطشها.

لقد ازداد فضولي فعلا... شعرت أن في الأمر سراً ما ولكن الكل يخفيه عني.

ذهبت إلى الثلاجة، أخرجت علبة بيرة باردة فتحتها وأخذت أشرب. وضعت خدي على يدي وبدأت أفكر جدياً بهذا الأمر، ذلك لأنه ليس مزاحاً أبداً، ليس سهلاً أن تتواطأ لاليت مع البوليس السري ضدي. فقد أعجبت

بهذه الفتاة على نحو غير مسبوق ـ سوى مع ميمي وفيفي أيضاً ـ بل أكاد أقول أنّي أحببتها. ومن غير المعقول أن تفعل معي هذا الأمر، هي تعرف في النهاية أني سوف أعرف هذه المعلومة غير المشرفة أبداً، وحينها سيكون الوضع محرجاً لها جداً، أليس كذلك؟

أم أنها ستقول هذا بلدي وأمنه والدفاع عنه ضرورة وبالتالي لا بأس أن أخرج مع شخص أمثل عليه دور الحب، ولكن في الحقيقة أنا أدرأ الخطر عن بلدي، وأن كل الجنس الذي عملناه كان بالنسبة لها هو من قبيل واجب الدفاع عن الوطن! هل يعقل هذا؟

جلست أمام النافذة منتظراً حتى تحين ساعة الموعد مع آدم، وندمت كثيراً لأني أخرتها، كان من المفترض أن أستعجل، كان من المفترض أن أقول له تعال الآن وبكل ما تستطيع من سرعة، لأني أريد الآن بكل صورة أن أعرف تفاصيل هذه القضية. أريد أن أعرف ماذا تعرف لااليت من هذه الاسرار التي لا يمكن لها أن تقولها لي مباشرة، كما خطر في بالي لحظتها وعلى نحو مرعب أنها طلبت مني أن أسكن عندها لغرض ما، لغرض أن تتجسس عليّ،

ـ يا لغبائي كيف سقطت في هذا الشرك بسهولة...

ثم قلت في نفسي آه إنه عنصر النساء، الوسيلة التقليدية في عمل المخابرات، فالعميل أو السياسي الذي لا يمكن اصطياده، سيسقط بسهولة من خلال امرأة.

لقد شعرت لحظتها ربما بشكل طفيف بتهديد ما، ربما سأنتهي في نهاية الرحلة إلى السجن قلت في نفسي، فالمشكلة في العالم الثالث أن الشكوك بالغرباء كثيرة، وأبسط شيء وللاحتياط يرمى الشخص في السجن

بتهمة مزيفة... وهكذا ارتجفت فعلا حينما تذكرت نوعية التهم التي سأكون ملعونا من أجلها، التهم المزيفة التي سأجد نفسي بسببها قابعاً في سجن مظلم رطب هنا في أفريقيا.

* * *

في الشارع أخذ الازدحام يزداد مع تقدم ساعات النهار، أصبح أكثر من المعتاد، الحرارة بدأت ترتفع. شغلت مكيف الهواء، أكملت علبة البيرة سريعا ورميتها في سلة الأوساخ، وعدت إلى النافذة بعد أن أخرجت سيجارة وينستون من الباكيت وأخذت أدخن. أغلقت عيني وكان بوسعي سماع ضجيج وجلبة الحياة في الشارع. وعدت مرة أخرى للأسئلة التي لم أعثر لها على جواب:

لماذا لم يدلني آدم حتى الآن على أحمد سعيد؟

لماذا جاء الآن ليقول لي أن يملك عنوان جبر سالم؟

لماذا لا يريدنا أن نذهب له اليوم؟

ماذا يريد أن يحكي لي، وأي نوع من الأعذار يريد أن يقدم لي؟

اللقاء مع آدم

آدم. جلس أمامي وهو يبتسم. شعرت وهو يتكلم معي هنالك شعور بالإثم يتحرك في داخله. شعرت أنه يعيش في عالمين منفصلين، عالم الفضيلة الذي ينطوي عليه وعالم آخر مجبر عليه. شعرت بانعكاسات إثمه الخاص في عينيه، في ابتسامته، في شفتيه، في تصنعه لعدم اكتراثه. وأنا أتأمل في كلامه، لمحت شخصاً يحدق بي، شخص ما كأني رأيته في مكان ما. من هذا الرجل الذي يحدق بي؟ كان وجهه سميناً، منتفخاً، يغطي رأسه شعر اشيب، نظراته حادة وصارمة.

أتذكر أني رأيته في أكثر من مكان، رأيته في الفندق مرة جالساً ومن بعيد يراقبني، رأيته مرة أخرى في البار الذي ذهبنا له لاليت وأنا خارج أديس أبابا. ثم كان في الحافلة التي جئنا بها هنا إلى حي بولي... لا يمكن أن تكون كل هذه المرات مصادفات محضة.

* * *

لقد شعرت ذلك الوقت بالخوف. وأدركت أني مراقب، مراقب من قبل الشرطة السرية في أديس أبابا، وربما توصلت إلى حد ما إلى قناعة كاملة أن التباطؤ، التردد، فشلي لحد الآن من مقابلة الشيوعيين العراقيين هو أمر مقصود ومدبر، أمر قائم على أوامر عليا، مخطط له من قبل الأجهزة الأمنية في هذا البلد.

هذا الشخص الذي يحدق بي تبدو عليه ملامح القسوة والغباء معاً، إلى جانبه مسدس محشو بالرصاص، في أي لحظة شك سيطلق عليّ النار. سأسبح في دمي هنا تحت هذه الكراسي في البار. كان آدم يتكلم بينما أنا كنت أرى صور موتي المتعددة والوشيكة الحدوث في هذا البلد البعيد عن بلدي، بلد فيفي وميمي، وما زاد هذا المشهد مأساوية أخذ آدم يحدثني عن حياته وعن معاناته هنا في بلاده، لقد أوصلني في حديثه إلى مرحلة الرعب المطلق... كل هذا الحديث من أجل أن يوصلني إلى نتيجة واحدة هو أنه لا يمكنه أن يقودني حتى هذه اللحظة لمقابلة الشيوعيين العراقيين، لأن الأمر محسوم من قبل البوليس السري.

هذا فهمته في الواقع أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، هنالك منع ما، والأكثر أيقنت أن الشيوعيين العراقيين لديهم علم بوصولي وبعملي، ولديهم الرغبة بلقائي، ولهذا طلب جبر سالم لقائي في البار الذي يحتفي بجيمي هاندركس والكائن في مدينة صغيرة خارج أديس أبابا، بل الآن فهمت هذه الحركة منه، أن يطلب لقاءي في مكان لا تطاله أعين الرقباء، ولكن الشي الوحيد الذي أجهله، هو لماذا، ما خطورة هؤلاء؟

لقد استبد به الخوف على وقع كلمات آدم، شيء من التوتر، أشبه بكابوس زحف على عقلي، نوبة من نوبات الرعب والخيال معاً قد هاجمتني، ممزوجة بصور الرعب التي عشتها في بلدي الأصلي، أيام مطاردة الشيوعيين من قبل الحكم البعثي. وربما كنت بالغت في خيالاتي ومشاعري، وبدأت هذه الأحاسيس تتضاعف على نحو مجنون هنا، ولكن ماذا أفعل فهذا الثرثار آدم ما زال يهذي عن عذابات حياته، وسجونه، وطرق تدميره الجسدي والمعنوي أمامي. بينما ذلك الشخص بالوجه السمين والعينين الصارمتين، والذي ينتمي بالتأكيد لواحدة من

فرق البوليس السري في أديس أبابا، يراقبنا ويريد أن يصغي لحديثنا، وكلما نظرت نحوه يتناول الصحيفة الملقاة على الطاولة أمامه، ويحاول أن يقرأ فيها، ولكن من حركة عينيه يبدو أنه لا يركز على ما يقرأ إنما يركز على الحديث بيني وبين آدم. قاطعته.

ـ ماذا حدث آدم؟ ما خطورة هؤلاء الآن على الحكم الجديد بعد هروب منغستو من البلاد...

ـ لا أعرف ماذا أقول لك...

* * *

لم يجبني آدم في البداية مباشرة. إنما أخذني إلى نفسه، ليشرح لي معاناته هنا في هذه البلاد وتقلباتها السياسية والآثار التي بقيت تعذبه. لكنها كانت نوعاً من الشكوى في البداية، وفيها شيء من الاعتذار كي يقول لي لماذا لم يدلني عليهم، والشيء الآخر كان هنالك نوع من تبرئة النفس، كي لا أتصور أنه ليس سوى واش أو مخبر رخيص للبوليس السري وأنه لم يفعل سوى مراقبتي. صحيح أن آدم كان يشكو منذ اليوم الأول الذي التقيته به، لكن شكواه في البداية كانت تخص عمله، أو تخص معاشه وما يكسبه من أجور ضعيفة فهو يعمل في صحيفة محلية صغيرة، قليلة التوزيع، كاتب ريبورتاجات صغيرة عن أديس أبابا، وهذا ليس عملاً ثابتاً إنما بالقطعة، لكنه لم يستقر في أديس أبابا إلا في الشهور القليلة الماضية، كان يعمل فيما مضى مراسلاً في الجنوب، قرب الحدود، ثم انتقل منذ زمن قصير إلى هذه الصحيفة القليلة التوزيع.

في البداية شعرت أنه يريد فقط أن أزيد له أجرته، وأصبحت أكره وجوده معي، بعض الأحيان كان شحاذاً بطريقة مكشوفة، صورة مخبول بلحية كثة، ثوري قديم وإن لم يكن كبيراً في العمر: ضحكاته التي تحتضر

سريعاً دون أن أعرف السبب، الحديث عن البديهيات والمطلقات دوماً تقريباً، تاريخ لا يفضي أكثر الأحيان إلى شيء ذي بال، البوح بأسراره ولا سيما عن زوجته التي هجرته، شروده وضياعه في أحيان كثيرة، وذهابه في النهاية مع عاهرة، فيطلب مني المال لمضاجعتها.

لكني فيما بعد صرت أحبه، مثقف عصري، ثرثار قليلاً ولكن له صوت عذب يخفف هذه السمة بجدارة كبيرة. طويل. نحيف. أسمر. عذب الملامح. مبتسم على الدوام. وهنالك من جهة أخرى أديس أبابيته إن جاز التعبير، فهو ملتصق بهذه المدينة، ويعرفها معرفة موسوعية، ومع أن هذه المعرفة بالمدينة ليست وحدها هي المهمة، إنما هذا التماثل بين الشخصيتين، شخصية المدينة، وشخصية آدم على التوالي. ولنقل من جهة أخرى إن أديس أبابا هي التي منحت آدم مميزات وحياة نادرة، فهو شخص متواضع إلى حدّ فقدان الهيبة، وطيب إلى حدّ السذاجة، مثل المدينة بالضبط. بدأ حياته شاعراً ولكنه في الوقت نفسه كان مؤمناً بالمسيحية والأفكار الكهنوتية، وكان صديقاً مقرّباً من راهب شهير في أديس أبابا، ثم أصبح لاحقاً قسّيساً نباتياً زاهداً وملحقاً بصفوف جيش هيلاسي لاسي.

غير أن التطورات الأخيرة في حياته وثقافته، دفعته أن يتحول إلى الماركسية ويتخلى تماماً عن رجال الدين. السبب ربما هو هذا التواطؤ الكهنوتي مع السلطة الملكية. كان آدم يتحدث بمنطق الماركسيين، ولكنك تميز في داخله بسهولة النزعة الأممية المسيحية التي جعلته يتواءم كثيراً مع الماركسية وأفكارها.

لكن ما معنى الماركسية نسبة لآدم؟

إنها تعني الروح الثورية في تحرير الناس. إسقاط عبودية رجال الدين. تحرير الأرض. الخلاص من عبودية الأرستقراطية الملكية الهيلاسيلاسية.

وهكذا وجد نفسه منخرطاً في صفوف الثوار، ومتورطاً في عمليات تهريب المطلوبين إلى خارج البلاد، كان في الحركة السرية للمثقفين كـ «أندر غراوند» للثورة التي كانت على الأبواب، لقد أصبح واحداً ـ من كثيرين طبعاً ـ ممن استجابوا لحركة التمرّد التي أطلقها الضابط الشاب منغستو، هذا العسكري الفذ والذي أطلق كلمة ثورة عالياً في سماء أديس أبابا.

لقد تحول آدم كلياً إلى الثورة. لقد آمن آدم المثالي بمبادئ وأفكار هذا العسكري المتمرد، والإيمان هو الذي دفعه للانطلاق من حيّز التنظير إلى ميدان الممارسة، وإن كان مثالياً، فهذا قدره الطبيعي. غير أن فلسفته المثالية ومفاهيمه الأخلاقية ودوغمائيته هي التي سببت له الكثير من الخيبات ـ فيما بعد ـ بطبيعة الأمر.

* * *

أخذ آدم بالانفعال عندما تكلم عن نفسه، عن تحولاته من قسيس إلى مناضل شيوعي، من راهب متبتل إلى زوج لإحدى المناضلات. كان يتخلل حديثه معي مشاهد وأحداث متفاوتة زمنياً يتم استعادتها بأسلوبه الحزين والتراجيدي، ورغم رغبة آدم في أن يكون صادقاً مع زوجته، إلا أنه بقي عاجزاً عن تحريرها من أوهامها عنه. فقد كان يدرك ابتعاد الثورة تاريخياً وأخلاقياً عن أفريقيا، وكان يتحسس وحشيتها إزاء الناس، أما على صعيد معاناته وخيبات أمله المتلاحقة بنفسه وبالثورة، فقد كانت جراء اكتشافه الفرق بين تنظير الماركسية وتطبيقاتها على الواقع ـ

جملة يرددها دائماً الخارجون عن الثورة، ولنسمهم منظرو ما بعد الثورة ـ وجراء عجزه التام عن التأثير في مجرى الأحداث، أو الحدّ من سفك الدماء، أو تغيير الطريقة الوحشية التي كانت تدار بها هذه الثورة رغم

عدالة قضيتها، أخذ آدم يتغير شيئاً فشيئاً. غير أنّ أكثر ما كان يؤرق ضمير آدم، إخفاؤه عن زوجته حبه ومشاعره الحميمة تجاه امرأة جميلة ومتعلمة التقاها في إحدى البارات، ومن ثم شاهد بنفسه تعذيبها واغتصابها من قبل البوليس لأنها لم تكن تؤمن بالثورة.

قال لي آدم إن كل ثوري ربما يصحو من النوم يوماً من الأيام ليسأل نفسه هل كنت أنا حينما ذهبت إلى الثورة أم كان شخصاً آخر؟

هكذا قال آدم ببساطة شديدة وهو يشرب كأس البيرة الذي أمامه.

* * *

في الواقع، حدث ذلك في يوم جهنمي من الحرارة الأفريقية اللاهبة، كنا جالسين وجهاً لوجه على مقاعد من البامبو في مقهى صغير، برازيليا، في شارع بولي. كان مكيف الهواء يهدر فوق رؤوسنا ويخفف من صوت آدم فقد كنت أخشى أن يسمعنا ذلك الشخص من البوليس السري الجالس على مقربة منا. كان يتحدث عن حياته بلغة جميلة، وكنت أستشعر مع اللغة الحية التي يستخدمها قلقه الدائم مما يحيط به، وشعوره الكبير بعدم الراحة.. كانت ملابسه وهيئته زرية إلى حد كبير، ومن صوته كنت أعرف الطريقة التي يتعفن فيها الثوري بعد سقوط الثورة.

ـ لا وجود لأبطال في الثورة. لأنهم بعد فترة سيقتل أحدهم الآخر. لأسباب لا علاقة لها بالثورة. للتنافس على أشياء كثيرة ليست الثورة من بينها.

يعين آدم الأحداث اللاحقة للثورة بدقة هائلة. فالتنظيم الحقيقي للثورة يدفع الناس إلى نسيان المؤثر الأول الذي يحفزهم للهروب إلى الثورة، ينسون روحهم، ولكن بعد سقوط الثورة، كل واحد يبدأ بالبحث عن روحه، ولكنه لا يجدها إلا وسط حمى القتل والترويع.

العودة إلى لاليت

قبل عودتي إلى شقة لاليت سكرانا تقريباً، ومراقبا أيضاً، في الطريق حاولت أن أستعيد ما كان يتحدث آدم به رمزيا عن بعض العراقيين هنا. قال هنالك شخصيات ثورية عظيمة، لكن أخطأت في وقوفها مع منغستو لا لشيء إلا لأنها لا يمكن لها أن تقف إلا مع ماركسي لينيني أشعل الثورة في هذه البلاد. شعرت كما لو أنه يتكلم عن أحمد سعيد وميسون عبد اللّه دون أن يسميهما. بل حاول بكل قوة أن يتفادى الحديث عنهما، لم يكن يريد حتى سماع اسميهما. كان خائفاً من التطرق لهما، ولكن في المقابل يمكنني أن أقابل جبر سالم، وقد قال لي حرفياً أنه حصل لي على إذن من البوليس السري بلقائه.

ـ هل كان عليّ أن أحصل على موافقة من البوليس السري قبل الشروع بهذا العمل؟

ـ لا لست مضطراً... ولكن منطق الأشياء هنا هكذا...

ـ كيف هو؟

ـ صعب أشرحه لك... لأنه بلا منطق... يسمحون ولكنهم لا يسمحون.. الأمر معقد جداً... على العموم يمكننا أن نذهب غداً نحن الثلاثة ـ لاليت أنت وأنا ـ في مقهى في شارع تشرشل للقاء جبر سالم.

ـ أنا سعيد بهذا الخبر...

ـ ومن بعدها أنصحك بمغادرة البلاد...

ـ هل تعتقد الأمر فيه خطر على حياتي؟

ـ لا أظن... ولكن من الأفضل بعد أن تكتب تقريرك تغادر هذه البلاد...

ثم انعطف آدم في الحديث عن الأشياء التافهة والرخيصة والتي تستحوذ على فكر الثوريين وتدفعهم إلى التنافس الدائم، أما المثقفون (هل كان يقصد جبر سالم دون أن يسميه؟) فهم دائماً ذيل وذنب هؤلاء الثوار لتبدأ سلسلة أخرى من الانحطاط:

الكتابة المبتذلة لجمع المال والتي يطلقون عليها (استمرار الحياة)، المفردات السياسية اللقيطة، الخطابات المناسبة للبالوعة، والإحساس المفرط بالانتقام.

ـ هم الذين يحرضون السياسيين على القتل والترويع والإثارة. مشكلتهم واحدة: ثورتهم الكلامية دائمة.

ـ تعرف... قال وهو ينظر بعينين شاردتين... الثورة هي المثيرة حقا لا الكتابة عنها، ولكنها سرقت من قبل محرفين.

ـ كل الثورات سرقت من قبل محرفين.

ثوار أديس أبابا مثل ثوار العراق يعيشون زمن ما بعد الثورة، يمضون يومهم الطويل المضجر في الحانات، مع شعراء مغمورين، مع ندل فقراء، مع خادمات يعدن في المساء لشرب كأس رخيص، ويتاقسمن الحياة معهم على أبسط الأثمان. في الصباح يغطون في النوم والكسل والقراءة. وفي المساء: عاهرات، حانات، يسكرون ويتغوطون بالتناوب...

وفي النقاش تهديدات من كل نوع. إن لم تؤمن بما أؤمن به سأسمر مؤخرتك على الحائط.

* * *

كان لآدم في حياته القاسية وعزلته جاذبية لأن يصبح في مرتبة أعلى. لماذا؟

لأن الثورة في النهاية تغيير مواقع. الثوري الأفريقي يختلف عن الثوري العراقي، هو ثوري من نوع خاص، إنه ماركسي محصن، لا على طريقتنا، ماركس ولينين وتروتسكي والماركسية التقليدية، إنما هو قارئ جيد، قارئ من نوع خاص، قارئ لفرانز فانون ونجوجي واثينجو وإيميه سيزير وول سوينكا... وآخرين أيضاً.. الموسيقى الغربية يعرفها أيضاً. وهكذا فشخصيته مزيج عذب وإن كان غير متجانس بين الثقافة العالمية والزنوجة، ربما هو أقرب إلى الغرب بسبب أفريقيا وحياتها البوهيمية الفطرية، ولكنه يشعر دون شك بعذاب العنصرية، لذا فهو ينتفض، لا ضد الحياة الغربية كما يحدث في العراق، إنما ضد الاستغلال والعبودية والعنصرية، السود أقرب للحداثة الغربية منا.

وأنا قلت لآدم هذا الكلام مرة حينما كنت جالساً في حجرته. فقد وجدت في حجرته كل ما في حجرة مثقف كوزموبوليتاني: كتب أجنبية، قناني بيرة فارغة، صور لغرامشي وباتريس لومومبا وأنجيلا ديفز وستيورات هول، صحف ومجلات. غرفة مثقف عالمثالثي، وبالذات من أفريقيا، وعلى نحو أدق من أديس أبابا...

ماركسي أيضاً. حجرة ماركسي تتغير على الدوام.. ينظفها من القديم، من الماركسية الكلاسيكية وتتوالد من جديد، الأوراق القديمة تصبح في

قصيدة جديدة، أو في مقالة قصيرة. والخمرة تتحول إلى نقاش، والسرير عليه امرأة. ومع ذلك هنالك ما هو شائع بين المثقفين الذين لا يجيدون الا الحديث والجلوس على كنبات الاخرين. الثورة هي في النهاية نتاج لحياته الخاصة وقراءته الكثيرة، فهي بناء مساحة بينه وبين العالم، هي محاولة للاتحام بالعالم. ذلك لأن نجوم الثورة عالميون وفي كل مكان.

* * *

أخذ آدم في أديس أبابا، ينشر عدداً من القصص القصيرة في الصحف، وهكذا كان يجد قصصه منشورة الى جانب قصص تشيخوف المترجمة للأمهيرية، فبعد نشر كل قصة أو قصيدة أو مقالة يقرر ذلك اليوم التفرغ للشرب أو النقاش، إنه مثقف. وهكذا عليه أن يعيد صورة تشرد المثقف الجديد، يعني أن يتجول كثيراً، في أفريقيا أحياناً، يرتاد الحانات وبيوت الدعارة وينام على الرصيف وفي المقابر، ويدير معارك ومشاكل في كل الحانات التي يرتادها، ويقضي أوقاتاً في السجون قبل ان يظهر مرة اخرى في أديس أبابا.

ويتذكر آدم أنه كان يجلس في خمارة ما بين الساعة الخامسة مساء والثانية صباحاً، من أجل أن يحصل على كؤوس من الشراب المجاني. ومن هنا كانت رحلته في أفريقيا مخزناً هائلاً من الحكايات والمغامرات التي سيعود إليها في أحاديثه معي وهي مثيرة حقاً، ومشوقة أيضاً.

لم يكن دخوله للعمل الثوري سهلاً، فبعد أن أصبح معروفاً لدي قراء المجلات والصحف الصغيرة، قام بنشر قصائد ثورية في طبعة محدودة، لم يكن لديه عمل في ذلك الوقت ثابتاً، ولا كتابة مستمرة. ولكن الحظ صادفه في العام 1970 عندما منحه أحد الثوار المتنفذين

مبلغاً من المال لنشر ديوانه في دار محترمة، وكان الاتفاق مقامرة بين الشاعر والناشر، كان يعتقد بأنه حين يموت ستصل شهرته إلى شهرة الشعراء الشيوعيين ـ أو الذين كانوا شيوعيين فيما مضى ـ مثل مايكوفسكي وآراغون وبابلو نيروادا وغيرهم.

ولكن الثورة أخذته فيما بعد، يعني كان يمكن أن أن يكون شاعراً كبيراً ولكن داخل الثورة لا خارج الثورة بطبيعة الأمر، وعليه أن يمر بكل مراحل الثورة، من شاعر مضطهد، إلى شاعر ثورة، إلى شاعر منشق، إلى شاعر سجين، إلى شاعر مشرد بلا شعر ولا ثورة هذا ما يحدث دائماً حتى عندنا في العراق... دائماً يحدث هذا الشيء. قلة من الذين صمدوا مع الثورة.

* * *

الثورة مثل المرأة التي قررت انقاص وزنها، وعندما نجحت، بدأ تحضر كل يوم الى بيتها شخصاً ليضاجعها، في البداية كانت تشعر بأن لها جاذبية خاصة، لأن عشاقها كانوا في تزايد مستمر، ثم تكتشف أن هؤلاء العشاق المفترضين كانوا بعد مضاجعتها يسرقون متاعها، وعندما حاول أحد السراق ـ العاشقين سرقة شيء من منزلها طلبت منه التوقف. ثم شيئاً فشيئاً تصبح الصورة أكثر وضوحاً، وبعد ذلك ينجلي المشهد جيداً. الثوار يسرقون الثورة، ثم يتصارعون فيما بينهم، فنقول: الثورة أخذت تأكل أبناءها.

* * *

بعد الصراع يبدأ الضعف والانحلال في المجتمع، وتبدأ السلطة

بالقسوة علناً، ومن ثم تصبح الثورة هي اللحظات الساخرة والعبثية الأكثر وحشية في حياة الناس.

قالت لي لاليت مرة:

ـ السيناريو هو هو: تحاول الدول الغربية الإطاحة بالثورة، فتؤيد فئة معارضة على فئة في السلطة، فتبدأ الحرب الأهلية، وبعد الحرب الأهلية نجد أنفسنا نلهث في الفراغ، بينما يأتي الأوربيون ليحملوا الأخشاب والذهب والفضة واللحوم من قلب الغابة، ونحن مثل الكلاب نجلس على مقربة منهم، ننظر لهم... نلهث، ونلعق جراحنا.

* * *

لحظتها قرفت، شعرت بأن ما يحيط بي مثير للشك والريبة، شعرت بأن لاليت، صديقتي الحميمة، وآدم، يتجسسان علي، كلاهما يعمل في البوليس السري. ماذا لو كانا يدبران أمراً ضدي. أنا أعرف أن السلطات في العالم الثالث يمكنها أن تقتل أي شخص بمجرد أن تشك به لأدنى سبب، أحياناً تقتله بمجرد أنها لا تعرف نواياه، أو تجد تصرفاته غامضة ولا تستطيع أن تحل لغزه، هكذا ببساطة ترسل له شخصاً أو شخصين، في الغالب بينهم امرأة، وتحاول أن ترصد تحركاته، وتعرف أسراره، وكنه المهمة التي جاء من أجلها، فإن شكت في طبيعة عمله ستخلص عليه وتنهي الأمر بسهولة، والأمر لا يحتاج ذكاء كبيراً، يقتل من قبل عاهرة لأجل السرقة، وأحيانا تدبر الخطة بأكثر الوسائل بدائية.

في تلك اللحظة شعرت وقد اقشعر بدني كله، أمر في غاية الخطورة، ماذا لو كان رفيقاي الماركسيان عميلين رخيصين لدى الحكومة. الأمر الثاني هو: ماذا لو لم يكن هناك أي واحد من الثوار، والأمر برمته

هو فبركة أيام الحرب الباردة. ماذا لو كانت حتى الثورة مفبركة، ماذا لو كان الأمر برمته محض خيال، ماذا لو كان الأمر مؤامرة، على الطريقة التي نفكر فيها في العالم الثالث، وبذلك ستكون الإمبريالية هي التي اخترعت هذه الشخصيات وهي التي خدعتني بالذهاب إليها، كله لأغراض كولونيالية محضة؟!

* * *

حين دخلت الشقة كانت لاليت نائمة، رفعت الغطاء عنها ودسست نفسي خلف مؤخرتها عارياً تماماً. كانت رائحتها طيبة، وشعرها الكث ينغز وجهي فيهيجني. نقرتها بأصابعي. تحركت... فتحت عينيها... ابتسمت.. مدت يديها إلى وسطها وخلعت سروالها ورمته إلى الأرض، ثم ساعدتها على خلع قميصها القطني ورميته على الكرسي القريب من السرير، وهكذا التحم جسدانا بعمق وقوة، كنت انغرزت بها، فانقلبت فوقها. بعد برهة كما لو سقطت في بئر من النشوة، أصدرت صوتاً متهدجاً، فشعرت برعشتها مثل قرع دف خفيفة. للحظات ابتلعتني لذتها بعيداً في هوة سوداء بلا قرار.

* * *

صحوت ليلاً عطشانا. كانت لاليت نائمة عارية وساقاها منفرجتان.

ذهبت وشربت ماء من الثلاجة، أخرجت سيجارة من باكيت لاليت كان من الدنهال. أشعلتها ووقفت أمام النافذة المفتوحة على مصراعيها. كان الليل في الخارج أسود لكنه مضاء بالقمر ومصابيح المتاجر القريبة من الكاتدرائية. عند نافذتي شجرة طويلة نالت غايتها من الندى فأخذت تلمع وتنعكس عليها الأضواء، وعند الباب سيارة مرسيدس سوداء ربما ما زالت

سيارة البوليس السري متوقفة لمراقبتي في الليل. وبعيداً عن كل هذا، كان سحر أفريقيا في حجرات العمارات التي تقابل الكاتدرائية. العمارات الصفر ونوافذها المشرعة تغري العابرين المتلصصين، ومن بعيد أهجس ضفائر مجدولة، شفاهاً تلمس رِقاباً عارية. أشعر باللحم الأسود وهو يتشابك ببعضه. أسمع من بعيد الوعود الكبيرة بالحب، والتنهدات.

صباح الاعتراف

في الصباح صحوت باكراً. لاليت ما زالت نائمة. أعددت قهوتي وسيجارتي. وجلست في المطبخ. حتى الساعة العاشرة أنا أسير جيئة وذهاباً في الصالة. ووضعت في رأسي كل الاحتمالات الممكنة، حتى إمكانية هربي ووصولي إلى المطار مباشرة. على العموم كان الأمر كله أشبه بالمهزلة. ففي الوقت قررت إخافتها وتهديدها، كنت خائفاً منها وأشعر بأني مرتعب أيضاً، ولا سيما حينما وضعت احتمال أن تكون مخبرة تعمل لدى البوليس السري احتمالاً وارداً.

* * *

صحت لاليت. سمعتها وهي تغسل وجهها في الحمام. بدأ قلبي يدق بقوة. قررت مواجهتها مباشرة. ما أن نهضت من مكاني حتى دخلت المطبخ. دفعت الباب ودخلت، فوجدتني قبالتها مباشرة.

نظرت في وجهي. التقت عيناها بعيني مباشرة، وكأنها شعرت بشيء غير طبيعي، ابتسمت بعينيها الجميلتين. ما أرقها، وما أجمل قوامها. فجأة شعرت بأني مسلوب الإرادة أمامها، شعرت بأني غير قادر تماماً على تصديق شكوكي إزاءها. ولكنها شعرت بشيء غير طبيعي. ابتسمت، اضطربت وخجلت.

قلت لها:

ـ لاليت. تعالي، لن أتركك اليوم تذهبين دون أن تقولي لي هل تتجسسين علي لصالح البوليس السري؟ لماذا، لم آت من ذلك المكان البعيد لتسخري مني سمعت، لقد سئمت.

ابتسمت لاليت بعينيها المرحتين، وقالت:

ـ اسمع الأمر ليس هكذا، كنت أريد حمايتك منهم.

ـ حمايتي؟ ماذا فعلت أنا؟ كنت أريد أكتب تقريرا عن أحمد سعيد وميسون عبد اللّه..

ـ ولهذا فهم مرتابون من منك

ـ كيف؟

ـ الواقع الأمر فيه حكاية متشابكة ولكن جوهر الموضوع هو أن أحمد سعيد وميسون عبد اللَّه قادا مليشيات عنيفة لصالح منغستو، كانا مدافعين مخلصين للمجلس الثوري الذي ترأسه منغستو، وكانا يقولان أنّهما مخلصان للماركسية اللينينية، وقد قاتلا بشراسة السلطة الحالية التي انقلبت على منغستو، ومارسا ضدها الكثير من الاغتيالات، حتى تم القبض عليهما وقتلهما...

ـ أحمد سعيد وميسون عبد اللَّه قتلا؟

ـ نعم تم قتلهما... والخلايا التي كانا يقودانها ما زالت ناشطة... ولذلك تعتقد الشرطة السرية أنك جئت ربما لقيادتها، أو لجمع التبرعات لها...

ـ أبدا... لم تكن هذه مهمتي على الأطلاق!

ـ أعرف ولذلك كنت أتصل بالبوليس السري لأطمئنهم كي لا يرتكبوا معك أي حماقة...

ـ وجبر سالم؟

ـ جبر سالم أمره مختلف.. فهو اختلف معهما... اختلف كثيرا عقائديا وتنظيميا، فاتهماه أحمد سعيد وميسون عبد اللّٰه بالتحريف والخيانة وحكما عليه بالموت وأرادا اغتياله إلا أن عملية الاغتيال فشلت... وهو من جهته انحاز إلى الانقلاب الذي حدث ضد منغستو...وك تب عنهما مقالاً مفبركاً.. وساخراً... ولكن لا أحد صدق مقاله ففيه الكثير من المبالغة والتشهير ضدهما. ويشاع الآن أنه هو الذي دل على وجودهما فألقت السلطات القبض عليهما وتم تعذيبهما وقتلهما.



وجهها كان نحيفاً أكثر من الأمس، أردافها أكثر امتلاء، وبدت خطوات قدميها في الصندل أكثر ثقةِ بينما هي تَقتربُ مِني. تسارع حفيف الشجرة عند النافذة، شعرت بالدفء والحزن معاً، على مصير أحمد سعيد وميسون عبد اللّه. جلسنا في الصالة، رأس لاليت الجميل والداكن على كتفي. شفاهها العذبة كانت تتكلم بهدوء شديد. أرتني مقالة جبر سالم، أرتني ألبوم صورها... سنواتها في أديس أبابا، سفرها إلى موسكو، ولعها بالمسرح وبالفودكا، بالكتب، وباللغة الروسية أيضاً.

جبر سالم

بعد الظهيرة جاء آدم، وانطلقنا نحن الثلاث إلى بار صغير يقع في شارع تشرشل، كنت أعددت حقيبتي بصورة جيدة: جهاز اللاب توب، المسجلة وقد وضعت فيها شريطاً فارغاً، أوراقا بيضاء، أقلاماً، الكامرا التي سألتقط فيها الصور لجبر سالم. كنت متوتراً قليلاً، متأثراً ومهتماً. هذا اللحظة كنت أنتظرها منذ زمن بعيد أليس كذلك؟

المفاجئة حينما رأيت جبر سالم... كان شخصاً مهدّماً، شعره أبيض، ويسير بصعوبة بالغة.

ـ أنت الثوري العظيم!

مازال يحتفظ بكبريائه، مازال يحتفظ بصورة ربما موهومة عن نفسه، ولكنه كان يرفع رأسه بكبرياء ظاهر، يتحدث ببطء. كان كئيباً جدا. ملابسه رثة إلى حد كبير، غير أن حذائيه كانا جديدين، ربما طلبهما من شخص آخر، وكان يتحدث بلهجة عراقية واضحة. يلتفت مرات إلى لاليت وآدم ويحدثها بالأمهرية التي يتقنها جيداً، الوسامة ذابلة لم يبق منها شيء، يمكن أن نميزها في تقاطيع وجهه الوسيمة، وفي شعره الأبيض المسترسل إلى الوراء، لم يكن قذراً أو وسخاً أبداً، كان نظيفاً إلى حد كبير، غير أن ملابسه كانت عتيقة جداً، كانت رثة إلى حد كبير. وبعد ذلك طلبت له كأساً من الويسكي وهو يحدثني عن أشياء مختلفة، وحين طلبت منه أن أسجل له بعض الأشياء أراد أن يعرف من أين وجهتي.

ـ أمريكا

ـ أوه... لالا...

في البداية رفض، ثم وافق:

وها أنا أسجل كل ما قاله كما كان في المسجلة كلمة... كلمة.

* * *

لقد خدعوني. لم أكن أعرف أن أفريقيا كلها زبالة، الثورة هراء، لا وجود لثورة ولا لثوار ولا أي شيء من هذه التفاهات. لا بل أقول لك: الثورة ماخور مظلم دخلنا فيه ولم نعرف كيف نخرج منه، وإن هؤلاء الذين تسميهم ثواراً لم يكونوا غير قوادين وعاهرات. لا تقل لي لا. أقول لك لم يعد على الأرض ثوار ولا قنادر في أديس أبابا.

صرخت بوجههم يا كلاب وهربت.

كادوا أن يقتلوني بسكينهم، قالوا أنت عميل جئت كي تتجسس علينا، أنت عميل ضد الثورة، أنت خنت منغستو.

هل هذا الكلام معقول، بعد كل الذي عملته من أجلهم يتهموني بأني جاسوس قذر جئت لأنقل المعلومات عنهم، هل هذا الكلام معقول؟

يتهموني هذه التهم القذرة بعد أن ضحيت من أجلهم، بعد أن تركت حياتي خلفي وتركت كل شيء من أجل مساندتهم في حرب التحرير.

هل هذا الكلام معقول؟!

طبعاً اليوم اكتشفت أن كل شيء باطل، كل ما قالوه وكتبوه هو كذب وخداع. حتى ما كتبته أنا ليس له أي حقيقة.

واكتشفت بأني أحمق حين جئت إلى هذا المكان النتن. كنت أحمق حين جئت إلى أديس أبابا.

* * *

ثم أخذ يتحدث لي عن أديس أبابا، وينقل صورة غير الصورة التي نقلها هو في تقاريره المنشورة في مجلة الطريق اللبنانية وفي الثقافة الجديدة العراقية:

هذه مدينة فاسدة وقذرة. وليست مدينة ثوار. وأنا بصراحة انخدعت، ها أنا أمامك وأقولها لك صراحة أنا مخدوع، كنت في ذلك الوقت حالماً بأشياء تافهة تصورتها ذلك الوقت عظيمة.

ومن السهل القيام بها، ما كانت عندي تجربة أصلاً. من أين تأتيني التجارب. جئت من الناصرية إلى بغداد، أواخر الستينات، أكتب مقالات أدبية وسياسية في صحيفة النور، كل يوم أجلس في مقهى ياسين، أو مقهى البرلمان، وأحلم أن أصبح مثل ريجيس دوبريه، الصحفي الفرنسي الذي ذهب وراء جيفارا ليدوّن يوميات الثورة، كنت قرأت كتابه ذلك الوقت، وحلمت أن أصبح مثله، أن أصبح الصحفي الذي يقطع آلاف الأميال من القارات والمحيطات ليدوّن بمذكراته يوميات حروب الثورة في أمريكا اللاتينية.

وفي المساء كنت أسكر في بار شريف وحداد، وأحلم أن أصبح من ثوار البحر الكاريبي، أشرب كأس عرق أو كأسين وأتخيل نفسي أحد أنصار حرب العصابات في نيكاراغوا.

هذه الصورة هي التي سحرتني في ذلك الوقت، مجرد صورة لثائر

يصعد الجبال ويقطع مياه المستنقعات بقوارب من مطاط، صورة شعرية أو سينمائية لثائر ينام في الخنادق وهو يلبس الملابس الكاكية.

لا تضحك علي أرجوك.

كنت أقرأ الكتب الحمراء التي تحرض على الثورة. أتصور نفسي بنشوة السكر بلحية صغيرة مثل لحية هوشي منه، أو لحية عريضة مثل لحية جيفارا. أو نظرة قاسية مثل نظرة تروتسكي. طبعاً أنت تضحك على هذه الأشياء وتعتبرها من الترهات، اعتبرها مثل ما تريد، بس كانت بالنسبة لي في ذلك الوقت عظيمة، مهما صغرت الأشياء بعيون الآخرين كانت بعيوننا شيئاً آخر، كنا نحلم بالثورة الدائمة، بالفوضى والإرباك الذي يمكننا أن نصنعه للإمبريالية والكولونيالية والبرجوازية والإقطاع.

كنا مسحورين بهؤلاء الثوار الشباب بشعورهم المنكوشة، ولحاهم الخفيفة على الوجوه الناعمة، بملابسهم الكاكية الوسخة، ببساطيلهم الثقيلة، بالكتب التي يضعونها في الجيوب، بصورهم في الصحف الكثيرة في العالم، بوجوههم في الأفلام القصيرة في التلفزيونات، بأخبارهم في الإذاعات. كل شيء كان يسحرني بهم، كل شيء كان يجذبني نحوهم:

رائحة عرقهم، لون بشرتهم التي لوحتها الشمس، شبابهم، فتوتهم، أسلحتهم المدهونة، كتبهم، قبعاتهم، ملابسهم الكاكية، أكياسهم التي يحملونها على ظهورهم، كل شيء فيهم... كل شيء!

كنت ذلك الوقت أتعفن في مقاهي بغداد بلا ثورة ولا بطيخ. كنا نسير في ساحة التحرير في صيف بغداد الساخن، وقطرات العرق المالحة تهبط على شفاهنا، متجهين نحو شارع السعدون، نمر على مكتبة المثنى كي نشتري آخر إصدارات الكتب الثورية، فنجلس في مقهى المعقدين، أو

مقهى ياسين، ومن ثم وجبة رخيصة على حساب أحدهم في مطعم نزار، وفي المساء نهرع إلى البار كي نشرب عرقاً رخيصاً ونتداول آخر أخبار حرب العصابات في الشمال والجنوب، نتحدث عن الرفاق الأشداء ذوي القناعات المطلقة بقضية الشعب المقدسة. وكيف أن يمين الشيوعيين يبحث عن سبيل آخر للتحالف مع الانقلابيين البعثيين. هل ننجرف مع خط الكفاح المسلح؟ يسار.. يمين.. انقلابي.. ثوري.. اشتراكي.. طوباوي. هكذا كانت تسمياتنا في ذلك الوقت، نضعها وندخل الناس الذين نعرفهم في تصنيفها هل هذا يميني أم يساري؟ هل هو علمي أم طوباوي؟

* * *

صرخت بوجههم يا كلاب وهربت.

هل هذا الكلام معقول. أنا جاسوس ومخبر!؟

كنت أذهب إلى المقهى كي أسمع آخر الأخبار عن الثوار، وفي ذلك الوقت تعرفت على مجموعة من الصحفيين والكتاب يجلسون على التخت البعيد، يشاركونني الاهتمام نفسه، والشعور نفسه، كنا نشعر بالتعفن في تلك الأماكن الرطبة والوسخة، وبعد أن تغيب الشمس كنا نذهب إلى بار شريف وحداد لنسكر بصحة الثوار في أمريكا اللاتينية أو في أفريقيا.

ـ صحة جيفارا الثائر.

ـ بصحة الرفيق هوشي منه.

ـ بصحة ماو.

ـ تروتسكي أعظم ثائر على الأرض ألم تقرأ النبي المسلح.

كنت أقف في البار مستندا بيد على حافة الطاولة، أرفع الكأس بطريقة مسرحية إلى الأعلى، وأضع سيجارة في طرف فمي، وألوك الكلمات لوكاً بقول جيفارا المعروف:

«الثورة أيها الرفاق قوية كالفولاذ، حمراء كالجمر، باقية كالسنديان، عميقة كحبنا الوحشي للوطن.»

لا تضحك أرجوك. كانت هذه الجملة التي قرأتها يوما لجيفارا تجعلني أنتشي انتشاء عالياً، تجعلني أسير وأنا مبتهج، تجعلني أشعر بأني متوحد في قوة عظيمة من البشر، جاءت مثل عاصفة عاتية لتهدم الظلم وتبني مجتمع السعادة، لا تسخر مني صدقني، ما جاء بنا هو حلمنا بتأسيس مجتمع السعادة لا شيء آخر.

ولكني بعد فترة وجيزة قرفت من هذه الحياة التافهة والعقيمة في بغداد، قرفت من الثورة النظرية، وأردت أن أجربها حقيقة وواقعاً، فقلت لماذا لا أذهب وراءهم، لماذا لا أحمل أمتعتي وأصبح واحداً منهم، وبدلاً من أن أتحدث عنهم وأبحث عن بطولاتهم، سأصنع بطولاتي بنفسي، سأصبح أنا البطل الذي يتحدث الناس عنه. فقطعت آلاف الأميال شرقاً وغرباً كي أصبح واحداً منهم، أو على الأقل أصبح الصحفي الذي يكتب عنهم. في البداية أردت أن أذهب إلى كوبا، إلى بوليفيا، إلى نيكاراغوا، إلى تشيلي. لأصبح واحداً من مقاتلي أمريكا اللاتينية ولكن لم تكن لدي بطاقة طائرة، ولم تكن لدي إمكانيات السفر الغالية الثمن، وأنا بلا عمل في ذلك الوقت باستثناء المقالات القليلة التي كنت أكتبها في صحف الستينات، ثم فكرت أن أذهب إلى مكان قريب، فقلت لأرافق الثوار في ظفار مثلاً، أو أذهب إلى اليمن السعيد، أو إلى فلسطين، أو لبنان، كانت الفرصة أسهل بكثير، وبالفعل ذهبت هناك عن طريق سوريا، ووصلت إلى بيروت، بقيت هناك من العام 1970 حتى العام 1980. عشر سنوات. وفي غمرة الحرب الأهلية كنت أسأل أين الثورة؟... أين؟

الجملة التي كان يرددها دائما وهو يتحدث:

ـ أنا المخبر يا كلاب ألم تعرفوني في بيروت... صرخت بوجههم يا كلاب وهربت.

جاء النادل وسألنا ماذا نشرب، طلبت له كأس ويسكي، وشربت أنا ولاليت وآدم بيرة محلية...ثم استمر جبر سالم في الكلام:

أنا أعرف هذه الألاعيب من بيروت. بس في بيروت أنا تقززت من المشهد كله، تقززت من المشهد كثيراً، قرفت من كل شيء. لم يكن الثوار هناك هم نفس الثوار الذين حلمت أن أكون واحداً منهم، تعرف لماذا؟ لأنهم هم أنفسهم الذين كانوا معي في مقهى المعقدين، ومقهى ياسين، هم أنفسهم الذين كانوا يأكلون الكبة في مطعم نزار، وهم نفسهم الذين كنت أسكر معهم في بار شريف وحداد كل ليلة وأشرب معهم نخب جيفارا وتروتسكي وماركس، هم أنفسهم وقد سبقوني إلى هذا المكان، وأخذوا المواقع الأولى بوصفهم الثوار، لا يمكنني أن أقتنع بأن هؤلاء الذين كانوا يشربون الشاي معي في المقهى، ويأكلون الكبة والتشريب في مطعم نزار هم الثوار الذين قطعت آلاف الأميال كي أنقل وقائع حياتهم.

فقررت العمل في المكتب الإقليمي لوكالة الأنباء البريطانية في الشرق الأوسط وأفريقيا في بيروت، فقالوا لي أنت عميل. لأنك تعمل في وكالة برجوازية وإمبريالية.

قلت لا يهم... ما دام هم الذين يوفدون في ذلك الوقت الصحفيين إلى أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، وفي يوم صرخت وأنا في التواليت، وبعد أن سحبت السيفون الذي شفط سكرة الليلة الفائتة: سأذهب وراء الثوار العراقيين، الثوار الذين هربوا من بغداد وذهبوا إلى أديس أبابا، ليؤسسوا الجيش الأممي ويقاتلوا مع منغستو في أفريقيا.

فهؤلاء لم يكونوا معي في المقهى، ولم أسكر معهم يوماً في بار شريف وحداد، ولم أرهم في حياتي أبداً، سوى أنهم طوروا حرب العصابات، بدلاً من القتال في أهوار الناصرية وإسقاط طائرة هليكوبتر حكومية، ليتحول رئيسهم بعد شهر من القتال إلى عميل يوشي برفاقه في التلفزيون، إلى ثوار في أفريقيا، للقتال مع جيش منغستو ضد البرجوازية الإثيوبية والقتال مع مليشياته ضد أرتيريا.

وها أنا أمامك الآن. بعد أن تعفنت عشرين عاماً في أديس أبابا.

لقد اكتشفت إني جئت إلى حفنة من اللصوص والقوادين والعاهرات. وجدت نتانة وقاذورات، وجدت أحمد سعيد. كان يسمي نفسه في ذلك الوقت جيفارا العراقي، وجواد الوسخ. تعرفه هذا الحارس في عمارة أنتوتو كان يسمي نفسه هوشي منه البصري، وهذه ميسون التي كانت تريد أن تكون مثل جميلة بوحيرد وصارت عاهرة رخيصة في فنادق الدرجة الثالثة.

لقد اكتشفت ولو بعد فوات الأوان أن الثورة هربت، الثورة ماتت بعد أن شمت رائحة تعفن هؤلاء الفاسدين والفاشلين والكذابين.

* * *

أنا مخبر يا كلاب؟

أقول لك لم يعد على الأرض ثوار ولا قنادر في أديس أبابا. كل شيء تعفن وخرجت رائحته، وتفرق القوادون واللصوص كل واحد في مكان ليقاتل الآخر، ولينتقم من الآخر، كل شيء رحل ولم يعد أي شيء هنا يستحق الاهتمام فلماذا جئت أنت هنا؟

سقط رأسه على الطاولة، تناول كأسه بسرعة بيده، وشربه مرة

واحدة، ثم أنزله بقوة على الطاولة، بينما كانت الإضاءة الخافتة ترسم على وجهه وجعاً ظاهراً.

حين أفكر اليوم بالحماقة التي ارتكبتها، الحماقة التي كادت أن تودي بحياتي، أشعر بقشعريرة في بدني كله، لا أعرف كيف نجوت من هؤلاء القوادين والعاهرات القذرات الذين كادوا أن يفتكوا بي في أديس أبابا؟ هؤلاء الذين أرادوا قتلي أمام ملهى دبرتسايت، بطعني بالخنجر في بطني وصدري مرات ومرات، أنا الذي قطعت آلاف الأميال من أجلهم. أنا الذي اعتبرتهم رفاقي، فجئت كي أنقل وقائع بطولاتهم. طبعاً بعد أن سقط منغستو كنت أدخل للبار وأعفط لهم وألوي وجهي وفمي منهم بطريقة ساخرة، كنت أبصق عليهم كلما أسمع حديثهم عن قتال القوات البرجوازية والاستعمارية وما لا أدري أيضاً.

الجيش الأممي، يا للمهزلة.

طبعاً من حقك أن تشتمني وتسميني أحمق. أو غبي. لأني ضيعت حياتي كلها وراء هذه التفاهات، ماذا فعلت بحياتي، وكيف أضعت نفسي مع هؤلاء الفاشلين. ضاع عمري تصور. ضاع عمري ولم أفعل أي شيئ نافع على الإطلاق، بل أقول لك إني نادم على كل ما فعلت. لا أنا رأيت ما حلمت أن أراه، ولا فعلت ما كنت أريد أن أفعله، ولم أر أي شيء كنت أظن بأني سأراه هنا في أفريقيا، بعد أن أصبح من المستحيل عليّ رؤيته في بغداد.

أين الرايات الحمراء التي سمعنا أنها ترفرف خفاقة في سماء أفريقيا؟ أين آلاف الرفاق الذين يغنون النشيد الأممي على قرعات الطبول الأفريقية؟

أين الرفاق القادمون من أفريقيا وآسيا ليؤسسوا حلم ماركس ولينين؟

أين الأبطال الذين كنا نسمع عنهم مثل باتريس لومومبا وغيره من الزنوج الأفارقة الذين دحروا المستعمرين والمستبدين؟

صرخت بوجههم أنا مخبر يا كلاب...

كادوا أن يقتلوني بسكينهم، تصور، قالوا أنت عميل وتتجسس علينا لصالح الانقلابيين. هل هذا الكلام معقول، بعد كل الذي عملته من أجلهم يتهموني بأني جاسوس قذر جئت لأنقل المعلومات عنهم.. هل هذا الكلام معقول؟ يتهموني هذه التهم القذرة بعد أن ضحيت من أجلهم، بعد أن تركت حياتي خلفي وتركت كل شيء من أجل مساندتهم في حرب التحرير. هل هذا الكلام معقول!!

لقد أرادوا قتلي بطريقة قذرة ومخادعة، تصور، لقد استدرجوني إلى الزاوية المظلمة هناك. بهذا المكان بالذات. وهناك حاصروني وحاكموني.

ـ أنت عميل جئت تتجسس علينا يا قذر..

ـ عميل قلت لهم. كيف تفكرون بهذا الأمر؟ لا بد أنكم سكرتم ولا تعرفون ما تقولون.

ـ بل أنت عميل قذر اعترف يا ابن القحبة...

ـ يا إلاهي أنتم تعتبرون أنفسكم مهمين جداً، وأن العالم كله يتجسس عليكم، وأنتم لا تفعلون شيئاً هنا، سوى أن تسكروا وتتناقشوا وتتضاجعوا... لا تفعلوا أي شيء من أجل الثورة.

اسكت يا ابن القحبة، واعترف وإلا...

ـ اعترف على ماذا؟

ـ اعترف لمن أنت تكتب التقارير وتتجسس علينا؟

رفعوا السكين إلى الأعلى وهبطوا بها نحو صدري.

أقول لك. رأيت الموت بعيني تلك اللحظة، رأيته متجسماً في السكين التي رفعوها بوجهي، لو لا أن برقت بعد أن سقط ضوء الباب الخارجي للملهى عليها لكنت مت، فجأة وأنا سكران لمحت الموت في وهجها الشديد وهي ترتفع لتهبط على صدري، لقد أرادو أن يغلوها في قلبي، أرادوا قتلي أمام الملهى، ومن ثم رميي في برميل الزبالة. هؤلاء الثوار أرادوا قتلي، وأنا الذي جئت كي أكرس قلمي من أجلهم.

* * *

كل هذا بسبب هذه العاهرة الأثيوبية سوسينا، الصحفية التي كانت تعمل معي في المكتب الإقليمي لوكالة الأنباء البريطانية في الشرق الأوسط وأفريقيا، هذه العاهرة هي التي خدعتني وأغرتني أن أذهب إلى أديس أبابا. كانت تحدثني عنهم كثيراً.

ـ أنت عراقي. أول ما رأتني.. أوه لدي أصدقاء عراقيون في أديس أبابا..

ـ كيف؟ أنا صرخت.

ـ طبعاً ثوار عراقيون؟

ثم أخذت تسرد لي حياة هذه المجموعة من العراقيين الهاربين من حرب الأهوار جنوب العراق، ثم إلى أوربا، وبعد ذلك انتقالهم إلى أثيوبيا، ثم أعطتني عناوينهم، عناوين حفنة من شيوعيين عراقيين وأفارقة، وشلة من أثيوبيات يقطن في شارع دبرتسايت في أديس أبابا. قالت إنهم شيوعيون هاربون أواخر السبعينيات من سجون صدام حسين إلى أثيوبيا. وشرحت لي كيف أنهم جاءوا هنا كي يقاتلوا مع مليشيات العقيد منغستو، جاءوا من بغداد إلى أديس أبابا كي يكونوا في مليشيات منغستو التي قاتلت في أرتريا.

كان حلمي هو الثورة، ولكن يبدو أني وصلت متأخراً، فبعد أن وصلت وجدت الثورة وقد تحولت إلى هذا الهراء، لم تكن أكثر من مجموعة من الأخبار الملفقة، صدقني ليست أكثر من ذلك، الثورة العظيمة التي حلمت بها لم تكن سوى عصابات. فرق عسكرية. كتب ماركسية رخيصة، عرق في الملاهي.

نساء في الليل حتى الصباح. صراخ. فوضى. كذب. خراء. وما لا أدري أيضاً. وهذه صورتهم الآن بعد أن سقط منغستو، فقد تحولوا مباشرة إلى حثالة، تحولوا إلى أنصاف عبيد بيض في شارع دبرتسايت. تحولوا إلى سكارى وحشاشين ومجتري كلام وسخافات وما لا أدري أيضاً. ولم يعودوا كما كانوا أيام زمان، حين كان كل واحد منهم يحمل في جيب جاكتته كتاباً عليه صورة لماركس أو للينين، أو عليه صورة لجيفارا، أو لباتريس لومومبا، يجلس على بار الخمارة أمامك، ويضع كأس البيرة أمامه، ويده على مؤخرة صديقته السوداء، ويحمل في اليد الأخرى سيجارته، ينظر نحوك بعينين مغمضتين، يسحب نفساً عميقاً ثم ينفث الدخان في وجهك وهو يقول: هل تعرف إن التحليل الماركسي الناقد لماركوزه يحمل النظام الاجتماعي الرأسمالي مسؤولية إخفاقه في صنع نظرية اجتماعية شاملة؟

نفايات هذه النظريات... توافقني بهذا الرأي؟ نفايات استهلكها الغرب وفرغها من محتواها ورماها لهذه الأمم المتخلفة كي تجترها. وإلا ما الذي يجعل نخبة من الشباب تهاجر من بعيد كي تأتي هنا في هذا البار وتجلس لتتناقش بالطريقة التالية:

أنا أحدثك عن معنى الأيديولوجيا وما ترسخه في بنية المفاهيم الذرائعية لثقافة البرجوازية المتحججة بالعلم الاجتماعي.

لا تضحك أرجوك! كانت نقاشاتنا نوعاً من التفريغ الحقيقي للعقول،

كانت مراواغات لمجموعة من السكارى هنا في هذا البار، كانت مشاكسات ضد التاريخ، من أجل اغتصابه أو مصادرته أو نحره، كنا نعتقد أننا نصنع التاريخ، لم نكن نعرف أن التاريخ لا يصنع هنا.

التاريخ يصنع في الغرب، وما كنا نفعله هو استمناءات نظرية في البارات، ما كنا نعرف أن هذه الأفكار قد أنتجت في بلدان صناعية ضخمة، ومع سياسة الاستهلاك صدرت نفاياتها لنا.

ما كنا نعرف أن الإيديولوجيات انتهت في الغرب وانتهى معها الجدل السياسي لأنهم تجاوزا ثقافتها، غير أنهم صدروا نفاياتها لنا، إلى البلدان المتخلفة، حيث أن تخلفنا لا يسمح لنا بتجاوز هذه الثقافات، ولذلك ترانا نتجادل من الصباح إلى المساء، وحين تشحب نقاشاتنا وتجف وتستهلك، نركض مرة أخرى للغرب نأخذ منه شوية نظريات جديدة لأنه هو مخترعها.

نقاشات من الصباح إلى المساء، نقاشات في كل مكان، في المطعم، في الشارع، في البار، نقاشات حتى نسقط هنا تحت الطاولات من السكر.

نتناقش عما قاله راديك في نقد الخط التروتسكي، والنقد التروتسكي لستالين، والخط التكتيكي البلشفي عن الفكر الماوي، وإياك أن تأكلك واحدة من هذه التهم مثل، برجوازي، أو يساري طفولي، أو محرّف، أو منشق.

فواحدة من هذه التهم كافية أن تجعل رفاقك يشدون وثاقك على عمود ويطلقون عليك الرصاص، ثم يرمون سيجارتهم على وجهك ويبصقون عليك.

كنت مهووساً بهذا الهراء المجنون، كنت أحب هذه العقول المخربة. كنت أتبعهم في كل مكان، في الملهى، والشقة، والفندق،

والمعسكر، والشارع، في كل مكان. في الشمال في الجنوب.. وكنت أكتب عنهم. كتبت المقالات الطويلة عنهم.. تصور.. أنا أول من كتب عنهم.. طبعاً كله كذب وهراء. كنت أقول لنفسي المهم أن أكون معهم. لا بل أقول لك أخذت أقلدهم، طبعاً أنا الآن أعترف لك بأشياء كثيرة وأريد أن أكون صادقاً معك حتى لو تضحك عليّ.

أنا في ذلك الوقت كنت مسحوراً بهم. وبدأت أقلدهم. أقلدهم في في كل شيء تقريباً، كنت مسحوراً بطريقة كلامهم، طريقة مشيهم، وحتى في ملابسهم، ملابس الثوار في أفريقيا وآسيا، ملابس مختلفة بطبيعة الأمر لا كما تراها الآن، وهكذا اشتريت من شارع تشرشل قبعة، وبنطلوناً كاكياً وقميصاً أبيض، وفي المساء جئت مرتدياً كل هذه الملابس ووضعت القبعة على رأسي، وأخذت سيجاراً كوبياً ووضعته في فمي، ومع كأس البيرة كنت أنفث الدخان، وأحلل الثورات في العالم:

ـ قرأت اليوم كتاباً رائعاً عن الثورة في نيكارغوا. كنت أقول لهم وأنا أنفث الدخان في الهواء، أضيق عيني وأنظر بصورة متقززة مما يحيط بي. وهو يقول لي

ـ كتاب الكفاح المسلح في أفريقيا لجيرارد تشاليان كان كتاباً رائعاً.

ـ هل أكملت كتاب جيفارا نعم بالتأكيد.

طبعاً هذه الحياة التي تراها أنت وأراها أنا الآن مملوءة بالكذب والتفاهات والقذارات، كانت عظيمة نسبة لنا.

كنا نجتر كل شيء دون فهم كثير، كنت أقول ما الذي نريده من الفهم، ماذا نفعل به، علينا أن نسحق النظريات في النهار ونعيدها في الليل، طالما تشعرنا بمتعة كبيرة، والمتعة الحقيقية طبعاً هي في استخدامنا كلمات مثل:

كفاح مسلح. ثورة شاملة. طوباوية. ديالكتيك ثوري.

أو استخدام أسماء مثل: تروتسكي.. جيفارا.. لينين!

متعة كبيرة وبهجة كبيرة تأتيك مع رائحة البيرة، ودخان السيجار الكوبي ورائحة النساء، وحين تضرب الكحول برأسك تصرخ بأعلى صوتك:

إنها الثورة يا رفاق. تعالوا لنحلم بتغيير العالم، تعالوا لنهز قصور المستثمرين والمستعمرين، تعالوا لنهدم منازلهم، ونأخذ نساءهم.

ثورتنا مثل ثورة الصين. تعالوا، نحطم ونهدم ونخرب، تعالوا نضرب ضربة واحدة فيصبح العالم كله في قبضتنا. ساعة. أو ساعتان من الأحلام، ساعة. أو ساعتان في النقاش ثم يتغير العالم برمته. يتغير كل العالم، وتنتهي الإمبريالية بلحظة واحدة، تنتهي الإمبريالية وتتأسس الإشتراكية وتتشيد مستعمرة السعادة، حين يأتي الثوار يرحل المستعمرون، حين تأتي البروليتاريا تهرب البرجوازية النتنة، وسيحكم العمال بعد أن يناصرهم الطلاب والفلاحون، وأسلحتنا هي هذه المفردات الصغيرة:

طلاب.. بروليتاريا.. شغيلة.. موظفون.. برجوازية صغيرة.

هكذا كان علينا أن نعيش في العالم الثالث... الثورة. يصرخ أحد السكارى في وجوهنا، فنتطوح بين الكؤوس على صوت الموسيقى الصاخبة، على الصياح والصراخ المجنون في فضاء من الدخان ورائحة البيرة والويسكي، على صوت النقاشات الصاخبة التي سنحرر بها الأرض من المستغلين.

- فليحيا هذا العالم الذي علينا أن نعيش فيه مع هؤلاء المجانين، والقوادين، ومع هاته العاهرات القبيحات.

طبعاً هنالك الكثير من الشباب الذين كانوا يقاتلون ويموتون، كانوا يعتقدون أنهم يقاتلون من أجل البروليتاريا وهم في الواقع كانوا يقاتلون

كي نسكر نحن يومياً ونتضاجع ونتناقش، والكثيرون كانوا يعتقدون أنهم يقاتلون من أجل الوطن، وهم في الحقيقة كانوا يقاتلون من أجل رجالات الحزب، وكثيرون كانوا يقاتلون ويقتلون معتقدين أنهم يموتون من أجل حرية الناس، وهم في الحقيقة كانوا يموتون من أجل اللصوص الذين يخوزقون الناس في السجون. مهزلة صدقني كانت هنالك مهزلة حقيقية.

في بغداد كنت معجباً بعزيز الحاج الذي قاد حرب العصابات في أهوار الجنوب. إلا أنه خذلني حين ظهر على تلفزيون بغداد ليشي برفاقه، فقررت الهرب بعيداً كي أصنع الثورة في أفريقيا بعد أن عجزت أن أقتنع بأي واحد في بغداد، وما كنت طبعاً أذهب لهؤلاء المجانين الوسخين الذي يعيشون في الزبالة لو لا هذه الصحفية الأثيوبية سوسينا، هذه المتكبرة كانت ترى نفسها شيئاً عظيماً، وهي لم تكن، سوى منحطة تؤيد منغستو على العلن، ما كنت آتي إلى هذه القذارة الصريحة التي وجدت نفسي غارقاً فيها، لو لا هذه السافلة التي كانت تبحث عمن يضاجعها. ولو سألتني لم أنا أشتمها الآن ومع ذلك كنت صدقتها. ذلك لأني كنت مختلفاً في ذلك الوقت عن الوقت الحاضر.

صحيح ما كان عليّ أن أصدقها مطلقاً، ما كان عليّ أن أقتنع بكلامها وأنا أكرهها كل هذه الكراهية، ولكني في ذلك الوقت كنت اقتنعت بكلامها كي أكتب هذا التقرير الخراء للوكالة عن زمرة هؤلاء المنحطين والقوادين في دبرتسايت.

* * *

كانت سوسينا تتنافس في الوكالة مع روبرت البريطاني المنغلق في بياضه وتفوقه، وكانت تريد أن تثبت له إن المرأة السوداء شديدة التوهج والجاذبية.

ـ «تشوهات عرقية.. وأمراض برجوازية» قلت لها ووضعت ساقاً على ساق مقلداً ثوريي البحر الكاريبي.

مهما يكن استنتاجي قاسياً، ولكني كنت مكرهاً عليه، وإلا لماذا هذه الدونية التي تواجه فيها روبرت والاستعلائية التي تواجهني بها، وأنا قلت لها صراحة لا تحاولي أن تكوني ثورية فتصرفاتك تفضحك.

ـ «كيف...» قالت.

ـ «كل امرأة سوداء تتمنى أن تتزوج من أبيض».

ـ «كل بروليتاري يتمنى أن يتزوج من امرأة برجوازية». وكلمة بروليتاري وبرجوازي كنا نستخدمها بدلا من كلمتي فقير وغني للدلالة على هويتنا السياسية والثورية.

ـ «أين الثورة إذن؟».

لا أحد يجيب بطبيعة الأمر، ثم سكرنا سكرة طويل. قلت لها صراحة:

ـ سوسينا.. اسمعي أقول لك صراحة كل شخص غير أوربي يحب الأوربيات.

ـ أعرف فحين تحبك الأوربية تدلل على أنك مقبول من الثقافة البيضاء والجمال الأبيض، مثل الأسود الذي ضاجع امرأة شقراء لأول مرة في حياته، أسود من أجمل السودان مع امرأة شقراء حراقة، وفي لحظة النشوة والانتعاظ صاح بها:

ـ «ليحيا شولستر»

وشولستر هو الرجل الذي تبنى سياسة تحرير العبيد في فرنسا ذلك الزمان.

كنت وقتها منجذباً لصحفية بريطانية جميلة، شقراء، وجهها أبيض مثل الحليب، صدرها بارز من خلف القميص، كنت أقف أمامها وأنا مستثار إلى درجة كبيرة، كانت تنظر جهة بنطلوني فأشعر بالحرج، حين تكلمني أتهالك على الأريكة، أتناول قدحاً من الماء علّ الماء يصرف انتباهي، كان قلبي أحياناً يخفق، أحياناً تجلس أمامي فتنزاح تنورتها القصيرة كاشفة عن جمال فخذها المكتنز والصلب، فيختنق صوتي، فتبتسم فأبعد عيني جهة الباب.

أعود إلى سوسينا التي سيهملها بوب، وتأتي باكية وتصرخ هذا الإمبريالي البشع، هذا المستغل المجنون الذي ستطيح به الثورة وبأهله، ثم تشرب كأساً من الماء وهي تشرق به وتسألني:

ـ هل أنت مختون؟

ـ نعم..

ـ أريد أن أراه مختوناً..

كانت سوسينا تعتقد أن الثورة تعني أن نطيح بهؤلاء الإمبرياليين ونخطف أموالهم، ندحرهم ونحتل بيوتهم ونشغلهم عبيداً في مزارعنا، ونفرض عليهم عقوبات اقتصادية، ونحاصرهم، وحين يهرب شبابهم من دولهم إلينا سنعاملهم كمهاجرين، بعضهم نعيدهم إلى بلدانهم والآخرون يحملون أعلام أثيوبيا ويقولون أحب أثيوبيا أحب أثيوبيا. قالت سوسينا:

سيخرج رئيسنا في حديقة البيت الأسود، وخلفه كلبه بوبي ويقول على أميركا أن تمتثل للقرارات الدولية.

وهكذا سيصبح الأسود فجأة محل الأبيض، ستقوم الثورة بأفرقة العالم.

وحين شعرت باستحالة العلاقة مع الصحفية البريطانية في تلك اللحظة بدأت أرى سوسينا على نحو آخر، كنت أنظر إلى صدرها ولم أعد قادراً على التحكم بدقات قلبي. لقد تغيرت مباشرة، صرت أعبد لونها الثوري، ورائحتها الثورية، ولغتها الثورية، وأعبد كل شيء ثورياً فيها. وعندما لفتّ ساقاً على ساق، تباعد رداؤها أكثر. وانكشف فخذاها السوداوان كلاهما. ولمحت من فوقهما انحناءة أحد ردفيها، وكذلك لمحت، وهذا لم أكن أحلم به، جزءاً من فرجها.

ـ «ألا توافقني في الرأي؟»

ـ «ماذا؟»

ـ «إن تحليل آلتوسير للرأسمال كان متوافقاً مع نظرية ماركوزة لمفهوم الإيديولوجيا. من الناحية النظرية على الأقل».

أرغمت نفسي على التحدّيق في قدحي، كانت الثورة تلوح في الأفق، آلاف من الجنود الذين يحملون العلم الأحمر، وشواجير الرصاص، والمدافع الصغيرة تندفع من الجنوب إلى الشمال، رايات كثيرة ترفرف، سفن كثيرة تندفع في الماء، جماهير هائلة سوداء وصفراء وسمراء تندفع نحو الشمال.

يا إلاهي دقت ساعة الصفر، صور لجيفارا في كل مكان صور لكاسترو وهوشي منه، صور كثيرة وفي كل مكان تقريباً، وبدلا من الإعلانات عن ملابس بيير كاردان وإيف سان لوران هنالك إعلانات عن الملابس الكاكية والرصاصية الموحدة، إعلانات عن بيريات مثل تلك التي كان يرتديها جيفارا، كاسكيتات مثل تلك التي كان يرتديها ماو. الثورة. وأشرب كأس العرق أمامها.

قالت: نحن نتعرف على الرفيق منغستو من خلال رفضه للمجتمع القمعي القائم والثورة عليه من خلال تأكيده على الدور الحاسم والثوري للعقل في حياة الانسان، وعدم النظر الى المجتمع من رؤية ذات بعد واحد!

ـ «نعم.. لكن..»

رفعت هذه المرة، ساقها عن الساق الأخرى، كنت وأنا أفكر بالثورة أحدق بلونها، كنت أنظر إلى الأماكن المغرية فيها، جسد سكسي وثوري معاً، وهي تتكلم عن الثورة كشفت قدراً أكبر من فخذيها السمراوين، وتمكنت من رؤية فرجها وهي ترد ساقها نحو الساق الأخرى،

شيوعية قلت. النساء اللاتي لا يرتدين كالسونات شيوعيات. النساء اللاتي لا يحلقن شعر عانتهن، وآباطهن ثوريات. راح العرق البارد يتصبب مني. أحسست بيديّ ترتعشان. نظرت إليها. ابتسمت. مرة أخرى، شعرت بأني يجب أن أقول شيئاً. عليّ أن أفعل شيئاً في هذه اللحظة بالذات، علي أن أبادر نحوها، أو أن أجذبها نحو تواليت البار، في الفسحة المقابلة للبار اصطدمنا براقصين وراقصات، توهجت الأضواء الحمراء والخضراء في عيوننا، في الممر اصطدمنا براقصات خلعن تنوراتهن وبقين بالكالسونات، وبراقصين بلا بنطلونات ولا كالسونات، خلف أبواب التواليتات نسمع نشيجاً وتأوهات عالية، تأوهات سود وسوداوات يمارسون الحب أمام المباول والمغاسل، نسمع من بعيد خوارهم، وأصواتهم وهي تتداخل، ضربات أخرى على باب التواليت.

ـ اخرج سأفعلها على نفسي! من ساعة وأنت وعاهرتك هناك! صوت الموسيقى يعلو، ألوان كثيرة على الحائط وشعارات الثورة في كل مكان،

روائح أبخرة عرق وويسكي يفوح، بوب بوبوبوبوبوب... والراقصون يغيبون في حركاتهم عن الوعي، كؤوس ترتفع وكؤوس تهبط، صرخات، وأنا أمسك بها وهي تمسك بي، اللون الأسود يرتفع في دمي، أشعر بكل شيء يتحول إلى اللون البني، أقبلها، أهرص صدرها بصدري، بنطلوني وتنورتها تسقطان معا، كالسوناتنا تخلع، قبعتي يا إلاهي صارت تحت أقدامها، قميصي طار عند المغسلة وتنقع بالماء، سيجاري في مكان ما يسحقه الآخرون بأعقاب أحذيتهم، ورائحة البول الممتد من الباب تفوح في الفضاء فتهيجني، وفي لحظة وهي من أشد اللحظات ابتهاجاً، شعرت بالنشوة القصوى، شعرت بامتنان للثورة، شعرت بعظمة كل شيء حولي. وفي غمرة الانتعاظ والقذف صرخت بأعلى صوتي:

ـ «فليحيا منغستو..».

الأيام التالية

كنت أسير في الطريق وأفكر مع نفسي:

الكل مسكون في بلداننا بنداء الثورة الذي سيصحبهم إلى الجبال في كردستان أو إلى الأدغال أو الأهوار. الكل مسكون بنداء الحرية والبحث المضني عن النفس. مسكونون بالنداء الذي لا ينتهي إلا بهلاكهم. هذه الثورة ماذا تعني؟ إنها تعني إذا تناولت سلاحاً فاستخدمه. أما ما بعد الثورة فهو توزيع الظلم بين الناس: الخيانة والفساد والتعذيب والقتل. من هنا تبدأ الثورة: الحلم بالسعادة والخلاص. ولكن لا سعادة ولا خلاص.

ثم يبدأ عالم جذّاب وغريب ومتوحش. الثوار يتعرون في الحيّز الواقعي، تتعرّى الطبيعة الإنسانية حتى العظم، ثم يبدأ القتال والنهب والتعذيب. نعود مرة أخرى إلى الحالة البدائية، إلى العالم الذي تسيّره القوى الغامضة. العالم الخلاسي الذي يحكمه الحكّام وقطّاع الطرق وأصحاب الكرامات والدراويش والعلوج والحسناوات والقراصنة والقبائل والعسس ومردة الجان، وفي مقدمة هؤلاء جميعاً العرّافون أصحاب النبوءات. أو رجال الدين الذين لا يتردد الحكّام في استشارتهم والوقوف على آرائهم عند كل مفصل من مفاصل حكمهم.

* * *

هكذا شعرت بأن مهمتي قد اكتملت. وكان عليّ أن أحجز من مكتب الطيران في شارع بولي. وبعد أن حجزت وعدت في الطريق شعرت بالعطش، فقررت أن أدخل بارا وأشرب كأسا من البيرة قبل عودتي إلى شقة لاليت. فدخلت بارا صغيرا أشبه ببارات نيويورك في السبعينيات. وفي البار نادل شاب يرتدي بذلة سوداء ويقدم المشروبات. غرامفون يطلق موسيقى جاز. رجلان يرتديان قبعتين قديمتين ويغازلان امرأة تحمل سلة خيزران ولها مؤخرة كبيرة. ساعي بريد يشرب كأسا من البيرة، وشاعر يقرأ قصيدة إيروتيكية بأقل التضاريس الأدبية الممكنة.

كنت أفكر بجبر سالم الذي خان الثورة، خان أحمد سعيد وراح ينشر أخبارا كاذبة عنه، ولكنه محق أيضا، فمنغستو سرق الثورة،... رفاق صدام قالوها عن صدام أيضا. الرفاق الذين بقوا على قيد الحياة طبعا، وهم قلة بالتأكيد ـ رفاق منغستو قالوها عن منغستو، الثورة موجودة على الدوام، والخارجون عنها كثر، بعضهم لا ينامون إلا في قبر، وآخرون يتوزعون على السجون والمنافي.

* * *

خرجت من البار، مشيت على الرصيف، كان هنالك كلب يتشمم العشب، بين الأشجار سكير منطرح على الأرض وقربه قنينة بيرة فارغة، في الحديقة رجل عجوز هزيل في شتائه الأخير تقوده فتاة بثوب كاثوليكي. عيناي تذهبان رغما عني إلى فتاة تهزّ ردفيها وهي تسير، تنظر إعلانات تملأ الواجهات عن أفلام هوليوود. سرت في الطريق كانت هنالك سيارة فيها شاب وفتاة يتبادلان القبلات.

هكذا فجأة لمحت جمال وحيد، العراقي الذي التقيته أول مرة من دون لاليت ولا آدم. هكذا لمحته بين مجموعة من الأوربيين بشعره

الطويل الذي شده إلى وراء، مرتدياً بدلة رصاصية دون رباط، وقد كان مظهره أليفاً جداً، كان نحيفاً جداً، فارع الطول، وكانت ملامحه عذبة.

حين رآني ابتسم وخف بخطوات سريعة نحوي وصافحني وقال لي:

ـ ها أنت لم تسافر حتى الآن؟

ـ الأسبوع القادم... قلت له.

ـ حسن أنت معزوم عندي في المنزل اليوم، سأرسل لك التاكسي لتقلك من هنا. في الساعة الخامسة مساء.

ثم غادرني بسرعة إلى أصدقائه الأجانب ووقف معهم.

في الساعة الخامسة جاءني التاكسي، وأفهمني السائق بإنكليزيته المتعثرة أن المستر جمال وحيد بانتظاري في منزله، فسرت معه إلى التاكسي، فتح لي الباب. وصعدت. انطلق التاكسي في الشارع العام من قرب محطة السيارات في تيرا، وبعد ذلك انعطفنا في طرق غير معبدة وملتفة على نفسها، دخلنا في أديس أبابا في العمق، ذلك أن العاصمة الأثيوبية مدينة جميلة من ميدانها العام ومن شوارعها الراقية وبناياتها الإيطالية المشيدة منذ العشرينيات والثلاثينيات، هذا الطراز الأوربي الكولنيالي المبهر، والمحلات الكبيرة الراقية، والأوتيلات الفخمة، وهنالك الكثير من الأجانب الشقر الذين تراهم يتجولون هناك، أو يتناولون طعامهم في أفخم المطاعم، أو يشربون في البارات، أو يرقصون مع أجمل النساء الإثيوبيات. ولكنك ما أن تذهب بعيداً قليلاً، ما أن تنحدر قليلاً عن الشوارع الرئيسية حتى تشاهد حياة أفريقيا الحقيقية، ستجد نفسك مباشرة في أفريقيا في العمق، هذا يعني أنك في: الفقر والبطالة والدعارة والمخدرات والعصابات وما شابه.

* * *

وصلنا إلى منزل مرتب تقريباً، يختلف عن كل المنازل المحيطة به، وأمامه شجرة عالية. هبطت من السيارة، فأشار السائق إلى الباب السوداء، وقال هنا. طرقت الباب، فخرج لي جمال وحيد مسرعاً وأدخلني إلى الداخل. كان المنزل عبارة عن باحة جرداء من خلف السياج تحتوي على مرحاض. وهنالك حجرة واحدة مستطيلة مقسومة إلى قسمين. في القسم الثاني يوجد طباخ صغير وكومدينو للأواني، أما القسم الذي دخلناه فلم يكن سوى سرير حديدي نظيف ومرتب بصورة شديدة. الشراشف بيضاء ناصعة، وطريقة الترتيب تبين مدى الحرص والدقة، الجدران جرداء من أية صورة، هنالك مكتبة صغيرة فيها القليل من الكتب، بعضها كتب ماركسية كلاسيكية باللغة العربية: مثل لينين استيقاظ آسيا، خطوة للأمام خطوة للوراء. بعض الكتب الحمراء بالأمهرية، وروايات لغائب طعمة فرمان ولنجيب محفوظ. أما الأرضية المعبدة ببلاط رديء فقد كانت نظيفة جداً. ورأيت لديه قليلاً من الملابس المكوية على الرف، وهنالك طاولة عليها الطعام وأمامها كرسيان من الخشب.

ثم رأيت ما هو ملفت ومثير حقاً:

كان هنالك في الزاوية فخ للحيوانات، وأدوات جارحة في حقيبة كاكية، وعلى مقربة منها جلد ذئب. سألته مندهشاً:

ـ ما هذه؟

قال وقد ذهب إلى القسم الثاني من الحجرة، توقف قليلاً عند الكومدينو ليجلب لي كأساً من النبيذ.

ـ هل صدقت إني أعمل في شركة لحماية الحيوانات.

ـ قلت له:

ـ نعم صدقت.

قال لي بثقة كبيرة وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

ـ أكثر الشركات الغربية هنا هي شركات وهمية، عملها عكس شعاراتها تماماً.

ـ تقصد شركات المحميات الطبيعية؟

ـ أكثرها من أجل قتل الحيوانات وأخذ جلودها، هم يقومون بحمايتها فعلاً يربونها ومن ثم يستغلونها.

ـ ماذا تعمل بالضبط؟

ـ كل شيء.. قال ساخراً.

ـ مثلاً؟ سألته.

ـ حتى لو صائد حيوانات ما الضرر؟ أنا أذهب إلى أماكن بعيدة لمطاردة الحيوانات..

وحين رأى لهجة استغراب مني واستنكاراً، غضب.. وقال:

ـ أنت متأثر على الحيوانات. واللّه عجيب كأنك مو من العراق. هو الإنسان عندكم عنده حقوق وهذه المرة تريدون تدافعون عن حقوق الحيوانات..

جلس على الكرسي أمام الطاولة وطلب مني أن أجلس أمامه، جلسنا، أكلنا، شربت أنا قليلاً من النبيذ، بينما هو أخذ يشرب العرق، وعلى طريقته القاتلة.

كنت سألته أسئلة متعددة ومتباعدة، وعن أشياء كثيرة، وأكثر ما سألته هو عن حياته في العراق وكيفية هروبه، فحدثني بقصة عجيبة لا تخلو من الترويع والإثارة، حدثني عن سجنه، وكيف قاسى في السجن

أنواع وصنوف التعذيب. كان يتكلم بغضب تقريباً، وبمرارة أيضاً. ولكني لم أستشعر حالات الغضب الحقيقية إلا بعد أن بدأ يسكر فعلاً. لقد أصبحت لهجته حادة، وأخذ صوته يتغير، وعيناه كانتا تزوغان بصورة غريبة، ثم أخذ يوجه كلامه إلى شخصيات غائبة عنه، أخذ يتكلم بهذيان تقريباً عن الخيانات وعن القتلة والمجرمين وعن هؤلاء الذين عذبوه ودمروا حياته.

ثم قال أنّهم أطلقوا سراحه.

ـ لماذا وكيف؟ لم يقل لي أي شيء عن هذا. كيف أطلقوا سراحه في الثمانينات؟

كان تحليلي لحظتها، ومن وضعه النفسي المعقد والمركب، أنه وشى بأصدقائه فأطلقوا سراحه. ومن جراء هذا الفعل هو يعاني اليوم من هذه الأزمة النفسية الكبيرة. كل هذه الشتائم والآلام والعذابات التي لا تنتهي بسبب هذه الوشاية والتي أجبر عليها. أي أنه اعترف في التعذيب على أصدقائه. قال لي أنه لم يكن يتحمل الكهرباء، لم يكن يحتمل أن يضرب بقوة على أعضائه التناسلية وانخرط ببكاء حار. لم يقل لي أنه اعترف على أصدقائه ولكني شعرت واستنتجت في الحال، أولاً أطلق سراحه، وفي ذلك الوقت لم يكن الأمر ممكناً، وبالتالي فإنه اعترف وكوفئ ولكن ما أثار حقاً عذابه هو مصير أصدقائه. قال جملة مهمة وضرب بيده على الطاولة.. قال المثل البابلي الذي كان نبوخذ نصر يكرره على ضحاياه على الدوام:

ـ اتبع مصيرك..

وحدثني عن مصير أصدقائه، كانوا يعدمون بوحشية، ثم يدفنون سراً في الصحراء. كان البعثيون يعدمونهم ويدفنونهم في شقوق في الأرض، يرمونهم واحداً فوق الآخر... ويهيلون عليهم التراب.

حين أطلقوا سراحه، شعر أن السلطة لن تصبر عليه طويلاً، وستطيح برأسه لا محالة. قرر الهرب، هرب إلى تركيا عن طريق كردستان. هربه المهربون وهو يرتدي ملابس ضابط في الجيش. ثم وصل الاتحاد السوفيتي. عمل فترة في وكالة نوفستي غير أن تاريخه كان يطارده. هذا الاعتراف كان يطارده. اتهمته إحدى خلايا الحزب بالوشاية والاعتراف وبذلك اتهم بالخيانة فهرب من الشيوعيين من الاتحاد السوفيتي وجاء إلى أثيوبيا. عمل بأعمال مختلفة، حتى وجد له عملاً ثابتاً في شركة أجنبية. ومن ثم وجد مطاردة الحيوانات البرية عملاً مربحاً. تنقل بين جنوب أفريقيا ووسطها وغربها. وهو يعمل الآن في أثيوبيا.

* * *

في البداية، شعرت بخوف كبير من جمال وحيد. لا أدري لماذا.

كانت شخصيته الودودة والصامتة تحولت فجأة إلى شخصية ثرثارة وعدوانية، وكان تأثير السكر عليه تأثيراً سيئاً جداً، كانت ملامحه تتشوه بصورة وحشية، وقبضته تهدد بصورة ثابتة في الهواء، وما زاد هذا الفضاء المرعب طبعاً وجود الفخ والآلات الحادة وجلد الذئب، فضلاً عن حجرة شبه فارغة في أفريقيا، وقد خيم الظلام تقريباً في الخارج ولم يعد خروجي ممكناً في هذا الوقت المتأخر.

هكذا وجدت نفسي فجأة أمام شخصية عصابية مريضة وموسوسة. شخصية خطيرة بدرجة ما، ثوري وشى بأصدقائه، وهو يطارد الحيوانات البرية، ويمتلك كل هذه الأدوات القاتلة.

سكر أيضاً وقد طبع السكر عليه تأثيراً سيئاً، وها هو أمامي: يشعر بعذاب حقيقي.

عذاب كنت استشعره من كلامه بقوة، كنت أشعر به وهو ينغلّ بعيداً في نفسه وفي روحه مثل خنجر، كنت أرى صوراً معذبة وقاسية جداً تنفلت منه على شكل شتائم واتهامات يوجهها إلى أشخاص يراهم أمامه وهم غائبون عنه.

كان يريد أن يفرغ عذاباته، كان يريد أن يرد على القسوة التي تعرض لها. ينخرط أحيانا في بكاء حار، وأحياناً ينظر لي بعينين مفزوعتين، ويشير بيديه، وكأنه يشير لي، ويسب ويشتم.

فجأة قال لي:

ـ تعرف.. أنا أرى الناس مثل الحيونات، كل شخص له هيئة حيوان، ويحمل خصائص هذا الحيوان أيضاً. البعض يشبه القرد. أنا أراه أحياناً قرداً أمامي، له هيئة القرد وشكله. أنظر له بعمق، أجد أن صورة قرد خلف هذا البني آدمي. البعض أراه يشبه الأفعى، صورته صورة الأفعى، وبعد ذلك أكتشف أن سلوكه مثل سلوك الأفعى. تماماً. هكذا أنا أتعامل مع الناس.

* * *

في الواقع حين سمعته يتحدث عن سجانيه وعن رفاقه وعن الشخصيات التي تعرف عليه، وحاول أن يقارب شكل كل واحد منهم بالحيوانات التي يعرفها، فمثلاً هذا يراه شبيهاً بالفيل، بعد ذلك يكتشف أن له تصرفات تشبه تصرفات الفيل، أو ذاك يشبه الكلب ويكتشف أن له صفات وخصائص كلب.

خطر في بالي أن أسأله عن نفسي. خطر في بالي هذا الأمر لأني لما كان هو يتحدث عن شبه الناس الذين عرفهم للحيوانات، مر في ذهني كل الأشخاص الذين أعرفهم، وقاربتهم مع الحيوانات، ووجدت النتيجة

قريبة من النجاح، قاربتها على آدم وعلى لاليت وعلى ميمي وعلى فيفي وعليه وعلى الجميع. ولكني لما أردت أن أستذكر شكلي، والحيوان الذي أشبهه، فقد فشلت.

لم أجد في نفسي شبهاً بأي حيوان لا في الشكل ولا في السلوك.

فقلت لماذا لا أسأله عن نفسي:

ـ وأنا ماذا أشبه؟

نظر لي بعينيه الزائغتين وقال أنت تشبه الذئب. عيناك نظراتك أسنانك.

لا أدري لماذا حين قال هذه الجملة شعرت بالرعب، لا أقول شعرت بالخوف فقط. لقد شعرت بفزع يخنق أنفاسي، فجأة أقشعر بدني كله، وشعرت بأقدامي لا تقويان على حملي، شعرت بأن هذا الرجل الذي أمامي سيصنع لي حفلة اصطياد الذئب، أو حفلة الركض وراء الذئاب، سيضع أقدامي في الفخ، ويقوم بسلخي.

نهضت من مكاني، قلت له أنا ذاهب للتواليت الموجود خارج الحجرة، وكانت عيناي تتوجهان نحوه ونحو الحائط، مهيئاً نفسي للركض إلى واحدة من السكاكين هناك لو فكر بالهجوم علي.

وحين أصبحت في الخارج تنفست الصعداء، وصلت إلى البوابة الخارجية فتحتها، وحينما أصبحت في الشارع، أطلقت ساقي للريح.

مع البوليس السري

قبل يوم من سفري أخذت أعد حقيبتي، كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً، هبطت لاليت من الشقة وذهبت إلى صالون الحلاقة، كما أنها أرادت أن تشتري قميصا كي ترتديه في السهرة المسائية التي سنحتفل بها كآخر يوم لي في أديس أبابا.

ذهبت إلى النافذة رأيت سيارتين سوداوين من نوع مارسيدس تقفان عند الباب، ومجموعة من الرجال المرتدين البدلات، وقبل أن يتاح لي تفسير أي شيء سمعت ضربات متوالية على الباب، فذهبت سريعا لفتح الباب وإذا بالبوليس السري يدخل الحجرة بالمسدسات.

ـ ماذا حصل؟

ـ ارفع يديك إلى الأعلى..

رفعت يدي إلى الأعلى.. أوثقوني وشدو عيني وحملوني إلى السيارة في الخارج.

في الطريق وأنا موثوق اليدين ومعصوب العينين فكرت كثيرا بميمي، بفيفي، بلاليت، بالسهرة التي كان يمكن أن نقضيها معا، فكرت بالقنصل الأميركي في أديس أبابا ومن سيدعوه ليأتي لإنقاذي.

أنزلوني من السيارة، أجلسوني على كرسي، فتحوا عيني فوجدت نفسي أمام ضابط أثيوبي عصبي المزاج.

ـ اسمك؟

ـ جورج باركر.

ـ عمرك؟

ـ أربعون عاماً.. اعتدت أن أصغر نفسي عامين أو ثلاثة للأمور النسائية ولكن يبدو أنها مستمرة معي حتى مع البوليس السري.

ـ جنسيتك؟

ـ أميركي.

ـ جنسيتك الأصلية؟

ـ نعم؟

ـ جنسيتك الأصلية؟

ـ أميركي.. قلتها بتردد..

ـ أين ولدت؟

ـ في بغداد.

ـ إذن جنسيتك الأصلية كانت عراقية؟

ـ ...اه صحيح.. نعم.. أوه... اه كنت عراقيا...

ـ عليك أن تتكلم بصراحة...

ـ أنا أتكلم بصراحة يا سيدي، ولكن لا علاقة لي الآن مع جنسيتي الأصلية... أنا أميركي.. أحلف لك أنا أميركي، ولم أفكر بغير أميركا.. لا علاقة لي بالعراق.. وأريد القنصل الأميركي أن يحضر جلسات الاستجواب بالسرعة الممكنة.

ـ ما هو عملك؟

ـ صحفي يا سيدي محلل سياسي...

ـ بأي شأن...

ـ ماذا تقصد؟

ـ المنطقة المتخصص بها...

ـ العراق...قلتها بصوت خافت...

ـ أنت تقول أنّ لا علاقة لك بالعراق..

ـ أقسم لك أنه عمل، هذا البلد غادرته من زمن بعيد...

ـ لماذا جئت إلى أثيوبيا..

ـ كي اكتب بحثا

ـ عن ماذا؟

ـ عن شيوعيين هاربين جاءوا إلى أديس أبابا...

ـ من هم؟

ـ جبر سالم..

ـ ومن هم الآخرون..

ـ أحمد سعيد وميسون عبد اللّه... قلتها بصوت خفيض.

ـ ما علاقتك بهما...

ـ أقسم لك بأني لم أر أياً منهما.. جئت لمقابلتهما لكتابة التقرير وجدتهما قد ماتا...

ـ ما علاقتك بالخلايا السرية التي انشآها..

ـ لا شيء ولم أعرف عنها بالمرة...

* * *

هكذا انتهى الاستجواب... وأخذوني إلى الزنزانة.

القنصل الأميركي

حين أخرجوني من الزنزانة وسمحوا أن أحصل على دوش، ووجبة طعام جيدة، وملابس نظيفة بعد أسبوعين أو أكثر من التعفن في حر الزنزانة عرفت أن أمرا كبيرا حدث ذلك اليوم.

القنصل الأميركي حضر وجلسنا معا في مكتب مدير السجن. كان شابا لطيفا جدا، أشقر بعينين زرقاوين، نحيف يرتدي بدلة أنيقة وربطة عنق زرقاء. ابتسم لي، صافحني، وبعد أن جلس سألني عن صحتي.

ـ الحمد للّه أن تكون أميركيا لو كنت عراقيا لأصبحت أقدم سجين في العالم دون أن يسأل عني أي كلب من الكلاب. ثم قدم لي شيئين.

صحيفة النيويرك تايمز وبطاقة الطائرة حيث سوف أطير هذا اليوم مساء إلى نيويورك، وقال لي أنه سيوصلني بسيارته إلى المطار.

حين فتحت الصحيفة رأيت مقالا مكتوبا عني، فيه صورتي ولكن المفاجئة أن في المقال صورتين منشورتين واحدة لميمي والأخرى لفيفي.

ـ shitt... قلت بصوت مسموع تقريبا. وقد احمر وجهي، كنت أقرأ وأسابق الكلمات لأصل إلى الفقرة الخاصة بهاتين الصورتين، ولم هما موضوعتان في هذا المقال، أخيرا أدركت في القراءة أن هنالك حوار مع ميمي وآخر مع فيفي كلتاهما تطلبان من الحكومة الأميركية التدخل

لإنقاذي من السجن في أثيوبيا. أليست هنالك طريقة أخرى غير هذه الفضيحة للوصول إلى نتيجة ممتازة مثل هذه النتيجة، أن تأتي الحكومة الأميركية لإنقاذي.

رفعت رأسي للقنصل...

ـ وهل عرفتا ببعضهما..

ـ لم أفهم...

ـ هل عرفت ميمي بقصتي مع فيفي..

ـ في الواقع السيدتان اتصلتا بالسفارة ولكن لا أعرف ما تبقى من القصة... ضربني على كتفي وقال لي تشجع... سوف لن يكون الأمر صعباً مثل ما أنت عليه الآن...

* * *

لقد شعرت بالتحرر الحقيقي أثناء هبوط الطائرة في مطار نيويورك، لقد ودعت أفريقيا ورائي، ربما لن أعود، ولكن لا يمكنني أن أنسى لاليت، وهكذا فكرت ومن منطق ذكوري بحت، وأعرف أنكم ستحقدون عليّ لهذا الأمر، ولكن الصراحة تقتضي أن أعترف لكم بكل شيء، فقررت إذا ما ساء الأمر مع ميمي، فإن الأمر لن يتحسن مع فيفي، عند ذاك سأفكر جديا باستدعاء لاليت عندي في نيويورك.

وحين حملت حقيبتي من شريط الحقائب وتوجهت إلى صالة الاستقبال وجدت بوكيين من الورد في استقبالي، بوكيان كبيران هكذا صارا في مواجهتي، واحدة تحملها ميمي حتى اختفى وجهها خلفها، ولكني عرفتها من كنزتها التي أكرهها، يا إلاهي لماذا تتمسك هذه المرأة بلبس

الكنزة التي أكرهها، ووجدت أنها ازدادت سمنة بعد هذا الوقت الذي قضيته خارج الولايات المتحدة، والأخرى تحملها فيفي، واحترت إلى أيهما أذهب أولا إلى ميمي أقبلها وأحضنها وأحمل الورد عنها أم إلى فيفي.

في نيويورك أخيراً

ها أنا في نيويرك أخيراً. كنت جالساً في البار وشرعت بكتابة التقرير الذي سأقدمه للوكالة.

جلست على الطاولة الموضوعة عند الزجاجة مباشرة كي أرقب ازدحام الناس في الشارع، جاء النادل بمريوله الأبيض، وتقدم نحو طاولتي بخطوات سريعة، كان بسحنته العالمثالثية يشبه الثوري المحترف، الثوري الذي قال عنه سان جوست يوماً لا يستطيع أن ينام إلا في قبر!

قبل أن يسألني عن طلبي، كنت أحدق بوجهه، ربما يشبه أحد أولئك الذين جروا البشرية إلى الخنادق.

ـ من فضلك. أريد أن أشرب نخب الثورة. ونخب الثوار. هل تشربه معي؟

ـ ماذا؟

ـ تعرف. أنا أفكر بالثورة كما لو كنت في العالم الثالث، طبعاً لو أخرجت رأسي الآن من باب هذا البار ونظرت إلى البنايات، وناطحات السحاب، والتي تضم هذا الخليط المتنوع من البشر، ونظرت ازدحام السيارات، والبنايات، ووفرة البضائع، والباعة من كل الجنسيات، لضحكت على نفسي. لا يمكن أن تحدث الثورة هنا. الثورة بحاجة إلى نوع من

التوحد، إلى نوع من الوحدة لا إلى نوع من الاختلاف، الثورة بحاجة إلى طبقة متجانسة من البشر، إلى ناس متشابهين ومتفاهمين ومتناغمين مع بعضهم البعض، وهذا غير موجود هنا أبداً، أبداً.

ـ ماذا تشرب يا سيدي..

ـ آه لم أقل لك أني أريد أشرب... ولكن اسمع ألا تحب أن أحدثك قليلا عن الثورات التي حدثت في العالم الثالث.

ـ لا سيدي فأنا لدي عمل...

ـ أنا أيضا لدي عمل...ولكني فقط كنت أتساءل لم لا تندلع الثورة في كل مكان؟ ونشرب نخب الثوار:

نخبك يا محمد، نخبك يا جان، نخبك يا تشي.

ـ نعم يا سيدي ماذا تشرب؟

ـ هل هناك كوكتيل اسمه ثورة على البلاج revolution on the beach؟

ـ لا سيدي هناك كوكتيل اسمه sex on the beach

ـ حسن أريد هذا الكوكتيل... لأن لا يمكن أن تكون ثورة من دون ثورة جنسية، لا حريات من دون ثورة ضد الدين. هكذا كانت الثورات مصنعاً هادراً سحب أمماً بأكملها بحبله السميك وجرها إلى ميدان الاحتجاج، هذا هو الذي جعل الشباب يتقافزون من شارع إلى شارع، من منزل إلى منزل، من بلاد إلى أخرى وهم بإيديهم المناشير، أو البنادق، أو اللافتات؟

والآن أين كيوبيد العصر؟

هذا الذي جعل النساء البرجوازيات مغرمات بصورة هؤلاء الشباب المغامرين، أبناء الفقراء من العمال والفلاحين، أو من القادمين من أحزمة

الفقر في المدن، وهم بذكائهم ووسامتهم؟ أو من الأغنياء الرومانتيكيين الحالمين بدولة العدل والمساواة؟

أين الثورة التي فرقت أبناء الطبقات الكبيرة والموسرة بجاذبيتها العذبة عن أسرهم. جذبت كل أولئك الحالمين الرومانتيكيين وقد أطلقوا لحاهم الصغيرة وشعورهم المنكوشة تشبهاً بالفقراء أو بالصوفيين المتبتلين والمنقطعين عن الحياة، وجعلتهم يتركون كل شيء وراءهم: النوادي الراقية، المطاعم، البارات، القصور، الأسرّة النظيفة، والوظائف وراحوا إلى الأدغال، أو الجبال، أو الأهوار.

* * *

لماذا لا تحدث الثورة هنا، الآن وفي هذا الوقت؟ في أميركا مثلاً، أو في أوربا، بل غادرت حتى آسيا وأفريقيا، ما عادت هنالك ثورات كما كنا نراها ونسمع عنها كل يوم تقريباً. أين ثورات أميركا اللاتينية التي كنا نترقبها كل يوم؟

في الغرب مثلاً ما عادت البروليتاريا هي الفقيرة والمحرومة جداً، إنما الكل يأكل، والبحث عن الجنس يحرف الناس من التفكير بأشياء كبيرة إلى التفكير بأشياء صغيرة: الوسامة مثلاً، الملابس الأكثر إثارة، الجسد السكسي القادر على إثارة غرائز الآخر. إنه ببساطة الرضا عن النفس. أما الرضا عن النفس في الشرق الأوسط فهو قليل جداً.

بما أنك لا يمكن لك أن تتعرف على نساء كثيرات، فإنك تعيش في ضيق نفسي دائم، تريد أن تحطم كل شيء لكي تجذب انتباه الآخرين. وهنا الثورة واحدة من الرموز الإيروسية لجذب انتباه النساء.

* * *

إن تغيير المواقع السريع يحرف تفكير الناس من التفكير بثورة تطيح بمواقع ثابتة وتحل محلها مواقع أخرى، إلى تغيير تدريجي وساكن ومهادن؟

وربما لأن الثوار القدماء ـ الحكام هذه الأيام ـ سدوا كل المنافذ على الثوار القادمين؟ عصر ما ـبعد الثورة البطاش لن يسمح بأن يحل محله ثوريون آخرون، فالشاطر من ينشل الثورة من جيوب رفاقه، يقتلهم ويصبح أعتى من جلاده. الثورة مثل صولجان الساحر من يأخذه بيده يقضي على غيره.

ولكن أين هؤلاء الذين اتخذوا من الثورية عملاً لهم وذهبوا إلى التغيير دون أن تستطع أية قوة على الأرض أن توقفهم؟ أين الجماهير التي كانت تخرج وتخرب كل شيء أمامها باسم الثورة؟ أين الحلم بالتغيير والذي كان قدر عصرنا؟ حتى الحداثة المجلوبة والمنقولة من الغرب كان أصحابها يسمونها ثورة.. لا الشيوعية والاشتراكية وحدها كانت الثورة أبداً، حتى الرأسمالية كانت ثورة أيضاً. كان ابتكار الثورة هو عمل من يفكر بشيء وراء الأسطورة الداعية الى حل الأزمة الإنسانية برمتها.

إنها اليوتوبيا مرة أخرى. يعني أن يقودنا الحالمون وراءهم نحو سراب التغيير. والعراق هو الآخر ركض. ركض وراء قاسم، أو وراء صدام حسين حتى انزلقنا شيئاً فشيئاً وأصبحنا في الوحل.

لقد تراجعت الأسطورة كثيراً وعاد الحالمون من السجون أو المواضع إلى منازلهم، وظهر شبح آخر، شبح الإرهابي الذي يريد أن يخرب دون أن يحصل أحد على شيء، فهو يذهب إلى الجنة ـ هكذا يعتقد ـ ويترك وراءه الناس إلى الخراب والدخان.

من يشرب اليوم نخب الثورة؟ الشيوعية تراجعت كثيراً، والرأسمالية ما زالت تتخبط حتى اليوم، وتتعثر بالفقراء والكادحين والمهاجرين والمتدينين، وبمقدار ما صنعت من العولمة عالمية، أصبحت مهددة بالهويات الفرعية ومن داخلها، ما حل إذن باليوتوبيا؟

* * *

من هذا ابن القحبة الذي جاء كي يحرر أفريقيا؟

الثورة مثل الذئب... نعم بالتأكيد، نحن في العراق عرفنا الثورة مثل ذئب يركض أمامنا ونحن نركض وراءه بلا انقطاع. نركض وراءه ونحن خائفون منه، نريد إن نمسك به، غير أننا غير قادرين على الاحتفاظ به، فإن توقف وأمسكنا به سيأكلنا بالتأكيد، وإن ركض فإنه يركض أمامنا ونحن سنركض وراءه بلا انقطاع. لقد قبضنا على الثورة لكنها أقوى منا، فنهشتنا. وكذلك اليوتوبيات التي حلمنا بها، لا يوتبيات الغرب فقط، إنما حتى يوتوبياتنا، ماذا حصلنا بعد كل هذا العذاب والركض.

يوم جميل وهاديء ورائق

اتصلت بميمي وقلت لها أني سأتأخر..ذلك أني سأكتب التقرير في المقهى. صمتت قليلاً...أظن أنها خمنت بأني سأمضي اليوم مع فيفي. وفيفي من جانبها اتصلت بي وقالت ماذا تصنع الليلة ستبقى عند ميمي؟ صمت، قلت لها سأتصل بها فيما بعد. بعد الظهيرة كتبت بطاقة معايدة وأرسلتها إلى لاليت وقلت لها...ستكونين معي قريباً في نيويورك!

حين زرت الوكالة شعرت بالراحة، ذلك أن جميع زملائي كانوا يعاملونني مثل بطل. بطل راح يكتب تقريرا في أفريقيا، في إحدى البلدان اللاديمقراطية، البلدان ما قبل حداثية، في إحدى البلدان العالمثالثية، اللاغربية...وكلها استعارات مقبولة لكلمة قديمة اختفت في الاستعمال ولكنها موجودة في الوجدان: البلدان المتخلفة.

ـ أوه أنت بطل حقيقي...

قالت لي المديرة:

ـ نحن فخورون بك...وكنا نقول للصحافة نحن الذين أرسلناك..

كنت سعيداً من جهة بأمريكيتي، ومن جهة أخرى بتسامحي فعلى الجدار في مكتبي علقت صورة لفرانز فانون وهو يضرب بقدمه الأرض. كان يرتدي بذلة أوربية، ربطة عنقه من الحرير، وغليونا من العاج في فمه.

صورته صورة ساحرة. وهو يقف بسواده اللامع. ومن دون شك هو ساحر للأفريقيات اللواتي وجدنه رمزاً إيروسياً للثوري الفحل والمخصب والمندفع للأمام بقوة. طبعاً هو صورة مقلوبة لثوارنا الجدد، أصحاب الدشاديش القصيرة واللحى أو أصحاب العمائم السود، الذين يشكل الجنس لديهم انتكاسة روحية في الأرض، وشهوة مستديمة في السماء، فبعد تفجيرهم لأنفسهم سيضاجعون سبعين حورية للأبد.

ـ نحن متشوقون لقراءة التقرير..

ـ قريبا سيكون على مكتبك..

ـ سيكون شيئا رائعا...

ـ أتمنى..فقد ضمنته شيئا جديدا وهو مصطلح ما بعد الثورة.

ـ ماذا يعني؟ قالت المديرة وهي مبتسمة.

ـ هو التفكير بالثورة من جهة انتقادها، وربما تهديمها. ما بعد الثورة هو الشك بالثورة، مثلما كانت ما بعد الحداثة هي الشك بالحداثة، وما بعد البنيوية هي الشك بالبنيوية، وما بعد الكولنيالية هي الشك بالكولنيالية.

ـ أوه مصطلح جديد سيكون موضة الدراسات الحديثة...

صعد غروري إلى درجة قلت لها:

ـ أظنه سيحل محل مصطلح ما بعد الكولنيالية...

ـ شيء سيكون بوم في الدراسات السياسية

ـ نعم سأحاكم فيه حلم التغيير عند جيل الثورة؟ والأب هنا هو الجيل الأول للثورة. الجيل الصانع لها لا الحالم بها فقط. أما الجيل الثاني، هو الجيل الراكض وراء سراب التغيير، الجيل الراكض وراء سراب الوعود النبيلة التي ستحول الوجود من سكون إلى حياة، الراكض وراء باص الثورة

الذي سيصحبهم إلى عالم المثال، الراكض وراء نداء الحرية والبحث المضني عن النفس، لكن النداء انتهى بهلاكهم تماما.

ـ لا تنسى نقد الشيوعيين..ها؟

ـ طبعا طبعا...سأكتب من جهة الاختلاف مع الغرب..

ـ نعم هذا مهم...

ـ في الغرب ينتهي الثوري إلى المصحات، أو للعرش أو للقبر. أما العربي فينتهي إلى الحكم أو إلى السجن أو إلى المقهى.

ـ أحب هذه الفقرة..

ـ سأتكلم لم هؤلاء الشباب ذهبوا إلى الثورة، وذهبوا بمعاداتنا إلى العمق...

ـ لماذا برأيك؟

ـ أسباب كثيرة ستجدينها في التقرير...

ـ وماذا هنالك أيضا؟

ـ كتبت كيف كنا نعيش في بغداد تحت الثورة كما لو كنا نعيش تحت كابوس. فتتحول الشخصيات المحيطة بنا من شخصيات واقعية إلى شخصيات كابوسية. تمثال الرئيس وصورته في الشارع هي التي تحكم.

شعارات الثورة على الجدران هي التي تحكم. ثم نتحول نحن من شخصيات واقعية إلى شخصيات ما بعد واقعية، وأعني بالشخصيات ما بعد الواقعية هي الشخصيات التي لا مركز لها، حيث يتحول محور الواقع إلى محور الوهم. والمظاهر المادية تتحول إلى مظاهر سايكولوجية، والمظاهر السايكولوجية تتحول من أحداث مجسمة إلى أحداث هلامية، وردود الفعل اليومية تتحول إلى ردود أفعال اجتماعية وسلوكية لا تحولات وجودية، وحالة التماسك والبناء تتحول إلى هدم وانتشار.

كنا نعيش نظاماً خطيراً من التحولات المستمرة والمرادفة لانهيار الواقع بعد انهيار الثورة. تداعيات من الكذب والاختلاق، تيار وعي قادم وجارف وملتو. واقع يواجه الواقع ويحاربه ويعاديه، واقع لا يؤمن إيماناً مستقلاً بالواقع. إنه يقاوم الواقع عن طريق الأحلام وهكذا يتحول الواقع إلى أشبه بالواقع، والشخصيات الواقعية تصبح بلا هوية محددة. حتى الثوار الذين يتحولون إلى السلطة نحن نراهم في التلفزيون وقد استحالوا إلى شخصيات هلامية بلا هوية متماسكة. شخصيات واقعية ولكنها افتراضية أيضاً. تبتعد عن الواقع وتخلق لها ما بعد واقع تعيش فيه وتهب نفسها له، فالواقع يتهاوى ويظهر محله واقع آخر، كنا نعيش في العراق واقعاً بديلاً عن الواقع الذي لا نرغب بالتماهي معه.

نحن نهرب من الواقع ونواجهه بكل ما هو لاواقع. نواجهه بواقع بديل، أو افتراضي، نواجهه باختلاق واقع الأحلام والرغبات وهو النقيض للوقائع اليومية والمعادية لشخصياتنا وطموحاتنا.

ـ أريد هذا التقرير بسرعة..كم أحب ما تقول

ـ سأتكلم أيضا عن واقع الثورة ذلك أنه النكوص عن الواقع الفعلي، النكوص عن التغيير وسراب الوعود النبيلة والتي بشرت بها الثورة قبل الثورة، أما حقيقة الثوار فهي التخلف والبداوة المعممة. ذلك أن عقول الثوار العرب كانت تعيش تناقضاتها الحادة مع الحداثة والأفكار العظيمة الوافدة من الغرب قبل كل شيء. كانت تعيش هذه التناقضات الفاضحة لأنها ببساطة نتاج عصر ما قبل الدولة، عصر عشائري متخلف يحكمه قانون متخلف ومتراجع وماضوي.

أما بعد الثورة حقيقة فيتجسد في خراب الواقع وضياع الثورة،

الشاهد الحقيقي هو الكاذب الحقيقي. لأن الرائي هو الذي يكذب الواقع. أما الواقع فلا نقترب منه إلا اقتراباً مرتبكاً، الأشياء لا تأخذ صورتها الحقيقية إلا في تشكلها عبر الأحلام والأوهام.

ـ كم رائع ما تقوله...ولكن هل تذكر الشيوعيين بالاسم.

ـ قلت لك طبعا طبعا..أنا شخص واقعي...ومن البداية كنتم تقولون عني شيوعي ولكني لست كذلك.

ـ كان خطئأ وصححناه...

ـ أنا أميركي مخلص..

ـ نحن فخورون بك.

* * *

خرجت من الوكالة سعيداً. مررت على فيفي، هرعت لملاقاتي حتى تعثرت بالحذاء ذي الرقبة الذي رمته قبالة باب الشقة، جلسنا على كراس متقابلة، قبلتني برقة، مدت يدها لتفتح سحاب بنطالي، لكني لم اتحرك قلت لها:

ـ اسمعي..أنا متعب الآن بحاجة الى كم يوم لأتأقلم مع أجواء نيويورك.

ـ أجواء نيويورك ماذا تقصد..

ـ لا أقصد شيئا ولكن أنت تعرفي...السجن في أفريقيا أثر علي أحتاج إلى بضعة أيام لأعود لحالتي الطبيعية.

ـ كما تشاء تريد ويسكي..

ـ لا سأذهب للمنزل اريد أن أنام كي أكتب التقرير..

ـ ماذا ستكتب في التقرير

ـ كل شيء سوف ابدأه بجملة ملوكين

من هذا ابن القحبة الذي جاء ليصنع الثورة في أفريقيا...

* * *

خرجت من فيفي..في الطريق اتصلت بلاليت:

ـ لاليت لا أستطيع العيش من دونك لم أعد قادرا على الجنس مع امرأة بيضاء...

ثم عدت إلى شقتي في شارع الدرب السادس من هدسون، كانت كاتي سعيدة وبوب أيضاً، ولا سيما بعد أن قلت لهما بأني سأساعدهما في الزواج، ميمي كانت سعيدة أيضا وهي تشرح لي ما نحتاجه في تجديد المنزل، ثم اقتربت مني، مدت يدها وأرادت أن تداعبني، فشعرت بالتقزز. فابتعدت عنها، ذهبت للصالة صبيت لنفسي كأسا، وصرت أفكر كيف أهرب منها هذه الليلة.

* * *

بعد أن جلس الجميع في الصالة، وأخذوا يقلبون الصور التي التقطتها في أفريقيا، كانت واحدة هي التي بهرت الجميع، قالوا إنها معبرة، كانت صورتي واقفاً ومبتسماً وحولي عشرون امرأة وطفلاً من مشوهي الحرب الأهلية.

عزلتها ميمي كي تؤطرها وتضعها على جدار الصالة، بينما كانت

محطة الفوكس نيوز تعرض سوقاً في بغداد يتصاعد الدخان منه، ومجموعة من الأشخاص يرمون الجثث المحترقة والملفوفة بالبطانيات في سيارة بيكاب مثل نفاية.

بغداد ـ أديس أبابا ـ بروكسل.



علي بدر، كاتب عراقي، حصل على العديد من الجوائز وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية. أصدر ثلاث عشرة رواية، منها "بابا سارتر 2001" التي حصلت على جائزة الدولة في بغداد، وجائزة أبي القاسم الشابي في تونس، وترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية. و"شتاء العائلة 2002" التي حصلت على جائزة الإبداع في الإمارات العربية المتحدة، ورواية "حارس التبغ" في العام 2008، ورواية "ملوك الرمال" التي رشحت إلى جائزة البوكر العربي في العام 2009، ورواية "الكافرة" التي صدرت في العام 2015. أصدر ست دراسات فلسفية، منها "ماسنيون في بغداد 2005" التي حصلت على شهادة تقديرية من جامعة نونتر في باريس، وكتاب "خرائط منتصف الليل" الذي حصل على جائزة ابن بطوطة في الإمارات العربية المتحدة وترجم إلى سبع لغات أجنبية. وكتب ثلاث مسرحيات، منها مسرحية "فاطمة التي اسمها صوفي" التي مثلت بالفرنسية وحصلت على أربع جوائز في الموسم المسرحي القومي في بروكسل. ونشر العديد من المقالات الصحفية في الحياة والواشنطن بوست الأميركية، واللموند الفرنسية والسفير والأخبار.

هذه الرواية التي وصفتها صحيفة الإندبندت البريطانية عند صدورها بأنها واحدة من أهم وأخطر الروايات الصادرة في العالم العربي ... تدور أحداث هذه الرواية بين بغداد وأديس أبابا ونيويورك، حيث تبعث وكالة الصحافة الأجنبية في نيويورك أحد صحفييها إلى أديس أبابا في أثيوبيا واسمه جورج باركر، لكتابة تقرير عن مثقفين شيوعيين فارين من بغداد بعد أن أشعلوا ثورة فاشلة في جنوب العراق للالتحاق بالجيش الأممي الذي أسسه منغستو، الدكتاتور الذي أطاح بحكم الإمبراطور هيلاسي لاسي. وهناك يلتقي هذا الصحفي الغريب الأطوار، العاشق للنساء والنبيذ والحكايات التاريخية، بزمنين: زمن الثورة، وزمن انهيار الثورة، حيث سقط الثوار وأصبحوا من رواد المقاهي والملاهي والبارات، غير أن هذا الصحفي يواصل البحث وتقصي الحقائق حيث يجعلنا نعيش أحداثاً عاصفة وهو يطلق تحذيره إلى صديقته الأثيرة: "لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي".

لكل من يريد
أن يمزج
المتعة
بالمعرفة

رواية بأحداث جديدة وصياغة جديدة تختلف عن الطبعة الأولى

الناشر


ISBN 978-1-7732216-9-4